

تفجمات القرآن

أسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

الجزء التاسع

تمت طباعتها في دار النشر
بمساهمة من الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحات القرآن: اسلوب جديد فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

كاتب:

ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

موسسه ابي صالح النشر و الثقافه

رقمى الناشر:

مركز القائميہ باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٣	نفتح القرآن المجلد ٩
١٣	اشارة
١٣	الولاية والإمامة
١٣	اشارة
١٣	تمهيد:
١٣	اشارة
١٤	١- ماهى الإمامة؟
١٥	٢- هل الإمامة من الاصول أم من الفروع؟
١٦	٣- متى بدأ البحث فى الإمامة؟
١٦	اشارة
١٧	اصطلاح «الإمام» فى اللغة والقرآن:
١٨	٤- عظمة منزلة الإمام فى القرآن الكريم
٢١	٥- فلسفة وجود الإمام
٢٤	١- الولاية والأمامة العامة فى القرآن الكريم
٢٤	تمهيد:
٢٥	آية الانذار والهداية:
٢٧	آية الصادقين:
٢٩	آية اولى الأمر:
٣٢	٢- الولاية والإمامة العامة فى السنة النبوية الشريفة
٣٢	تمهيد:
٣٣	١- حديث الثقلين
٣٣	اشارة

- ٣٧ ترتيب مختصر:
- ٣٨ تكرار حديث الثقلين على لسان النبي صلى الله عليه و آله:
- ٣٩ المسائل المهمة المستوحاة من حديث الثقلين:
- ٣٩ سؤال أخير:
- ٤١ ٢- حديث سفينة نوح
- ٤١ اشارة
- ٤٢ مفاد حديث السفينة:
- ٤٣ ٣- حديث النجوم
- ٤٣ اشارة
- ٤٤ مضمون حديث النجوم:
- ٤٤ سؤال:
- ٤٤ ٤- حديث «الأئمة الأثنى عشر»
- ٤٤ اشارة
- ٤٨ مضمون حديث «الأئمة عليهم السلام اثنى عشر»:
- ٥٠ ملاحظة
- ٥٠ لا تخلو الأرض من حجة:
- ٥١ الإشارات القرآنية والمنطقية على وجوب الحجّة:
- ٥٢ الشروط والصفات الخاصة بالإمام
- ٥٢ اشارة
- ٥٢ تمهيد:
- ٥٣ علم الإمام
- ٥٣ اشارة
- ٥٥ ملاحظة
- ٥٤ مصادر علم الأئمة!

- ٥٦ اشارة
- ٥٦ ١- العلم الكامل بكتاب الله
- ٥٩ ٢- الوراثة من النبي صلى الله عليه و آله
- ٦٠ ٣- الاتصال بالملائكة
- ٦٠ ٤- إلقاء روح القدس
- ٦٢ ٥- النور الإلهي
- ٦٣ عصمة الأئمة عليهم السلام
- ٦٣ تمهيد:
- ٦٥ مَنْ هم أهل البيت؟
- ٦٨ أجوابه عن عدة أسئلة:
- ٧١ شبهات حول العصمة:
- ٧٢ خصائص الأئمة عليهم السلام
- ٧٢ اشارة
- ٧٣ الله فقط الذى يُعَيِّن الإمام:
- ٧٤ الولاية التكوينية للأنبياء والأئمة عليهم السلام
- ٧٤ اشارة
- ٧٤ تمهيد:
- ٧٨ الولاية التكوينية فى الأحاديث الإسلامية:
- ٨٠ الولاية والإمامة الخاصة
- ٨٠ اشارة
- ٨٠ تمهيد:
- ٨١ القسم الأول: الآيات التى تهتم بمسألة الإمامة بشكل مباشر
- ٨١ ١- آية التبليغ
- ٨٢ اشارة

- ٨٢ شأن النزول:
- ٨٣ حادثة الغدير:
- ٨٣ مضمون روايات الغدير:
- ٨٥ دراسة وتحليل حول آية التبليغ:
- ٨٦ توضيحات
- ٨٦ ١- معنى الولاية والمولى في حديث الغدير
- ٨٧ ٢- آيات أخرى في القرآن تؤيد حديث الغدير
- ٨٩ ٣- كيفية ارتباط هذه الآية بما قبلها وبعدها
- ٩٠ ٤- لماذا لم يحتج الإمام على عليه السلام بحديث الغدير؟
- ٩١ ٢- آية الولاية
- ٩١ اشارة
- ٩١ سبب النزول:
- ٩١ اشارة
- ٩٣ كيفية دلالة الآية على الخلافة:
- ٩٣ شبهات واعتراضات:
- ٩٧ ٣- آية اولى الأمر
- ٩٩ ٤- آية الصادقين
- ١٠٠ ٥- آية القربى
- ١٠٠ اشارة
- ١٠٢ آية القربى في الروايات الإسلامية:
- ١٠٥ القسم الثاني: آيات الفضائل
- ١٠٥ تمهيد:
- ١٠٥ ١- آية المباهلة
- ١٠٥ اشارة

- ١٠٦ مضمون آية المباهلة:
- ١٠٧ المباهلة في أقوال المحدثين:
- ١٠٩ أهمية المباهلة:
- ١١١ مؤاخذاتهم على آية المباهلة:
- ١١١ الجواب:
- ١١٣ ٢- آية خير البرية
- ١١٥ ٣- آية ليلة المبيت
- ١١٨ ٤- آية الحكمة
- ١١٨ ٥- آيات سورة هل اتى (الإنسان)
- ١١٨ اشارة
- ١٢٠ هل أتى في الشعر:
- ١٢١ المشككون وسورة هل أتى
- ١٢٣ ٦ و ٧- آيات مقدمة سورة «البراءة» وآية «سقاية الحاج»
- ١٢٣ اشارة
- ١٢٣ الاولى آيات مقدمة سورة البراءة
- ١٢٣ اشارة
- ١٢٥ النتيجة:
- ١٢٦ الثانية: آية سقاية الحاج
- ١٢٨ ٨- آية «صالح المؤمنين»
- ١٢٩ ٩- آية الوزارة
- ١٢٩ اشارة
- ١٣٠ مضمون آية وروايات «الوزارة»:
- ١٣١ ١٠ و ١١- آيات سورة الاحزاب
- ١٣١ اشارة

سؤال: ١٣٣

١٢- آية البينة والشاهد ١٣٣

١٣- آية الصديقون ١٣٥

١٤- آية النور ١٣٦

١٥- آية الانذار ١٣٧

١٦- آية مرج البحرين ١٤٠

١٧- آية النجوى ١٤٢

اشارة ١٤٢

سؤال: ١٤٤

١٨- آية السابقون ١٤٥

اشارة ١٤٥

١- من المقصود من: «قليل من الآخرين»؟ ١٤٦

٢- من هو أول مسلم؟ ١٤٦

اشارة ١٤٦

سؤال واحد فقط! ١٥٠

الجواب: ١٥٠

١٩- آية «اذن واعية» ١٥٢

اشارة ١٥٢

النتيجة: ١٥٣

٢٠- آية المحبة ١٥٤

٢١- آية المنافقين ١٥٥

٢٢- آية الإيذاء ١٥٧

٢٣- آية الانفاق ١٥٩

٢٤- آية المحبة ١٦٠

- ٢٥- آية المسؤولين ١٦٤
- الأئمة الاثنى عشر ١٦٦
- اشارة ١٦٦
- تمهيد: ١٦٦
- اشارة ١٦٦
- ١- آية الصلوات والتحية ١٦٨
- ٢- آية النور والبيوت ١٧١
- ٣- الصراط المستقيم ١٧٢
- ٤- وسيلة قبول توبة آدم عليه السلام ١٧٣
- ٥- أفضل الحسنات ١٧٥
- اشارة ١٧٥
- التصريح باسماء أئمة أهل البيت عليهم السلام: ١٧٧
- الإمام المهدي عليه السلام ١٧٨
- اشارة ١٧٨
- تمهيد: ١٧٨
- اشارة ١٧٨
- ١- حكومة الصالحين في الأرض ١٨٠
- ٢- آية سورة النور ١٨٣
- ٣- آية ظهور الحق ١٨٥
- آثار انتظار المهدي عليه السلام: ١٨٧
- حقيقة الانتظار وآثاره البناءة: ١٨٧
- والآن تأملوا في هذه الطائفة من الروايات بدقة: ١٨٨
- مفهوم الانتظار: ١٨٩
- الانتظار يعني الاستعداد التام: ١٩٠

- ١٩٠ اشارة
- ١٩٠ الفلسفة الاولى بناء الذات فردياً
- ١٩١ الفلسفة الثانية: أعمال الرعاية الاجتماعية
- ١٩١ الفلسفة الثالثة: المنتظرون الحقيقيون لا يذوبون في فساد المحيط
- ١٩٣ تعريف مركز القائمية باصفهان للتمريات الكمبيوترية

نفحات القرآن المجلد ٩

إشارة

سرشناسه : مكارم شيرازى ناصر، - ١٣٠٥
 عنوان و نام پديد آور : نفحات القرآن اسلوب جديد فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ناصر مكارم شيرازى بمساعده مجموعه من الفضلا
 مشخصات نشر : موسسه ابى صالح النشر و الثقافه [١٣٧٧؟].
 مشخصات ظاهري : ج ٦
 وضعيت فهرست نويسى : فهرست نويسى قبلى يادداشت : عربى مندرجات : ج ١. العلم و المعرفه فى القران. -- ج ٢. معرفه الله فى القرآن. -- ج ٣. -- ج ٤. معرفه صفات و جلال الله. -- ج ٥، ٦. المعاد فى القرآن موضوع : تفاسير شيعه -- قرن ١٤
 رده بندى كنگره : BP٩٨/٧٧٧٧٧٧٧
 رده بندى ديويى : ٢٩٧/١٧٩
 شماره كتابشناسى ملّى : م ٧٧-١٣٧١١

الولاية والإمامة

إشارة

- ١- الولاية والإمامة العامة فى القرآن الكريم
 - ٢- الولاية والإمامة العامة فى السنة النبوية الشريفة
- نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦
 الولاية والإمامة

تمهيد:

إشارة

إنّ «الولاية» و «القيادة» بشكل عام، «الإمامة» بشكل خاص - والتي تعنى - خلافة رسول الله صلى الله عليه و آله، هى من أهم الابحاث العقائدية والتفسيرية والروائية فى تاريخ الإسلام، ولم يجر الحديث بشأن اى قضية بالقدر الذى جرى بشأن الإمامة على مدى التاريخ الإسلامى.

ومن المؤسف حقاً خروج هذه المسألة عن نطاق الكلام والبحث والاستدلال ودخولها ميادين الصراع والحروب الدموية، وكما يقول بعض المتكلمين:

«ما سلّ فى الإسلام سيف كما سلّ فى الإمامة».

ومن هنا فقد تكامل هذا الجانب من العقائد الإسلامية أكثر من غيره، وألّفت حوله المزيد من الكتب، وجرى تحقيق كافة جوانبه بالنسبة للذين يريدون دراسته بدقة وتفحص، وإن كان البعض من هذه البحوث غير منطقي ويدعو إلى التفرقة والتعصب.

أمّا واجبتنا نحن فى مثل هذه المسألة المهمّة والحساسة والواسعة فيتلخص فى مايلى:

١- عزل البحوث المنطقية والاصولية عن غير المنطقية، والبحوث الاستدلالية والمحقة عن البحوث المليئة بالتعصب، والاستناد إلى الكتاب والسنة، والبرهان والعقل، ومن ثم تنظيمها.

٢- مطابقة المسائل المتعلقة «بالإمامة» مع «الولاية والقيادة» والتي هي من تفرعات الولاية الإلهية للمعصومين عليهم السلام.

٣- بالنظر إلى أن هدفنا الحقيقي في هذا البحث التفسيري هو إيضاح هذه المسألة من وجهة النظر القرآنية، فيتحتّم علينا التمعن والتفسير الدقيق للآيات المتعلقة بالإمامة.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧

وكما يقول بعض الباحثين: «إن قضية الإمامة لا تخص ماضيها، فحسب فهي قضية العالم الإسلامي المعاصر وقضية الأمة، فهي عامل بقاء واستمرار النبوة وقضية الإسلام المصيرية» (١).

وبالطبع، فإننا نتناول بالبحث أولاً مسألة القيادة في عالم الوجود ككل، ثم في عالم البشرية، ومن ثم نتطرق إلى قيادة الأئمة المعصومين عليهم السلام، وفي خاتمة المطاف نتعرض إلى مسألة حكومتهم وقيادة نوابهم، ولكن يبدو من الضروري ذكر بعض الامور:

١- ماهي الإمامة؟

فيما يتعلق بتعريف الإمامة هنالك اختلاف كثير في وجهات النظر، ولا بد من وجود هذا الاختلاف، فالإمامة في نظر طائفة «الشيعة» واتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام» من اصول الدين والاسس العقائدية، بينما تعتبر في نظر طائفة أخرى «أهل السنة» من فروع الدين والأحكام العملية.

فمن البديهي أن لا تتشابه نظرة الطائفتين إلى مسألة الإمامة، وأن لا يكون لهما تعريف واحد لها.

من هنا نرى أحد علماء السنة يعرف الإمامة هكذا: «الإمامة رئاسة عامة في امور الدين والدنيا، خلافة عن النبي صلى الله عليه وآله» (٢).

واستناداً إلى هذا التعريف، فالإمامة مسؤولية ظاهرية في حدود رئاسة الحكومة، وغاية الأمر أن الحكومة تتأطر بإطار ديني، واتخذت طابع خلافة النبي صلى الله عليه وآله «الخلافة والنيابة في أمر الحكومة»، وبطبيعة الحال يمكن انتخاب مثل هذا الإمام من قبل الناس. واعتبر البعض أن الإمامة تعني: «خلافة شخص للنبي صلى الله عليه وآله في إقامة الأحكام الشرعية»

(١) الإمامة والقيادة، تأليف آية الله الشهيد المطهرى، ص ١٣.

(٢) شرح التجريد للقوشجي، ص ٤٧٢

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨

وحراسة الدين بنحو تكون اطاعته واجبة على جميع الأمة» (١).

وهذا التعريف لا يختلف عن التعريف الأول نوعاً ما، لأنه يحتوى على نفس المفهوم والمضمون.

كما أن ابن خلدون قد سار على نفس هذا المعنى في مقدمة تاريخه المعروف (٢).

ويقول المرحوم الشيخ المفيد في «أوائل المقالات» في بحث العصمة مايلي: «إن الأئمة القائمين مقام الأنبياء في تنفيذ الأحكام، وإقامة الحدود، وحفظ الشرائع، وتأديب الأنام معصومون كعصمة الأنبياء» (٣).

فطبقاً لهذا التعريف الذي يجارى ما يعتقد به اتباع أهل البيت عليهم السلام أن الإمامة أعلى مرتبة وأشمل من الزعامة والحكومة على الناس، بل إن جميع مسؤولي الأنبياء «سوى استلام الوحي وما شابهه» ثابتة للأئمة، من هنا فشرط العصمة المتوفر في الأنبياء متوفر في الأئمة أيضاً.

لهذا فقد جرى تعريف الإمامة في نظر الشيعة كما ورد في كتاب شرح احقاق الحق كما يلي: «هي منصبٌ إلهي حائز لجميع الشؤون الكريمة والفضائل إلّا النبوة وما يلزم تلك المرتبة السامية» (٤). وبناءً على هذا التعريف، فالإمام ينصب من قبل الله تعالى عن طريق النبي صلى الله عليه وآله، ويمتلك نفس الفضائل والخصائص التي يمتلكها النبي صلى الله عليه وآله «عدا النبوة»، ولا ينحصر عمله في الحكومة الدينية فقط. لهذا يعتبر الإيمان بالإمامة جزءاً من اصول الدين لا من فروع الدين.

- (١) الشرح القديم للتجريد لشمس الدين الاصفهاني نقلًا عن توضيح المراد، تعليقه على شرح تجريد الاعتقاد للسيد هاشم الحسيني الطهراني، ص ٦٧٢.
- (٢) مقدمة ابن خلدون، ص ١٩١.
- (٣) أوائل المقالات، ص ٧٤.
- (٤) احقاق الحق، ج ٢، ص ٣٠٠ (الهامش الأول).
- نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩

٢- هل الإمامة من الاصول أم من الفروع؟

يتبين جواب هذا السؤال مِمَّا قيل في البحث السابق، لأن الآراء مختلفة في مسألة الإمامة، يقول «الفضل بن رزبهان» صاحب «نهج الحق» الذي يعتبر «احقاق الحق» ردًا عليه، ما يلي: «إن مبحث الإمامة عند الأشاعرة ليس من اصول الديانات والعقائد بل هي عند الأشاعرة من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين» (١).

كما أن سائر مذاهب أهل السنة لا يختلفون مع الأشاعرة في ذلك، لأنهم يعتبرونها من التكاليف العملية الموكولة إلى الناس، في حين أن الشيعة واتباع أهل البيت عليهم السلام ونفر قليل من أهل السنة كالقاضي البيضاوي وبعض من اتباعه يعتبرونها من اصول الدين (٢).

والدليل هو أنهم يعدون الإمامة منصباً إلهياً يجب أن يعين من قبل الله تعالى وأحد شروطها العصمة التي لا يعلمها إلا الله، والإيمان بالائمة واجب كالإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله الباني الأول لقواعد الشريعة، إلّا أن هذا لا يعني أن الشيعة يعتبرون المخالفين لهم في قضية الإمامة كافرين، بل إنهم يعتبرون جميع الفرق مسلمين، وينظرون إليهم على أنهم اخوة في الدين، وإن لم يقبلوا آراءهم في مسألة الإمامة، ومرّد ذلك لكونهم يقسمون اصول الدين الخمسة إلى قسمين، الاصول الثلاثة الاولى التوحيد والنبوة والمعاد على أنها اصول الدين، والإمامة والعدل بأنها اصول المذهب.

نختتم هذا الكلام بحديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام- الذي يعتبر ملهماً لاتباع أهل البيت عليهم السلام- في مسألة الإمامة: «إن الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين، إن الإمامة أسس الإسلام النامي وفرعه السامي بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وتوفير الفیء والصدقات وامضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والاطراف، الإمام يحلّ حلال الله، ويحرّم حرام الله، ويقیم حدود الله ويذبّ عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة» (٣).

(١) احقاق الحق، ج ٢، ص ٢٩٤؛ دلائل الصدق، ج ٢، ص ٤.

(٢) دلائل الصدق، ج ٢، ص ٨.

(٣) اصول الكافي، ج ١، ص ٢٠٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠

٣- متى بدأ البحث في الإمامة؟

إشارة

بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله جرى جدلٌ حول من يخلف النبي، فطائفة كانوا يعتقدون بأن النبي صلى الله عليه وآله لم ينصب أحداً لخلافته، واوكل هذا الأمر إلى الأمة، بأن يجلسوا ويختاروا قائداً من بينهم، القائد الذي يمسك بزمام الحكم، ويحكم الناس باعتباره موكلاً من قبلهم، وإن لم يجر هذا الاختيار أبداً، بل إن مجموعة صغيرة من الصحابة قامت باختيار الخليفة في مرحلة، وفي المرحلة الأخرى اتخذ انتخاب الخليفة طابعاً تعينياً، وفي المرحلة الثالثة أو كل هذا الاختيار إلى مجلس من ستة أشخاص كلهم معينون. ويطلق على اتباع هذا المنحى «أهل السنة».

وفريق آخر كانوا يعتقدون بوجوب تعيين الإمام وخليفة النبي صلى الله عليه وآله من قبل الله تعالى لأنه يجب أن يكون مثل النبي صلى الله عليه وآله معصوماً من الزلل والخطأ، وذا علم خارق للعادة لكي يتحمل قيادة الأمة معنوياً ومادياً، ويحفظ أساس الإسلام، ويبيّن مشاكل الأحكام، ويشرح دقائق القرآن، ويعمل على استمرار الإسلام. ويطلق على هذه الطائفة «الإمامية» أو «الشيعة»، وقد أخذت هذه الكلمة من الأحاديث المعروفة والصادرة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

فقد روى في تفسير الدر المنثور وهو من المصادر المعروفة لدى أهل السنة عن جابر بن عبد الله الأنصاري تعقيماً على الآية الكريمة: «اولئك هم خير البرية»، أنه قال: كنا عند النبي فأقبل على عليه السلام فقال النبي صلى الله عليه وآله: «والذي نفسي بيده أن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة»، ونزلت: «ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية». (البينة/ ٧) فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله إذا أقبل على، قالوا جاء خير البرية «١».

ويروى الحاكم النيسابوري وهو من علماء أهل السنة المعروفين في القرن الخامس الهجري هذا المعنى في كتابه المعروف شواهد التنزيل بطرق مختلفة عن النبي صلى الله عليه وآله، وقد

(١) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٣٧٩، ذيل الآية ٧، من سورة البينة.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١

تجاوز عدد رواياته العشرين.

منها ما نقله عن ابن عباس، لما نزلت آية: «ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية»، قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «هم أنت وشيعتك» «١».

وجاء في رواية أخرى عن أبي بريدة: لما تلا النبي صلى الله عليه وآله هذه الآية، قال لعلي عليه السلام: «هم أنت وشيعتك يا علي» «٢».

كما ذكر هذا الحديث الكثير من علماء الإسلام لاسيما من أهل السنة مثل ابن حجر في صواعقه ومحمد الشبلنجي في نور الأبصار «٣». بناءً على شهادة هذه الروايات، فإن النبي صلى الله عليه وآله هو الذي إختار لأتباع على عليه السلام ومحبيه هذه التسمية «الشيعة»، فهل يبقى مجال للعجب في انزعاج البعض من هذا الاسم ويعتبرونه شؤماً ونحساً، ويعدون حرف (السين) الذي في مطلع سبياً «للشر» و«الشؤم» وسائر الألفاظ التي تبتدئ بحرف السين؟! على الرغم من أن حرف (السين) في مطلع اسم المذهب الآخر، تبتدئ به كلمات

من قبيل (السُّمِّ) و (السَّرطان) و (السِّلِّ) و (السَّفاحَةُ) وغير ذلك.

إنَّ هذه التعابير تعتبر بحق مثيرةً للدهشة بالنسبة للباحث الذي يرغب في أن يسير في ظل البراهين المنطقية دائماً. والحال يمكن اختيار كلمات حسنة أو سيئة لكل حروف الهجاء بدون استثناء.

على أيَّة حال فتاريخ ظهور الشيعة ليس بعد ارتحال النبي صلى الله عليه وآله بل في حياته صلى الله عليه وآله، حين اطلق هذه الكلمة على محبى واتباع على عليه السلام، وكلُّ الذين يعتقدون بالنبي صلى الله عليه وآله أنه رسول الله، يعرفون أنه لا يتكلم عن الهوى «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ .

(النجم / ٣-٤)

وإذا ما قال لعلى عليه السلام: أنت وشيعتك المفلاحون يوم القيامة فهذه حقيقة.

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣٥٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٥٩.

(٣) الصواعق، ص ٩٦؛ ونور الابصار ص ٧٠ و ١٠١، ومن أجل المزيد من الاطلاع على رواة هذا الخبر والكتب التي ذكر فيها راجعوا من احقاق الحق، ج ٣، ص ٢٨٧ وما بعدها والجزء ١٤، ص ٢٥٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢

اصطلاح «الإمام» في اللغة والقرآن:

كلمة إمام كما قال أرباب اللغة، هي اسم مصدر على وزن «كتاب» وتطلق على كل ما يتجه إليه الإنسان ويقصده، ويختلف معنى هذه الكلمة باختلاف الموارد والجهات التي يستفاد منها لدى استعمالها فيها.

فتارة يقال: إمام الجمعة، وإمام الجماعة، وإمام الهدى واخرى يقال: إمام الضلالة «١».

وقد جاءت هذه الكلمة في الأصل من مادة «أَمَّ» وتعنى القصد، يقول صاحب مقاييس اللغة: «أَمَّ» تعنى الأصل والمرجع والجماعة والدين، والإمام تعنى مَنْ يُؤْتَمُّ به وهو إمام في الأفعال.

كما ذكرت معان كثيرة لكلمة إمام في لسان العرب، منها الإمام، المعلم، والشاقول الذي يستخدم أثناء تشييد المباني لتنظيم العمل، والسبيل، والمقدمة ونحو ذلك.

إلّا أنّ مؤلف التحقيق، ارتأى أنّ أصل جميع هذه المعانى هو القصد المقترن بالاهتمام الخاص، وحتى لو قيل للام «أماً» أو اطلقت كلمة «أم» على أصل وقاعدة كلِّ شىء فهو لأنّها غاية الإنسان ومرامه، كما تفيد كلمة الإمام معنى المقتدى أى من يقصده الناس ويبدون عنايةً خاصةً به.

ولابدّ من التذكير بهذه الملاحظة وهي أنّ هذه الكلمة وجمعها «أئمة» قد وردت في القرآن الكريم اثنا عشر مرّة تماماً «سبع مرات بصيغة المفرد وخمس مرات بصيغة الجمع».

ففي مورد جاءت بمعنى اللوح المحفوظ: «وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ». (يس / ١٢)

ولأنه قائد ودليل الملائكة لتمييز أعمال العباد، وكلهم يستلهمون منه، واستخدمت أيضاً مرّة واحدة بمعنى السبيل والطريق: «وَأَنَّهُمَا لِيَأْمَامَ مُّبِينٍ». (الحجر / ٧٩)

لأنّ الإنسان ومن أجل بلوغ هدفه يهتم بالسبيل، وقد اطلق على التوراة بأنّها إمام اليهود مرتين: «وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً».

(الاحقاف / ١٢) (هود / ١٧)

واطلقت خمس مرات على الأئمة الصالحين مثل قوله: «قَالَ أَنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا».

(البقرة/ ١٢٤)

(١) التحقيق، مادة (أم).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣

وفي مكان آخر يقول تعالى بشأن فته من الأنبياء: «وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا».

(الأنبياء/ ٧٣)

كما ورد هذا المفهوم العام والجامع في الآيات (٧٤ من سورة الفرقان، و ٥ من سورة القصص، و ٢٤ من سورة السجدة أيضاً).

وذكرت أيضاً بمعنى أئمة الكفر والضلالة في مورد واحد: «فَقَاتِلُوا أئمةَ الكُفْرِ».

(التوبة/ ١٢)

واطلقت أيضاً في حالة واحدة على مفهوم يشمل أئمة الهدى والضلال: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ». (الاسراء/ ٧١)

على أية حال، فموارد استخدام هذه الكلمة في القرآن اثني عشر مورداً تماماً.

٤- عظمة منزلة الإمام في القرآن الكريم

إن مسألة الإمامة والقيادة كما سنتطرق إليها فيما بعد ليست مسألة دينية وتشريعية فحسب، بل إن عالم الخلق والتكوين يخضع لها، الله هو إمام عالم الوجود ومكوناته المختلفة، وهو يهديها ويدبرها جميعاً.

ويعطى القرآن الكريم أهمية خاصة للإمامة ويعتبرها آخر مرحلة من مسيرة تكامل الإنسان، لم يصلها إلا أولوا العزم من الأنبياء، إذ يقول تعالى «وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ».

(البقرة/ ١٢٤)

هنالك جدل كثير بين المفسرين حول هذه الكلمات التي اشير إليها في مطلع الآية، وكما يقول صاحب روح المعاني: لقد ذكروا حولها ثلاثة عشر قولاً «١».

إلا أن ما يبدو صحيحاً هو أن المراد من هذه الكلمات هو «الأوامر والنواهي» التي تلقى

(١) تفسير روح المعاني، ج ١، ص ٣٣٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤

التكاليف الثقيلة والصعبة على كاهل إبراهيم عليه السلام، ليمحص - جيداً - في الابتلاء، وهي عبارة عن التصدي الشجاع لعبدة الأوثان، وتحطيم الأصنام، وإلقائه في النار، والاستقامة والثبات في جميع هذه المراحل.

وكذلك الاستعداد للتضحية بفلذة كبده، والتوجه به إلى مكان الذبح ووضع السكين على رقبتيه، ولم ينشغل بعياله وتركهم في صحراء مكة القاحلة الرمضاء، غير المسكونة، وأخيراً الهجرة من بلاد عبدة الأوثان والتخلي عن الحياة من أجل أداء رسالته، وحقاً أن كلاً منها

كان اختباراً قاسياً وصعباً، إلا أن إبراهيم قد خرج من جميع تلك الاختبارات ظافراً وذلك بفعل قوة الإيمان والثبات والصبر.

وقد أحصى بعض المفسرين الموارد التي ابتلى بها إبراهيم أنها بلغت ثلاثين ابتلاءً، ويقولون: إن هذه الموارد الثلاثين قد ذكرت في ثلاثة آيات من القرآن الكريم، فقد ذكرت «عشرة منها» في الآية ١٣ من سورة التوبة، و «عشرة» في الآية ٣٥ من سورة الأحزاب،

وذكرت «عشرة منها» في الآيات ١ إلى ٩ من سورة «المؤمنون» إذ يصبح مجموعها ثلاثين وصفاً أو ثلاثين مادة امتحانية «١» ولكن نظراً

إلى أن جانباً مهماً من هذه الصفات قد تكرر ذكره وأن عددها لا يصل إلى الثلاثين، فإن هذا الكلام لا يحظى بالقبول نوعاً ما. على أية حال فقد خرج إبراهيم بطل تحطيم الأصنام، والنبى المخلص والمضحى ظافراً من جميع تلك الابتلاءات القاسية والصعبة فاستحق ارتداء جلباب الإمامة، وشرفه الله بهذا الخطاب المفعم بالفخر: «أَنْى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ أَمَامًا». ما هو هذا المقام الذى ناله إبراهيم فى آخر عمره بعد نيّله مقام النبوة والرسالة، وبعد ذلك الجهاد الطويل؟ من المسلم به أنّه كان أسمى وأرفع منها جميعاً، فمن اجتاز ذلك الاختبار الصعب يستحق هذه المكرمة الإلهية.

(١) تفسير روح المعانى، ج ١، ص ٣٣٥ (وقد اُضيف عليها بعض المفسرين سورة المعارج وقالوا: إنّها جاءت فى أربع سورٍ من القرآن).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥

لقد كان للمفسرين جدالٌ طويل فى تفسير معنى الإمامة، وحيث إنّ بعضهم لم يستطع بلوغ أسرار المعنى السامى لهذه الكلمة، فقد وقعوا فى متاهات عجيبة.

والأعجب من ذلك هو أنّ طائفة من مشاهير المفسرين قد فسّروها بمعنى النبوة، بينما من المسلم به أن إبراهيم عليه السلام كان نبياً وقتذاك، وقد فاتت سنوات على نبوته ورسالته، وأصبح ذا ذرية، وفى سياق الآية يطلب الإمامة لأبنائه وذريته أيضاً.

يرى الكثير من المفسرين أنّ الكلمات التى ابتلى الله تعالى بها إبراهيم عليه السلام كانت عبارة عن مجموعة من التعاليم والأوامر التى أمره بها الله تعالى كمقارعة عبدة الأوثان وبناء الكعبة وذبح ابنه، إلّا أنّهم والحالة هذه قد فسّروا الإمامة بالنبوة، مع العلم أنّ هذه الأوامر وهذه التوضيحات كانت بعد بلوغ إبراهيم عليه السلام مقام النبوة، وأنّ عبارة: «أَنْى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ أَمَامًا» غامضة تماماً فى تفسيرهم.

والمعنى الآخر الذى قالوه بصدد الإمامة هو وجوب الطاعة، ولا يخفى أنّ إطاعة كل نبى واجبة ولا حاجة له إلى نيل مقام آخر «١».

وقد ذكر البعض تفسيراً ثالثاً لها وقالوا: المراد هو الرئاسة فى امور الدين والدنيا، أو بتعبير آخر: زعامة الحكم.

إنّ هذا التفسير وإن كان أفضل من سابقه إلّا أنّه لم يدخل إلى عمق معنى الإمامة.

وحسب اعتقادنا واستناداً إلى سائر آيات القرآن التى تبحث فى مجال الإمامة، فإنّ المقصود بالإمامة هنا أنّها مقام أسمى وأرفع من هذا كله، وهو تطبيق الأحكام، وتنفيذ الحدود الإلهية، وتربية وتهذيب ظاهر وباطن الإنسان.

وللتوضيح أكثر أنّ الهدف من بعثه الأنبياء وارسال الرسل هو هداية المجتمع البشرى، وهذه الهداية تتخذ بعدين، الأول: الهداية التى تعنى «اراءة الطريق» أى ما كلف به أى نبى من الأنبياء، والثانى: «الايصال إلى المطلوب» وهو يتفرع إلى فرعين:

(١) ذكر تفاسير روح البيان؛ والكشاف والمراغى؛ والقرطبى؛ والمنار؛ شين إبراهيم العشرة المعروفة؛ والأوامر والنواهي الإلهية، ومجموعة هذه التعليمات.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦

الفرع الأول: الهداية التشريعية، وتطبيق الأحكام الدينية، سواء عن طريق إقامة الحكم وتطبيق الحدود والأحكام الإلهية والعدالة الاجتماعية، أو عن طريق تربية وتعليم النفوس بشكل عملى، وكلاهما يؤدى إلى تحقيق اهداف الأنبياء، ويحتاج إلى مخطط مرهق وصعب للغاية، وإلى مواصفات كثيرة كالعلم والتقوى والشجاعة والإدارة.

الفرع الثانى: الهداية التكوينية والهداية إلى المطلوب من خلال التأثير والنفوذ المعنوى والروحي وتوجيه شعاع الهداية إلى افئدة ذوى الاستعداد من الناس، وهذا يتطلب من أى نبى أو إمام أن يكون حسن السيرتين، الظاهرية والباطنية وهى التى كانت للأنبياء والأئمة ازاء أتباعهم، ومن المسلم به أنّ مثل هذا الأمر يتطلب المزيد من المواصفات والمزايا والقابليات.

فمجموع هذين المخططين يحقق أهداف الدين والرسالات الإلهية، ويوصل ذوى الاستعداد من البشر إلى التكامل المادى والمعنوى، الظاهرى والباطنى، وهذا هو المراد من الإمامة فى الآية المذكورة، ولم ينل إبراهيم عليه السلام هذا المقام من دون أن يؤدى الامتحان لنيل تلك المؤهلات والصفات.

ويستفاد مِمَّا تقدم أن مقام «الإمامة» يشترك مع مقام «النبوة» فى الكثير من الحالات، وبإمكان نبى من اولى العزم كإبراهيم أن يبلغ مقام الإمامة أيضاً، والأكثر وضوحاً من ذلك هو أن اجتماع مقام «النبوة» و «الرسالة» و «الإمامة» فى خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله متحقق فعلاً.

ويمكن أن ينفصل مقام الإمامة عن مقام النبوة والرسالة، كما فى الأئمة المعصومين عليهم السلام الذين يعلمون مسؤوليَّة الإمامة فقط، من دون أن ينزل عليهم الوحي ويكونوا «رسلاً» أو «أنبياء».

على أئمة حال، فمن خلال مطلع هذه الآية تتضح جيداً عظمة مقام الإمامة، وأن تعيين الإمام من قبل الله تعالى «قَالَ أَنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا».

وذيل هذه الآية يؤكد كثيراً على هذا الموضوع، فهو يقول: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أُعْطِيَ هَذَا الْمَقَامَ قَالَ: «وَمِنْ ذَرِّيَّتِي».

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧

فجاء الخطاب قائلاً: «لا ينال عهدى الظالمين»، أى أن نفر من ذريتك الذين لم يظلموا، وكانوا معصومين ومطهرين هم المؤهلون لهذا المنصب فقط.

لا شك فى أن الظلم فى هذه العبارة ليس ظلم الآخرين فحسب، بل الظلم بالمعنى الشامل الذى يقابل العدالة، و «العدالة» بمفهومها الواسع تعنى وضع الشيء فى محله، والظلم يعنى وضعه فى المحل الذى لا يناسبه، لذا ينقل القرآن الكريم عن لسان لقمان حيث يقول لابنه: «يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ». (لقمان/ ١٣)

كما يتضح أن العدالة هنا تعنى العدالة التامة، أو بتعبير آخر مقام العصمة الذى يتناسب والإمامة بمفهومها الشامل، وإلا فالعدالة القابلة للنقص والاقتران بالذنب لا تتلائم مع مقام الإمامة بمعناها الرفيع أبداً.

وبناءً على ذلك يمكن الاستدلال بالآية أعلاه لإثبات عصمة الإمام أيضاً، بيد أن الكلام فى الصفات هل يكون مقروناً بالعدالة وترك جميع أشكال الذنب مدى الحياة، أم أثناء التصدى للإمامة؟ فالبعض واستناداً إلى البحث الاصولى المشهور من أن فى المشتق الحقيقى «من تلبس بالمبدأ» هو فى حال النسبة - أى حينما نسب صفة من الصفات لأحد يجب أن يمتلك تلك الصفة فى حال نسبتها إليه، فمثلاً تطلق كلمة القائم على الذى يتمتع بصفة القيام أثناء نسبة هذه الصفة إليه، ولا تطلق على الذى كان قائماً وقد جلس الآن - يعتقد أن مفهوم الآية هو عدم تمتعه بصفة الظلم أثناء توليه الإمامة، لا بشرك ولا بذنوب، وليس ملوثاً بأى معصية اخرى وعليه فالعدالة والعصمة لا تشمل بداية الحياة.

إلا أننا نقرأ فى الروايات أن أئمة أهل البيت عليهم السلام واتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله قد استدلوا بهذه الآية على العدالة فى جميع مراحل العمر: إذ ينقل عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام: «لا اعطيك عهداً للظالم من ذريتك، قال: يارب ومن الظالم من ذريتي الذى لا ينال عهدك؟ قال من سجد لصنم من دونى لا اجعله إماماً أبداً ولا يصلح أن يكون إماماً» (١).

(١) أمالى الشيخ المفيد، (مطابق لنقل تفسير البرهان ج ١، ص ١٥١ ح ١٣).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨

وقد نقل هذا المعنى ابن المغاربي عالم أهل السنة المعروف فى كتاب «المناقب» عن ابن مسعود عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله

مع قليل من الاختلاف، إذ يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في تفسير هذه الآية: قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام ما معناه: «مَنْ سَجَدَ لَصْنَمٍ مِنْ دُونِي لَا أَجْعَلُهُ إِمَامًا».

ثم أضاف صلى الله عليه وآله: «وانتهت الدعوة إلَيَّ وإلَى أَخِي عَلِيٍّ، لَمْ يَسْجُدْ أَحَدُنَا لَصْنَمٍ قَطُّ» (١). وقد نقلت روايات أخرى عن طريق ائمة أهل البيت عليهم السلام في الكتب المعتمدة بهذا الصدد أيضاً، وتضم مجموعة هذه الروايات هذه النكتة وهي: إنَّ النبي إبراهيم عليه السلام كان أعلم وأذكى من أن يسأل الله الإمامة للذين كانوا مشركين أو ظالمين، ولم تكن هنالك حاجة للرد عليه بأنَّ الظالمين لا تشملهم هذه الهبة، لأنَّ الأمر واضح.

فعلى هذا الأساس، لو سأل الله شيئاً فمن المسلم به أنه كان للذين كانوا ظالمين أو مشركين في وقت ما ثم تابوا واصلحوا، وفي هذا المجال سمع الجواب بأنَّ عهد الإمامة لا يشمل مثل هؤلاء، أي أن لا يكونوا ذوى سابقة في الظلم والشرك.

يقول المفسر الشهير العلامة الطباطبائي في «الميزان»: «سأل بعض أساتذتنا عن تقريب دلالة الآية على عصمة الإمام، فأجاب: إنَّ الناس بحسب القسمة العقلية على أربعة أقسام:

١- من كان ظالماً في جميع عمره.

٢- من لم يكن ظالماً في جميع عمره.

٣- من هو ظالم في أول عمره دون آخره.

٤- ومن هو بالعكس.

وإن إبراهيم عليه السلام أجلُّ شأنًا من أن يسأل الإمامة للقسم الأول والرابع من ذريته، فبقي قسمان، وقد نفى الله أحدهم (وهو الذى يكون ظالماً في أول عمره دون آخره، فبقي الآخر) وهو الذى يكون غير ظالم في جميع عمره .. (تأملوا جيداً) «٢».

وقد اعترف الفخر الرازى في تفسيره بأنَّ الآية دليل على عصمة الأنبياء، واللطف هو

(١) المناقب لابن المغازلي، مطابق لنقل تفسير الميزان ج ١، ص ٢٧٨ فى ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير الميزان، ج ١، ص ٢٧٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩

«إنَّه يثبت هذا الأمر من خلال وجوب عصمة الإمام وأنَّ كل نبي إمام» (تأملوا جيداً أيضاً) «١».

وبطبيعة الحال يستفاد من هذه الآية مطالب أخرى بشأن الإمامة ووجوب عصمة الإمام، وتنصيه من قبل الله وغير ذلك مما لا يسع المقام لبحثه.

والآن وعلى ضوء ما مرَّ تتضح عظمة وجلالة الإمامة فى نظر القرآن الكريم، وقد كان غرضنا هنا بيان هذه النقطة.

٥- فلسفة وجود الإمام

بالرغم من اتضاح فلسفة وجود الإمام بنحو إجمالي فى البحث السابق من خلال الاستعانة بالآيات المتعلقة بإمامة إبراهيم عليه السلام إلَّا أنَّ هذا الموضوع مهم إلى الحد الذى يتطلب فتح بحث مستقل له.

وبشكل عام فإنَّ الكثير من الامور التى تذكر على أنَّها الأهداف من بعث الأنبياء أو فلسفة وجودهم، تصدق بحق الإمام أيضاً. لقد تطرق الخواجه نصير الدين الطوسى قدس سره إلى بيان فلسفة بعث الأنبياء فى فصل النبوة من كتاب تجريد الاعتقاد وأشار العلامة الكبير الحلى فى شرح ذلك الكلام إلى تسع نقاط من هذه الفلسفة إجمالاً ندرجها كما يلي، ونضعها أمام القارئ الكريم، وكما سنلاحظ فإنَّ الكثير منها يصدق على قضية تعيين الأئمة المعصومين عليهم السلام أيضاً:

١- ترسيخ المعرفة العقلية عن طريق البيان النقلي، من هنا فإنَّ الإنسان يدرك الكثير من الحقائق سواء في الاصول أو في فروع الدين من خلال القوة العقلية، إلّا أنَّ الوسوس قد تغزو قلبه أحياناً، وهذا الاضطراب يحول دون أدائها، أما إذا تمَّ تأييد وترسيخ هذه الأحكام العقلية بكلام الأئمة المعصومين فستزال جميع أشكال الغموض والاضطراب، ويسعى الإنسان لأدائها برباطة جأش.

(١) التفسير الكبير، ج ٤، ص ٤٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠

٢- في بعض الأحيان يحذر الإنسان من القيام ببعض الأعمال وذلك لخوفه من الإتيان بتصرف في حدود سلطة الله وهيمنته مخالف لإرادته فيكون كلام الإمام رافعاً لذلك الحذر والخوف.

٣- لا تجتمع اعمال الإنسان في حدود «الحسن والقبح العقليين»، وما أكثر الامور التي لا يدرك عقل الإنسان حسنها وقبحها، فهنا لابد من الاقتداء بالقادة الإلهيين، لإدراك حسنها وقبحها.

٤- إنَّ بعض الأشياء نافع وبعضها الآخر مضرٌّ، ولا قدرة للإنسان على إدراك نفعها وضررها من خلال تفكيره فقط بدون إرشاد القادة الإلهيين، فهنا يشعر بالحاجة إليهم.

٥- إنَّ الإنسان موجودٌ اجتماعي، وهو عاجز عن حل مشاكل حياته بدون التنسيق والتعاون مع الآخرين، ومن المسلمَّ به أنَّ المجتمع لن يستقيم ولن يبلغ الكمال المطلوب مالم يمتلك القوانين التي تحافظ على حقوق جميع الأشخاص، وتأخذ بأيديهم نحو الصراط المستقيم، فتشخيص هذه القوانين بشكل صائب ومن ثمَّ تطبيقها لن يحصل إلّا عن طريق القادة الواعين والطاهرين والمعصومين.

٦- إنَّ الناس يتفاوتون في إدراك الكمالات وكسب العلوم والمعارف والفضائل، فالبعض يمتلك القدرة على السير في هذا الطريق، والآخر عاجزٌ، فالقادة الإلهيون يقومون بترسيخ الفئة الاولى وإعانة الفئة الثانية كي تصل الفئتان إلى الكمال الممكن.

٧- إنَّ النوع الإنساني بحاجة إلى مستلزمات وصناعات وعلوم، ويستطيع القادة الربانيون تأمين هذه المستلزمات وذلك من خلال توجيه المجتمع نحو الحصول عليها.

٨- إنَّ المراتب الأخلاقية متفاوتة لدى الناس، والسييل الوحيد لتنمية هذه الفضائل هو سبيل القادة الإلهيين الطاهرين والمعصومين.

٩- إنَّ الأئمة مطلعون على الثواب والعقاب والأجر والجزاء إزاء الطاعة والمعصية، وعندما يُعلِّمون الآخرين هذه الامور فهم يخلقون لديهم حافزاً قوياً لأداء الواجبات «١».

(١) شرح التجريد، ص ٢٧١ (مع قليل من الاختصار والاقتباس).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١

ونظراً إلى أنَّ الأئمة ليسوا سوى استمرار لخط النبوة، فإنَّ أغلب هذه الفلسفات بالإمكان تحقيقها بواسطة الأئمة المعصومين عليهم السلام أيضاً.

وفي القرآن الكريم تتلخص هذه الامور بل وحتى أكثر منها في ثلاثة مواضع وهي:

«التعليم» و «التربية» و «القيام بالقسط» التي اشير إليها في آيات عديدة، فيقول تعالى بشأن الفلسفة من بعثه النبي صلى الله عليه وآله «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَأَنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ». (الجمعة/

(٢)

فقد تمَّت الإشارة هنا إلى مسألة «التعليم» و «التربية» التي هي أهم أهداف الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام.

وفي مكان آخر يقول تعالى «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ». (الحديد/ ٢٥)

وقد اشير هنا إلى العدالة الاجتماعية والقيام بالقسط الذي يوفر الأرضية المناسبة «للتعليم» و «التربية» الصحيحة.

نعم، فالزعماء العاديون في العالم يفكرون:

أولاً: بصيانه مكانتهم ومصالحهم الشخصية أو الحزبية، لهذا فهم دائماً يضحون بمصالح المجتمعات البشرية من أجل مصالحهم الخاصة، أمّا القادة الطاهرون والمعصومون واتباعهم فهم وحدهم الذين يستطيعون المحافظة على حقوق الإنسان والمصالح العامة للمجتمع الانساني كما ينبغي.

ثانياً: هب أن الزعماء غير الربانيين يريدون تطبيق العدالة وقيادة المجتمعات البشرية نحو الكمال المطلوب، فإنّ تشخيص هذه الامور في الكثير من الحالات غير ممكن بالنسبة لهم، فهم يستطيعون في هذه الحالة أن يشخصوا الامور ولكنّ تشخيصهم ناقص وغير دقيق. وهذا الأمر - التشخيص الدقيق - ممكن فقط بالنسبة للقادة الربانيين الذين يعتمدون على البحر اللامتناهي من العلم الإلهي.

وقد أثبتت تجربة السبعين سنة من الحكم الشيوعي على نصف سكان الكرة الأرضية

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢

هذه الحقيقة بوضوح، فلقد كرسوا أوسع وأعظم جهاز اعلامي لترسيخ دعائم الماركسيه، وقدموا الملايين من الكتب والكراسات والمقالات والخطب على هذا الصعيد، وزعموا بأن الشيوعي هي الطريق الوحيد لحل مشاكل المجتمع البشري وتأمين العدالة الاجتماعية، وتكامل النوع الانساني، وأفضل وسيلة للتفسير الصحيح للتاريخ والعلوم الاجتماعية، وقمعوا المعارضين لهم بشتى الأساليب، لكننا رأينا أنها لم تجلب سوى التعاسة والتخلف والديكتاتوريه، وفي خاتمة المطاف اضطر مفكروهم إلى الاعتراف بأن ما كانوا يتصورونه الطريق الحقيقي للسعادة لم يكن إلا انحطاطاً وتخلفاً للمجتمع الانساني! وربما لم يشهد التاريخ نظيراً لهذه القضية، إذ تدافع طائفة كبيرة من المفكرين والعلماء واساتذة الجامعات عن عقيدة ما، وفي النهاية يتضح أن ما كانوا يؤمنون به فارغ من أي محتوى

فما الضمان لعدم حدوث مثل هذه الحالة في المستقبل، وعدم تلوث عقائد المجتمع الانساني بهذه الأفكار المضلّة؟

ومن هنا تبرز ضرورة الاستفادة من أفكار الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام المصانين من الزلل والخطأ من قبل الله تعالى وخلاصة الكلام هي أن الإله الذي خلق النوع الانساني وأمره بالسير في طريق الكمال والسعادة، وأرسل الأنبياء المعصومين الذين يتلقون أوامر الإلهية بواسطة الوحي، من أجل «تبيين الطريق» و «الايصال إلى المطلوب»، فلا بد أن يجعل أئمة معصومين لخلافة الأنبياء بعد رحيلهم وذلك من أجل استمرار هذا الطريق، وليعينوا المجتمع البشري في الهداية إلى الطريق والايصال إلى المطلوب، ومن المسلم به أن هذا الهدف سيبقى ناقصاً بدونهم للأسباب التالية:

أولاً: من المتيقن أن العقول البشرية لا تستطيع تشخيص جميع عوامل وأسباب التقدم والرقي وحدها، وقد لا تشخص عشر ذلك.

ثانياً: ربما يتعرض دين الأنبياء بعد ارتحالهم لآنواع التحريف، فلا بد من الحراس المعصومين والربانيين ليحافظوا عليه ويحولوا بين تحريف المبطلين وبين بلوغ مآربهم،

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣

وآراء الجهلة وتفسيرات أصحاب الأهواء والمآرب.

وهذا ما يشير إليه الحديث المعروف الوارد في اصول الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «إنّ فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» (١).

وكذلك ما أشار إليه الإمام على عليه السلام في احدي كلماته القيمة، إذ يقول: «اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً، وإما حافياً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته» (٢).

ثالثاً: من المتعذر اقامة الحكومة الإلهية التي توصل الإنسان إلى الغاية التي خلق من أجلها، إلّا عن طريق المعصومين، لأن الحكومات

البشرية- ووفقاً لشهادة التاريخ- كانت غالباً ما تسير في خط المصالح الشخصية، أو الفئوية، وأن جميع مساعيها كانت في هذا الاتجاه، وكما جربنا مراراً وتكراراً أن شعارات «الديمقراطية» و «حكم الشعب للشعب» و «حقوق الإنسان»، وما شابه ذلك ما هي إلا قناع للوصول إلى أهدافهم الشيطانية عن طريق أسهل، فقد فرضوا أغراضهم على الشعوب بشكل خفي ومن خلال استغلال هذا المنطق وهذه الأدوات.

إن هذه الاصول الثلاثة أي «تبيين الطريق» الذي يعجز العقل عن تشخيصه، و «المحافظة على ميراث الأنبياء» و «إقامة حكومة العدل»، تمثل بالواقع الاسس الحقيقية لفلسفة وجود الإمام المعصوم. ونختم هذا الحديث بكلام للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام حيث يعتبر من أكثر الكلمات شمولية فيما يتعلق بفلسفة الإمامة، وحديث من نهج البلاغة لأمير المؤمنين عليه السلام:

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٣٢، باب صفة العلم، ح ٢.

(٢) نهج البلاغة، كلمات القصار، الكلمة ١٤٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤

الحديث الأول الذي تحدث به عليه السلام يوم الجمعة في المسجد الجامع في مدينة (مرو) بحضور حشد من الناس، يتناول مسائل كثيرة، نشير هنا إلى جانب منه، قال عليه السلام:

«إن الإمامة هي منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، إن الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول ... الإمام البدر المنير، والسراج الزاهر، والنور الساطع، والنجم الهادي في غياهب الدجى ... الإمام الماء العذب على الظماء والذال على الهدى والمنجى من الردى ... الإمام السحاب الماطر، والغيث الهاطل، والشمس المضيئة ... الإمام أمين الله في خلقه، وحجته على عباده، وخليفته في بلائه ... نظام الدين، وعز المسلمين، وغيض المنافقين، ووبار الكافرين» (١).

وفي عبارة قصيرة يصور أمير المؤمنين عليه السلام روح الإمامة، فيقول:

«ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز، يجمعه ويضمه، فاذا انقطع النظام تفرق الخرز والذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً» (٢).

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٢٠٠، باب نادر جامع في فضل الإمام.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٤٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥

١- الولاية والإمامة العامة في القرآن الكريم

تمهيد:

هنالك بحثان مستقلان في موضوع الولاية وهما:

١- «الولاية العامة» أي لأبد من وجود إمام بين الناس منصب من قبل الله، دائماً وفي كل عصر، سواء كان يتمتع بمقام النبوة والرسالة، أو بمقام الولاية فقط.

٢- «الولاية والإمامة الخاصة» أي من الذي يتصدى لهذا المنصب والمقام الإلهي بعد النبي صلى الله عليه وآله؟ وبتعبير آخر: كما أن النبوة تنفرع إلى «نبوة خاصة» و «نبوة عامة»، فكذلك الإمامة.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى الولاية العامة ندرجه فيما يلي:

- ١- «أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ». (الرعد / ٧)
- ٢- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ». (التوبة / ١١٩)
- ٣- «اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ». (النساء / ٥٩)

آية الانذار والهداية:

ففي الآية الاولى يخاطب الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله: «أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ».

ينقل الفخر الرازي ثلاثة أقوال في تفسير هذه الآية:

الأول: إنَّ «المنذر» و «الهادي» شيء واحد، وعليه يكون مفهوم الآية كما يلي:
«أَنْتَ مُنْذِرٌ وَهَادٍ لِكُلِّ قَوْمٍ».

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦

الثاني: المنذر هو النبي صلى الله عليه وآله والهادي هو الله تعالى

الثالث: المنذر هو النبي صلى الله عليه وآله والهادي هو علي عليه السلام، إذ يقول ابن عباس: إنَّ النبي قد وضع يده على صدره وقال:
«أنا المنذر ثم أوماً إلى منكب علي عليه السلام وقال: أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدى» (١).

وقد نقلت مجموعة أخرى من المفسرين هذه التفاسير الثلاثة، فيما أصرَّ بعض مفسري أهل السنة على أنَّ تفسير الآية أحد التفسيرين الاولين، لأنَّ التفسير الثالث لا يتناسب ونمط تفكيرهم المليء بالتعصب.

بينما لا يتناسب التفسير الأول مع ظاهر الآية، فلو كان مقرراً أن يكون الوصفان لرسول الله صلى الله عليه وآله لقال: إنَّما أنت منذرٌ وهادٍ لكل قوم، وبتعبير آخر لا ينبغي تقديم «لكل قوم» وهو جار ومجرور على «هادٍ»، وإذا ما تقدم فيجب أن يتقدم على الوصفين فيقال: إنَّما أنت لكل قوم منذرٌ وهادٍ، وخلاصة القول: إنَّه لا يبدو هنالك مبرر لتقديم لكل قوم على وصف وتأخيره عن الآخر، أو لا بدَّ من تقديمه عليها أو تأخيره عنها (تأملوا جيداً).

والتفسير الثاني غير مألوف ولا مناسب، لأنَّ كون الله هادياً فلا شك فيه حتى يحتاج إلى بيان، أضف إلى أنَّ ظاهر العبارة هو أنَّ لكل عصر وزمان هادٍ خاص. والحال أنَّ الله واحدٌ أحد، فهذه الوجدانية لا تتسجم والتعددية التي تستفاد من عبارة لكل قوم هادٍ.

بناءً على ذلك فالتفسير الوحيد الذي يحظى بالقبول هو: إنَّ النبي صلى الله عليه وآله منذرٌ ولكل قوم في كل عصر ودهرٍ «هادٍ».

فهل هذا الهادي إشارة إلى علماء كل قوم وكل زمان؟

الاجابة عن هذا السؤال سلبية أيضاً، فهناك علماء عديدون في كل عصر ودهر وليس هادٍ واحد، فكما كان النبي صلى الله عليه وآله واحداً فهادي المسلمين واحدٌ في كل عصر وزمان.

وبتعبير آخر، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله مؤسس الدين عن طريق الانذار، والإمام يواصل طريقه من خلال الهداية.

إنَّ هذه النكات تستفاد من الآية نفسها، ولو بحثنا عن الروايات المنقولة عن طريق أهل

(١) التفسير الكبير، ج ١٩، ص ١٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧

السنة والشيعة بهذا الصدد لاتضح المسألة أكثر.

ففي تفسير الدر المنثور وهو من تفاسير أهل السنة المعروفة «تأليف جلال الدين السيوطي» المتوفى عام ٩١٠ هـ ق، والقائم على أساس

تفسير الآيات والروايات، ينقل روايات عديدة في تفسير هذه الآية عن النبي صلى الله عليه وآله:

١- يروى عن ابن جرير وابن مردويه وأبي نعيم والديلمي وابن عساكر وابن النجار: لما نزلت «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» وضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده على صدره فقال: «أنا المنذر، وأوماً بيده إلى منكب علي عليه السلام فقال: أنت الهادي يا علي، بك يهتدى المهتدون من بعدى» (١).

٢- يقول أبو بريدة الاسلمى: سمعت من النبي صلى الله عليه وآله بشأن هذه الآية (٢) وقد وضع يده على صدره وقال: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ، ووضع يده على صدر علي عليه السلام وقال: لكل قوم هاد».

٣- وفي الكتاب نفسه ينقل عن «عبد الله بن أحمد» و«ابن أبي حاتم» و«الطبراني» و«الحاكم» و«ابن مردويه» و«ابن عساكر» عن علي عليه السلام في تفسير الآية: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» قال: «رسول الله المنذر، وأنا الهادي» (٣).

٤- ونقرأ في رواية أخرى عن ابن عباس، أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أنا المنذر وعلي الهادي، وبك يا علي يهتدى المهتدون». وقد أورد هذا الحديث طائفة من مشاهير حفاظ أهل السنة منهم: «الحاكم» في «المستدرک» و«الذهبي» في «التلخيص» و«الفخر الرازى» و«ابن كثير» في «تفسيريهما»، و«ابن الصباغ المالكي» في «الفصول المهمة» و«الكليني الشافعي» في «كفاية الطالب» و«العلامة الطبري» في «تفسيره» و«ابن حيان الاندلسي» في «البحر المحيط» و«النيشابوري» في «تفسيره»، و«الحمويني» في «فرائد السمطين» وطائفة أخرى في كتبهم التفسيرية (٤).

(١) تفسير در المنثور، ج ٤، ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) للاطلاع على هذا الحديث ووثائقه راجعوا كتاب احقاق الحق، ج ٣، ص ٨٨-٩٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨

٥- يقول «مير غياث الدين» مؤلف كتاب «حبيب السير»: «قد ثبت بطرق متعددة أنه لما نزل قوله تعالى «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ»، قال صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «أنا المنذر وأنت الهادي، بك يا علي يهتدى المهتدون من بعدى» (١).

٦- وقد نقل الحمويني هذا الحديث أيضاً عن أبي هريرة عن علي عليه السلام (٢).

٧- ونقل هذا الحديث في «مستدرک الحاكم» عن «أبي بريدة الاسلمى» بشكل واسع فقال: دعا رسول الله صلى الله عليه وآله بالطهور وعنده علي بن أبي طالب فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله يده على بعد ما تطهر فألصقها بصدره ثم قال: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ» ويعني نفسه، ثم ردها إلى صدر علي ثم قال: «ولكل قوم هاد»، ثم قال له: «أنت منار الأنام وغاية الهدى وأمير القراء، أشهد على ذلك أنك كذلك» (٣).

وليس من المستبعد أن يكون النبي صلى الله عليه وآله قد بين هذا الكلام في حالات متعددة وبأشكال مختلفة، والتعبير المختلفة للأحاديث المذكورة تشهد على هذا الأمر.

كما وردت في مصادر اتباع أهل البيت عليهم السلام روايات متعددة في هذا المجال، ولا مجال لذكرها جميعاً، بل نكتفي بالإشارة إلى بعضها، فقد ورد في تفسير نور الثقلين (٤) ما يروى على خمسة عشر حديثاً منها ما روى عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام أنهما قالوا: «كل إمام هاد كل قوم في زمانه»، وفي تعبير آخر: «كل إمام هاد للقرن الذي هو فيه» (٥).

والعجيب أن بعض المفسرين قد تناسوا جميع هذه الأحاديث، وذكروا معاني أخرى للآية المذكورة، مستندين إلى أقوال بعض الصحابة التي لم ترَ عن النبي صلى الله عليه وآله، منها التفسير الذي نُقل عن مجاهد حيث يقول: المراد من «المنذر» محمد صلى الله

عليه وآله والمراد من «لكل قوم

- (١) حبيب السير، ج ٢، ص ١٢.
 (٢) احقاق الحق، ج ٣، ص ٩٢.
 (٣) تفسير الميزان، ج ١١، ص ٣٢٧ ذيل الآية مورد البحث.
 (٤) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤٨٢-٤٨٥.
 (٥) المصدر السابق، ج ١٩ و ٢٠، ص ٤٨٣.
 نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩
 هادٍ «إن لكل قوم نبياً يدعوهم إلى الله!» وهذا تفسير بعيد كما يبدو.
 وروى تفسير آخر عن سعيد بن جبیر حيث يقول: المنذر محمد صلى الله عليه وآله والهادى هو الله! بينما ظاهر الآية هو أن هادى كل قوم يختلف عن هادى الآخرين، علماً أن الله الواحد هادٍ لجميع الأقسام، ولا يتناسب مع مثل هذه التفاسير.
 فهل من المناسب ترك الروايات المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وآله والذهاب وراء هذه التفاسير الخاطئة حرصاً على أن لا يمتلك الشيعة مستمسكاً؟

آية الصادقين:

وفى الآية الثانية خاطب تعالى المؤمنين داعياً إياهم إلى التقوى وبعدها أمرهم بأن يكونوا مع الصادقين «دائماً» «لئلا ينحرفوا»: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ».
 فمن هم الصادقون هنا؟ ثمّة تفاسير مختلفة أيضاً:
 لقد احتمل البعض أن المراد من «الصادقين» هو شخص النبي صلى الله عليه وآله، وهذه الآية منحصرة بزمانه، ولا يخفى أن خطاب هذه الآية كسائر خطابات القرآن عامة، وتشمل كل المؤمنين في كل عصرٍ ومصرٍ.
 وقال آخرون: إن «مَعَ» تعني «مِن»، أى كونوا من الصادقين! فى الوقت الذى لا توجد ضرورة لمثل هذه التأويلات والتبريرات، بل ليس من المعتاد أبداً فى الأدب العربى وكلام الادباء استخدام «مع» بمعنى «من».
 فطبقاً لظاهر الآية فإن جميع المسلمين مكلفون أن يكونوا فى خط الصادقين ومعهم فى كل زمن وعصر.
 من هنا يُعرف بأنّ ثمّة صادق أو صادقين فى كل عصر يتحتم على الناس أن يكونوا معهم فى طريق التقوى والزهد.
 ومن أجل فهم معنى الصادقين، من الأفضل أن نعود إلى القرآن نفسه لنرى ماذا يذكر من
 نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠

صفات للصادقين، فى مكان يقول: «أَتَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزْتَابُوا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ». (الحجرات/ ١٥)

ففى هذه الآية وصف تعالى الصديق بأنه فرع أو شعبة من «الإيمان» و«العمل النزيه» عن كل أشكال الشك والريب والتردد.
 وفى الآية ٧٧ من سورة البقرة بعد أن ذكر تعالى أن حقيقة الإيمان تكمن فى الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتب السماوية، والأنبياء، وكذا الانفاق فى سبيل الله، وفى سبيل تحرير المستضعفين والمحرومين من ربة الظالمين، وكذلك إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر والاستقامة إزاء المشاكل وأثناء الجهاد، يضيف: «أَوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا».
 بناءً على ذلك فقد ذكر أن السمة المميزة للصادقين هى: الإيمان التام بجميع المقدسات، واطاعة أوامر الله على جميع الأصعدة،

لاسيما الصلاة وإيتاء الزكاة والانفاق والاستقامة في الجهاد، وفي مواجهة المشاكل، وقد جاء نظير هذا المعنى في الآية ٨ من سورة الحشر أيضاً.

من مجموع هذه الآيات وكذلك من اطلاق الآية مورد البحث التي تأمر باتباع الصادقين بدون قيد أو شرط، نستنتج أن المسلمين مكلفون باتباع الذين يتمتعون بأعلى مراحل الإيمان والتقوى وأسمى المستويات من ناحية العلم والعمل والاستقامة والجهاد، فالآية لا تقول: كونوا من الصادقين، بل تقول: كونوا معهم، بينما نراها تقول: كونوا من الزاهدين وهذا يبرهن على أن المراد مرتبة أسمى من المراتب التي يصلها الناس، وأجلى مصداق لهذا المعنى هم المعصومون هذا من جانب، ومن جانب آخر أن الأمر باتباع الصادقين بشكل مطلق، وعدم الانفصال عنهم بدون قيد أو شرط، دليل آخر على عصمتهم، لأنّ الاتباع بلا قيد أو شرط لا معنى له إلّا فيما يتعلق بالمعصومين.

ونظراً لوضوح محتوى الآية لم يستطع الفخر الرازي انكار دلالتها على وجود المعصوم في كل زمان ومكان، إلّا أنه ولعدم إيمانه بعقائد أتباع أهل البيت عليهم السلام يتحدث عن عصمة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١

جميع الأمة، أو بتعبير آخر «إجماع الأمة»، بينما نرى أن القضايا التي تحظى بإجماع الأمة محدودة للغاية، والحال أن أتباع الصادقين تكليف عام وفي كل الأحوال والشؤون.

وكذلك لم يفهم أي ناطق بالعربية أثناء نزول هذه الآية أن كلمة «الصادقين» تعني مجموع الأمة، فكيف يمكن حملها على هذا المعنى أليس من الأفضل الاقرار بوجود صادق في كل عصر وزمان ليس في سيرته السهو والخطأ ويجب علينا اتباعه؟

سؤال: وهنا يثار سؤال وهو: إن «الصادقين» ذكرت بصيغة الجمع، وعليه فلا بد من وجود عدّة معصومين في كل زمان، فكيف يتلائم هذا وعقائد أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام؟

إنّ الجواب على هذا السؤال من خلال الاستناد إلى نقطة، وهي: إنّ هذا الجمع ربّما يكون إشارة إلى مجموع الأزمنة، لأنّ «الصادقين» وعلى مدى مجموع الأزمنة يمثلون مجموعة، تماماً كما يقال: يتحتم على الناس اتباع الأنبياء في كل زمان، فليس مفهوم هذا الكلام هو وجود أنبياء متعددين في كل زمان، بل المقصود هو: أنّ على كلّ قوم اتباع نبي زمانهم، أو يقال: على الناس أن يعرفوا تكاليفهم تجاه العلماء والمراجع، أي: على كلّ شخص اتباع عالم ومرجع زمانه.

والشاهد على هذا الأمر هو عدم وجود شخص مفترض الطاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله غيره، في الوقت الذي تشمل الآية المذكورة زمانه أيضاً بكل تأكيد.

من هنا يتضح أن المراد ليس الجمع في زمان واحد، بل في عدّة أزمنة، وهذا الكلام هو بمثابة تحليل لهذه الآية.

وأما من ناحية الروايات، فإنّ الكثير من مفسري ومُحدّثي أهل السنيّة نقلوا عن ابن عباس قوله: إنّ هذه الآية نزلت بحق علي بن أبي طالب عليه السلام.

ومنهم «العلامة الثعلبي» في تفسيره، فقد روى إن ابن عباس قال في تفسير هذه الآية:

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢

«مع الصادقين يعنى مع علي بن أبي طالب وأصحابه» (١).

كما ينقل «العلامة الكنجي» في «كفاية الطالب»، و«العلامة سبط بن الجوزي» في «التذكرة» عن طائفة من العلماء ما يلي: «قال علماء السير: معناه كونوا مع علي عليه السلام وأهل بيته، قال ابن عباس: عليّ عليه السلام سيد الصادقين» (٢).

وجرى التأكيد على هذا المعنى أيضاً في الروايات العديدة التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام، منها الرواية التي نقرأها عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال في تفسير آية «وكونوا مع الصادقين»، يعنى «محمد وآل محمد» (٣).

ونقرأ في رواية أخرى أن «بريد بن معاوية» روى عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية أنه قال: «إيانا عنى» (٤).
 وفي تفسير البرهان ينقل عن كتاب نهج البيان: «روى أن النبي صلى الله عليه وآله سُئِلَ عن الصادقين فقال: «هم على وفاطمة والحسن والحسين وذريتهم الطاهرون إلى يوم القيامة» (٥).
 ومن البديهي أن جميع هذه الروايات إنما هي في الواقع بيان للمصداق، ولا تتعارض مع المفهوم العام للآية، لأنها تشمل شخص النبي صلى الله عليه وآله بالمرتبة الأولى ومن ثم الأئمة المعصومين عليهم السلام في كل عصر ودهر.
 من هنا فإن الآية الآتية الذكر تثبت «الولاية العامة» وكذلك «الولاية الخاصة».

آية أولى الأمر:

والحديث في الآية الثالثة عن وجوب اطاعة الله ورسوله وأولى الأمر، يقول تعالى

(١) احقاق الحق، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٨٠، ح ٣٩٢.

(٤) المصدر السابق، ح ٣٩٣.

(٥) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٧٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣

«أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ». (النساء / ٥٩)

فوجوب اطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله واضح ومعلوم، أما من هم المقصودون في «أولى الأمر» الذين اعتبرت اطاعتهم بموازاة اطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله، فهناك جدل بين المفسرين.

يتفق علماء الشيعة وأتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام أن المراد من «أولى الأمر» هم الأئمة المعصومون عليهم السلام الذين هم قادة المجتمع معنوياً ومادياً في كافة شؤون الحياة، ولا تشمل غيرهم، لأن الطاعة - بلا قيد أو شرط - الواردة في الآية الكريمة والتي اعتبرت موازية لطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله لا يمكن تصورهما إلا بحق الأئمة المعصومين عليهم السلام، وأما الآخرون الذين تجب طاعتهم فإنها محدودة بحدود ومقيدة بقيود، ولا وجود للطاعة المطلقة بشأنهم أبداً، وهذا الأمر واضح.

هذا في الوقت الذي يختلف فيه مفسرو وعلماء أهل السنة كثيراً في معنى أولى الأمر.

فمنهم من فسرها بمعنى «الصحابة»، ومنهم ب «قادة الجيش»، وبعضهم فسرها ب «الخلفاء الأربعة».

وهم لم يقدموا أي دليل واضح لهذه التفاسير الثلاثة.

واعتبرت طائفة أخرى «أولى الأمر» بمعنى العلماء، مستندين إلى الآية: «وَأَذَا حِيَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ إِذَا عَاوَا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ». (النساء / ٨٣)

ولكن نظراً إلى أن الآية التي هي محل بحثنا تبحث الطاعة بلا قيد أو شرط، والآية ٨٣ من سورة النساء تتعلق بالسؤال والتحقيق فإنها توضح أمرين مختلفين، ولا يمكن اعتبار كلا الأمرين بمعنى واحد، فالتحقيق من العالم أمر، والطاعة بلا قيد أو شرط أمر آخر، فلا يتصور الثاني إلا بصدد المعصومين، أما الأول فله مفهوم أوسع.

وقد أعطى بعض مفسري أهل السنة احتمالاً خامساً وهو: أن المراد من أولى الأمر هم ممثلو طبقات الناس، والحكام، والزعماء، والعلماء، وذوو المناصب في جميع شؤون الحياة.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤

وبتعبير آخر: المقصود هم أهل الحل والعقد الذين حيثما اتفقوا على شيء تجب طاعتهم بلا قيد أو شرط «على شرط أن يكونوا منا، حيث ذكرت (منكم) كشرط في الآية الكريمة، ولا- يخالفون سنة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ولا- يتعرضون للإجبار في مباحثاتهم، وأن يتمتعوا باتفاق الآراء، وتلك المسألة من المسائل».

فهذه المجموعة واجبة الطاعة في المسائل التي لم يصلنا فيها نص، ويمكن القول: إنهم معصومون، لذا ورد الأمر باطاعتهم بلا قيد أو شرط «١».

من هنا فالموما إليه يعتبر أولى الأمر مجموعة من العلماء وأهل الحل والعقد الذين تتوفر فيهم الشروط الخمسة التالية:

١- الإسلام، ٢- عدم مخالفة السنة، ٣- غير مجبور في ابداء الرأي، ٤- ابداء الرأي فيما لا نص فيه، ٥- التمتع باتفاق الآراء، ويعد مثل هذه الجماعة معصومة.

فهل ياترى أن المقصود من «أولى الأمر» في الآية الكريمة هو هذا؟ وهل أن أهل العرف وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كانوا يستفيدون هذا المعنى عند سماعهم للآية؟ أم أن هذا المعنى قد فرض على الآية بتكلف وعناء لئلا ينصرف معنى الآية إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام الذين يعتقد بهم الشيعة؟

ويظهر أن كلام تفسير «المنار» مشتق من كلام «الفخر الرازي» حيث يقول:

«واعلم أن قوله «أولى الأمر منكم» يدل عندنا على أن إجماع الأئمة حجة والدليل على ذلك أن الله تعالى أمر بطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم، وفي هذه الآية ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بد وأن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير اقدمه على الخطأ، والخطأ لكونه منهي عنه، فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وأنه محال، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم وثبت أن كل من أمر الله تعالى بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فثبت قطعاً أن ولي الأمر المذكور في هذه الآية لا بد وأن يكون معصوماً.

(١) تفسير المنار، ج ٥، ص ١٨١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٥

ثم يضيف: ذلك المعصوم إما مجموع الامم أو بعض الامم، لا جائز أن يكون بعض الامم، لأننا بيننا أن الله تعالى أوجب طاعة أولى الأمر في هذه الآية قطعاً، وإيجاب طاعتهم قطعاً مشروط بكوننا عارفين بهم قادرين على الوصول إليهم والاستفادة منهم، ونحن نعلم بالضرورة أننا في زماننا هذا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم، عاجزون عن الوصول إليهم، عاجزون عن استفادة الدين والعلم منهم، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن المعصوم الذي أمر الله المؤمنين بطاعته ليس بعضاً من أعباض الامم ولا طائفة من طوائفهم، وذلك يوجب القطع بأن إجماع الامم حجة «١».

إن ما وضع الفخر الرازي وصاحب المنار وأمثالهم في الزاوية الحرجة وجعلهم يفسرون هذه الآية بهذا التفسير الذي من المسلم أن أيّاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن يفهمه حين نزول الآية، هو التعيين المسبق الذي يحول دون البحث عن مفهوم الآية في أئمة أهل البيت عليهم السلام المعصومين، فمن ناحية أن دلالة الآية على عصمة أولى الأمر جلية.

ولم يكن في نيتهم التسليم لشخص كإمام معصوم من ناحية أخرى لذا فهم يبحثون عن تفسير لم يفهمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أثناء نزول الآية.

والأعجب من جميع التفاسير هو التفسير الذي ينتخبه بعض مفسري أهل السنة، ويقولون: إن المراد من أولى الأمر: الحكام والأمراء والملوك ويجب اتباع أي حاكم يتسلط على المسلمين، عادلاً كان أم ظالماً، سالماً جادة الصواب أم منحرفاً، يأمر بإطاعة الله أم

بمعصيته، كما يقول في تفسير المنار في إشارة غامضة: «وبعضهم اطلق في الحكام فأوجبوا طاعة كل حاكم» (٢).
والأعجب من ذلك أيضاً، الروايات المشكوكة والموضوعة التي نسبت لرسول الله صلى الله عليه وآله لإثبات تفسير هذه الآية، كالذي قاله رسول الله صلى الله عليه وآله في جوابه لجابر الجعفي حين قال:
يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا امراء يسألونا حقهم ويمنعوننا حقنا فما تأمرنا؟
قال صلى الله عليه وآله: «إسمعوا وأطيعوا» (٣).

(١) تفسير الكبير، ج ١٠، ص ١٤٤.
(٢) تفسير المنار، ج ٥، ص ١٨١.
(٣) صحيح مسلم، ج ٣، ص ٤٧٤، كتاب الامارة، باب طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق.
نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٦
وفي حديث آخر في الكتاب نفسه، روى عن أبي ذر أنه قال: «إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً مجدع الأطراف» (١).
وقد فسّر البعض مجدع الأطراف بمعنى من ولد في بيت غير طاهر وملوث. ومن المسلم به أن الساحة المقدسة للنبي صلى الله عليه وآله و آله أظهُر من أن يأمر خلافاً لمنطق العقل والشرع في الوقت الذي يروى عنه أنه قال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وأجلى دليل على ابتداء مثل هذه الأحاديث هو أن أباذر الذي روى عنه الحديث لم يفعل هكذا بشهادة تاريخه، حتى أنه قد ضحى بنفسه بسبب اعتراضه على انحراف امراء وحكام عصره!
وعلى أيّة حال، من الواضح أنّ النبي صلى الله عليه وآله و آله أسمى من هذه الأقاويل، فليس من إنسان عاقل ينطق بهذا الكلام ويقول: إنّ الحاكم واجب الطاعة في كل مايقول ويعمل، لا سيما وأنّ هذا الحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» (٢) مشهورٌ بين علماء المسلمين سواء الشيعة أو السنة.
ولا طاعة لبشرٍ في معصية الله (٣).
من هنا نستنتج أنّ أصح تفسير للآية هو اطاعة الأئمة المعصومين عليهم السلام.
ويبقى لدينا سؤالان لا بدّ من الاجابة عنهما، وهما:
١- إذا كان معنى «أولى الأمر» هو الإمام المعصوم، فهل يتناسب مع كلمة «أولى» التي تفيد الجمع؟ فباعتماد الشيعة أنّ الإمام المعصوم واحد لا أكثر في كلّ عصر.
وقد اتضح الجواب عن هذا السؤال في البحوث السابقة، فصحيح أنّ الإمام المعصوم واحدٌ في كل زمن، ولكن بالنظر لعمومية الآية بالنسبة لكافة الأزمنة، فإنّ الأئمة المعصومين بمجموعهم يشكلون مجموعةً، ونظير هذا المعنى كثير في كلمات العرب، فمثلاً نقول: السلام عليكم وعلى أرواحكم وأجسادكم. فلا يمكن الاعتراض على هذا السلام، فكل إنسان لا يمتلك أكثر من روح وجسم، فلماذا ذكرت الأرواح والأجساد هنا بصيغة

(١) صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٤٦٧، كتاب الامارة، باب طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق.

(٢) نهج البلاغة، كلمات القصار، الكلمة ١٦٥.

(٣) تفسير در المنثور، ج ٢، ص ١٧٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٧

الجمع؟ الجواب: إنّ هذا الجمع ناظرٌ للمجموع.

من هنا فبالرغم من أن النبي صلى الله عليه وآله له وصي في كل زمان لكنهم يتعددون في مجموع الأزمنة، فيتحتم استخدام صيغة الجمع لهم.

٢- والسؤال الآخر هو: إن الإمام المعصوم لم يكن موجوداً في عهد النبي صلى الله عليه وآله فكيف يؤمر بطاعته؟
وجواب هذا السؤال هو ما ورد سابقاً وهو: لو كانت الآية ناظرة إلى زمان النبي صلى الله عليه وآله فقط لورد مثل هذا الإشكال، أما وأنها تعتبر حكماً عاماً لجميع المسلمين حتى يوم القيامة فلا يرد ذلك الإشكال، ففي عهد رسول الله كان هو الإمام صلى الله عليه وآله وفي سائر العصور كان الأئمة المعصومون عليهم السلام، فليس مفهوم الكلام «يجب على المسلمين اطاعة النبي وأوصيائه» هو وجوب وجود أوصيائه في عهده.

ونختتم هذا الكلام بإشارة سريعة إلى الروايات الواردة في كتب الشيعة والسنة في ذيل هذه الآية والتي تفسرها بعلى عليه السلام وسائر الأئمة المعصومين عليهم السلام:

ينقل الشيخ سليمان القندوزي الحنفي في كتاب ينابيع المودة، عن تفسير «مجاهد» أن آية: «اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» نزلت في علي عليه السلام أثناء ما خلفه رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة خلال «معركة تبوك»، ويروى عن علي عليه السلام بأنه استدل بهذه الآية أثناء محاجته للمهاجرين والأنصار، ولم يؤاخذه المهاجرون والأنصار «١».
ونقل في شواهد التنزيل عن الحاكم الحسكاني في ذيل الآية: «اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم»، سألت (أى علي) رسول الله صلى الله عليه وآله: يا نبي الله من هم؟ قال:
«أنت أولهم» «٢».

كما رويت روايات كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أيضاً في تفسير هذه الآية بالأئمة المعصومين عليهم السلام وبلغت العشرات، وجاء فيها جميعاً أن «أولى الأمر» هم الأئمة المعصومون «٣».

(١) ينابيع المودة، ص ١١٤ و ١١٥ و ١١٦.

(٢) شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٤٨.

(٣) من أجل المزيد من الاطلاع راجعوا تفسير البرهان، ج ١ ص ٣٨١ إلى ٣٨٧؛ و تفسير كنز الدقائق ج ٣ ص ٤٣٧-٤٥٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٩

٢- الولاية والإمامة العامة في السنة النبوية الشريفة

تمهيد:

يعتبر هذا القسم من أهم أقسام السنة النبوية الشريفة وقد وردت بهذا الصدد روايات كثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله في أشهر وأهم المصادر الإسلامية وحيث من المناسب الالتفات إليها بكامل الدقة والحياد، من أجل إزالة الاتهامات التي الصقت بهذه المسألة سنوات طويلة، وذلك من خلال نور العلم والاخلاص والبحث، والكشف عن الصورة الحقيقية لها بعيداً عن التعصب، وليتضح واجبنا الإلهي ازاء هذه القضية الإسلامية المهمة.

ونكتفي هنا بتناول جانب من الروايات المشهورة التي تتناول مسألة الإمامة والولاية بشكل عام، مع شرح مختصر لمحتواها ومفهومها، ونرجو من القراء الكرام أن يكرروا ملاحظة هذه الروايات والوثائق والمصادر، وأن يطلعوا بدقة على مضمونها، ونوكل إليهم الاستنتاج والاستنباط النهائي.

إننا نعتقد أن اتخاذ موقف اللامبالاة ازاء هذه الأحاديث الناطقة والمرور عليها مرور الكرام، أو غض الطرف عن الحقائق، لا يقلل من مسؤوليتنا، بل يضاعفها.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤١

١- حديث الثقلين

إشارة

لقد سمي هذا الحديث بهذا الاسم لأن النبي صلى الله عليه وآله قال فيه: «إني تارك فيكم الثقلين...» (١).

ونقل هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله بشكل واسع للغاية في كتب الشيعة والسنة المشهورة (وفي مصادر الدرجة الأولى بحيث لم يبق معه شك في صدور هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وبشكل عام، يمكن الاستفادة من هذه الأحاديث، بأنه من الأحاديث التي لم يدل بها الرسول صلى الله عليه وآله لمرة واحدة فيكون حديثاً واحداً، ورواه كثيرين، بل إنه صلى الله عليه وآله ذكره في موارد مختلفة، وقد روى بروايات متعددة.

ونذكر هنا رواة هذا الحديث والكتب الإسلامية التي ورد فيها:

١- ففي صحيح مسلم الذي هو من أشهر المصادر لدى أهل السنة وأهم الصحاح الستة، ينقل عن «زيد بن أرقم» أنه قال: «قام رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خمأً، بين مكة والمدينة (٢)، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر، يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأني تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال:

وأهل بيتي اذركم الله في أهل بيتي، اذركم الله في أهل بيتي، اذركم الله في أهل بيتي» (٣).

(١) تقرأ كلمة «ثقلين» على نحوين فتارة تقرأ على وزن «حَرَمِينَ»، ومفردهما (ثَقَل) على وزن «حَرَم» وتعني الشيء الثمين والنفيس، كما تأتي بمعنى امتناع المسافر، وتارة تقرأ (ثَقَلَيْن) على وزن (سَبْطَيْن) حيث تعني الشيء الثقيل، ويعتقد صاحب كتاب «التحقيق» أن الأولى تعني القيمة المعنوية (والثانية أكثر شمولية) كما ينبغي الانتباه إلى أن (ثَقَل) على وزن (حَرَم) صفة مشبهة، و (ثَقَل) على وزن (سَبْط) اسم مصدر.

(٢) جاء في هامش صحيح مسلم أن غدير خم يبعد عن الجحفة ثلاثة أميال.

(٣) صحيح مسلم، ج ٤ ص ١٨٧٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٢

إن جعل أهل البيت عليهم السلام في موازاة القرآن باعتبارهما شيئين ثمينين، والتأكيد على التذكير بالمسؤولية الإلهية تجاههما يبرهن على علاقة هذا الأمر بمصير المسلمين وهدايتهم والمحافظة على اصول الإسلام، وإلا لما اجتمعوا.

٢- وجاءت في نفس الكتاب رواية أخرى لنفس الراوي مع شيء من الاختلاف (١).

واللطيف أنه عندما يُسأل زيد بن أرقم تعقيباً على هذه الآية هل المقصود من أهل بيته زوجاته؟ فيجيب: لا، المقصود من أهل البيت أهله من النسب الذين تحرم عليهم الصدقة.

٣- ونقرأ في كتاب سنن الترمذي الذي يعرف ب «صحيح الترمذي أيضاً في بحث مناقب أهل البيت عليهم السلام عن جابر بن عبد الله أنه يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يوم عرفه وقد صعد ناقته وخطب، فسمعتة يقول: «يا أيها الناس إنني قد تركت فيكم

ما إن أخذتم به لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي» (٢).

ثم يضيف الترمذى: وقد روى كل من أبي ذر، وأبي سعيد الخدرى، وزيد بن الأرقم، وحذيفة هذا المعنى أيضاً.

٤- بعد قليل وفي نفس الكتاب يروى عن أبي سعيد وزيد بن الأرقم أنّهما قالاً: قال رسول الله صلى الله عليه وآله «إني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلّوا بعدى: أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله جبل ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» (٣).

٥- وفي سنن الدارمى وهو من الكتب المعروفة أيضاً، روى حديث يشابه حديث زيد بن الأرقم عن النبي صلى الله عليه وآله، ويختتم الكلام بالتصريح باسم الثقلين و «كتاب الله وأهل البيت» (٤).

ولا ينبغي نسيان أنّ (الدارمى) وبناء على ما قاله بعض العارفين هو استاذ مسلم وأبى داود، وكتاب سنن الدارمى أحد الكتب الستة المعتمدة المعروفة لدى أهل السنة (وان ذكر

(١) صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٧٤.

(٢) صحيح الترمذى، ج ٥، ص ٦٦٢، باب مناقب أهل بيت النبي، ح ٣٧٨٦.

(٣) صحيح الترمذى، ص ٦٦٣، ح ٣٧٨٨.

(٤) سنن الدارمى، ج ٢، ص ٤٣٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٣

البعض سنن ابن ماجه بدلاً عنه).

٦- ونقرأ فى مسند أحمد وهو من الأئمة الأربعة لأهل السنة رواية عن زيد بن ثابت حيث يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله جبل ممدود ما بين السماء والأرض، أو ما بين السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض» (١).

انتبهوا إلى أنه فى بعض هذه الروايات ورد تعبير «الثقلين» «كما فى رواية صحيح مسلم». وفى بعضها «خليفتي» «كما فى الرواية الأخيرة التى نقلت عن سنن أحمد»، وفى البعض الآخر لم يرد أى منهما، بل مفهومها ومضمونها، وفى الحقيقة فإنها جميعاً تعود إلى أمر واحد. ٧- يروى أحمد بن شعيب «النسائى»- الذى يعتبر من أعظم أهل السنة أيضاً، وكتاب سننه من الصحاح الستة المشهورة أيضاً- فى كتاب «الخصائص» عن زيد بن الأرقم قوله:

إنّ النبي صلى الله عليه وآله وحين عودته من حجة الوداع ووصوله إلى غدیر خم أمر بإقامته ظلّه هناك واعتسل تحتها ثم قال: «كأنى دعيت فاجبت، وإنى تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، ثم قال: إنّ الله مولاي وأنا مولى كل مؤمن ثم أخذ بيد على عليه السلام، فقال: من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

وفى نهاية الرواية ورد أنّ الراوى الثانى «أبو طفيل» قال: قلت لزيد بن الأرقم: أسمع هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وآله و آله؟

قال: كل من كان تحت الظلة رأى هذا المنظر بعينه، وسمع هذا الكلام بأذنيه» (٢).

هذه الرواية تبرهن جيداً على أنّ النبي صلى الله عليه وآله و آله أدلى بهذا الكلام فى الملاءعام، وبحضور حشد غفير فى غدیر خم، والجميع قد سمعوا ذلك.

(١) مسند الإمام أحمد، ج ٥، ص ١٨٢.

(٢) خصائص النسائي، ص ٢٠، وفقاً لما نقل عن فضائل الخمسة، ج ٢ ص ٥٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٤

٨- ويروى الحاكم النيسابوري- وهو من علماء القرن الرابع الهجري في كتاب مستدرک الصحيحين وهو من المصادر المعروفة لدى أهل السنة ويضم الروايات التي لم ترد في صحيح البخارى ومسلم، بينما هو في مرتبتهما من ناحية القيمة والوزن- هذا الحديث عن ابن واصله أنه يقول: سمعت من زيد بن الأرقم أن النبي صلى الله عليه وآله وصل إلى أشجار بين مكة والمدينة وكانت هناك خمس ظلل، فنزل وقام الناس بتنظيف ما تحت الأشجار، وبعد صلاتي الظهر والعصر، خطبنا رسول الله فحمد الله وأثنى عليه، وبالغ في الوعظ ثم قال:

«أيها الناس إنى تارك فيكم أمرين لن تضلوا أن اتبعتموهما: وهما كتاب الله وأهل بيتي عترتي» (١).

ثم يضيف الحاكم: وهذا الحديث صحيح على شرط الشيخين (٢).

٩- يقول ابن حجر الهيتمي مفتى الحجاز وهو من ألد أعداء الشيعة، في كتاب «الصواعق المحرقة»: في رواية صحيحة «كأنى قد دُعيت فاجبت، إنى قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله عز وجل وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض».

ثم يضيف: وقد وردت هذه الزيادة في رواية أخرى أيضاً: «سألت ربي ذلك لهما، فلا تتقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم اعلم منكم».

ثم يضيف: إن لهذه الرواية طرقاتاً ورواه كثيرين يربون على نيف وعشرين راوياً، ولا حاجة لشرحه وتفصيله (٣).

إن هذا الاقرار الصريح بسعة هذا الحديث «إلى حد التواتر» ومن شخص طالما شنَّ أعنف الهجمات على الشيعة فيما يخص مسألة الإمامة لهو أمرٌ جديرٌ بالاهتمام.

(١) مستدرک الصحيحين، ج ٣، ص ١٠٩ (طبقاً لنفس المصدر).

(٢) المراد من شرط دينك الشخصين هو أنهما ينقلان الأحاديث التي تنتهي لسلسلة سندها إلى النبي صلى الله عليه وآله وأن روايتها يحظون بثقتهم وليسوا متهمين، وحيث إنهما لم ينقلا- كل الأحاديث التي تتمتع بهذا الشرط، فقد قام الحاكم النيسابوري بجمع الأحاديث التي تتمتع بالشرط ولم تأت في الكتابين، وذلك في كتابه «المستدرک»، من هنا يمكن أن يكون المستدرک موازياً لصحيح البخارى ومسلم.

(٣) الصواعق، ص ٢٢٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٥

١٠- يروى ابن الأثير «محمد بن محمد بن عبد الكريم» صاحب الكتب المشهورة والتي من بينها كتاب «اسد الغابة في معرفة الصحابة» في أحوال «عبد الله بن حنطب» أنه قال:

«خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالجحفة فقال: ألسن أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال إنى سائلكم عن اثنين عن القرآن وعن عترتي» (١).

١١- وذكر «جلال الدين عبد الرحمن السيوطي» وهو من العلماء المعروفين أيضاً وصاحب المؤلفات الكثيرة (٢)، في كتاب «احياء الميت» ما أورده ابن الأثير في اسد الغابة (٣).

١٢- وقد أورد البيهقي «أبو بكر أحمد بن الحسين» الذي يقول الزمخشري بحقه: «إن للشافعي دينا على عاتق جميع أتباعه، إلا أن

البيهقي ولما كتبه فهو ذو حق على الشافعي نفسه وعلى أتباعه أيضاً» (٤).

وأورد هذا الحديث في كتاب «السنن الكبرى وهو من أهم كتبه (نظيراً لما ورد في صحيح مسلم لا سيما وأن كلمة أهل البيت قد تكررت فيه ثلاثاً)» (٥).

١٣- كما أن الحافظ الطبراني وهو من المحدثين المعروفين لدى أهل السنة «وقد عاش في القرن الثالث والرابع للهجرة» وكما يقول البعض: إنه عاصر أكثر من ألف استاذ في الحديث، يروي في كتابه الموسوم «المعجم الكبير» بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أن النبي صلى الله عليه وآله دعا الناس إلى اتباع الثقلين، فقام رجل وسأله: يارسول الله، وما الثقلان؟ قال: «الأكبر كتاب الله، سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به لا تزلوا ولا تضلوا، والأصغر عترتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض».

ثم أضاف النبي صلى الله عليه وآله: «وقد سألت ربي لهما ذلك، فلا تتقدموهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم» (٦).

(١) اسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ٣، ص ٤٧.

(٢) قيل إنه كتب أكثر من خمسمائة كتاب (الكنى والألقاب، ج ١ ص ٢٠٧).

(٣) احياء الميت الذي طبع على هامش الاتحاف، ص ١١٦.

(٤) الكنى والألقاب، ج ٢، ص ١١٤.

(٥) سنن البيهقي، ج ١٠، ص ١١٤.

(٦) المعجم الكبير، ص ١٣٧، وفقاً لما نقله احقاق الحق، ج ٩، ص ٣٢٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٦

١٤- ونقل ابن تيمية «أحمد بن عبد الحلیم الحنبلي» «المتوفى سنة ٧٢٨هـ» مؤسس «المذهب الوهابي» في كتاب منهاج السنة، هذا الحديث كما ورد في صحيح مسلم (١).

كما نقله جماعة آخرون من علماء السنة المشهورين والمعروفين في كتبهم، منهم:

١٥- ابن المغازلي على بن محمد، «الفقيه الشافعي وهو من علماء القرن الخامس الهجري» إذ نقل هذا الحديث بمزيد من التفصيل عن زيد بن الأرقم (٢).

١٦- الخوارزمي وهو من مشاهير علماء القرن السادس وكان من الفقهاء والمحدثين والخطباء والشعراء، نقل هذا الحديث أيضاً في كتابه الموسوم بـ «المناقب» (٣).

١٧- وذكره الذهبي «محمد بن أحمد بن عثمان الدمشقي الشافعي»- وهو من علماء القرنين السابع والثامن، وهو معروف بالتحيز لمذهبه، وقد قال تاج الدين السبكي في كتاب «طبقات الشافعية» بحقه: إنه محدث عصره، وختام الحفاظ، ورافع راية مذهب السنة والجماعة، وامام أهل زماننا- هذا الحديث أيضاً في كتاب «تلخيص المستدرک» (٤).

١٨- وذكر المؤرخ الشهير على بن برهان الحلبي الشافعي وهو من علماء القرن الحادي عشر، في كتابه «إنسان العيون» المشهور بالسيرة الحلبية، حديث الثقلين ضمن بيانه لحديث الغدير وبعبارة صريحة كالذي ذكرناه آنفاً، وبعد ذكر هذا الحديث يقول بصراحة: «هذا حديث صحيح حيث نُقل باسناد صحيحه وحسنه» (٥).

وذكر ابن حيان المالكي في كتاب «المقتبس في أحوال الاندلس» شبيه ما ورد في صحيح مسلم، إلا أنه ذكر المكان الذي تلا فيه النبي صلى الله عليه وآله تلك الخطبة والواقع بين مكة والمدينة بأنه «الحصائن» والتي تعني «القلاع» (٦).

- (١) منهاج السنّة، ج ٤، ص ١٠٤.
- (٢) احقاق الحق، ج ٤، ص ٤٣٨، (نقلًا عن كتابه الخطي).
- (٣) المناقب، ص ٩٣.
- (٤) جاء هذا الكتاب على هامش كتاب المستدرك للحاكم، ج ٣، ص ١٠٩.
- (٥) السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٢٧٤.
- (٦) المقتبس، ص ١٦٧.
- نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٧
- ٢٠- وأورد «علاء الدين علي بن محمد البغدادي» المشهور بـ «الخازن» وهو من علماء القرن الثامن الهجري في تفسيره ما جاء في صحيح مسلم والترمذى «١».
- ٢١- وأورد «ابن أبي الحديد المعتزلى عز الدين عبد الحميد» وهو من علماء القرن السابع الهجري، هذه الرواية أيضاً في شرح نهج البلاغة، فيقول: «قد بين رسول الله صلى الله عليه وآله عترته من هي لما قال: إني تارك فيكم الثقلين، فقال عترتي أهل بيتي». ثم يضيف: وقد بين رسول الله صلى الله عليه وآله أهل بيته أيضاً في مكان آخر، عندما نشر عليهم الكساء، وعندما نزلت الآية: «أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ...»، قال: «إلهي هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس» «٢».
- ٢٢- ونقل «زيني دحلان» الشافعي (سيد أحمد) مفتى مكة وهو من علماء القرن الثالث عشر الهجري وله مؤلفات كثيرة، هذا الحديث في كتاب «السيرة النبوية» الذي طبع على هامش السيرة الحلبية كما نقله صحيح مسلم تماماً، وكما رواه مسند أحمد بن حنبل عن أبي سعيد الخدري «٣».

ترتيب مختصر:

كانت هذه مجموعة من مشاهير العلماء منذ قرون الإسلام الاولى وحتى القرون الأخيرة، حيث نقلوا حديث الثقلين في كتبهم بكل صراحة، ولكن لا ينبغي أن ننسى أن هذه طائفة قليلة من مجموع رواة هذا الحديث، وطبقاً لما جاء في خلاصة عبقات الأنوار فقد ذكر المرحوم مير حامد حسين الهندي مائة وستة وعشرين كتاباً معروفاً، وقد أورد في كتابه هذا نص العبارة مع رقم الجزء والصفحة في الكتاب «٤».

ومن الجدير بالذكر أن هذا الحديث لم يُرو عن جابر بن عبد الله الأنصاري أو أبي سعيد

(١) تفسير الخازن، ج ١، ص ٤.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٤٣٧، طبع القاهرة.

(٣) السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٠٠؛ على هامش ج ٣ من السيرة الحلبية، ص ٣٣ وجاء أيضاً في ص ٣٣.

(٤) نقلًا عن خلاصة عبقات الأنوار، ج ٢، ص ١٠٥-٢٤٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٨

الخدري أو زيد بن الأرقم فحسب، بل رواه ما لا يقل عن ثلاثة وعشرين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله عنه مباشرة، وفيما يلي أسماؤهم:

- ١- زيد بن الأرقم، ٢- أبو سعيد الخدري، ٣- جابر بن عبد الله الأنصاري، ٤- حذيفة بن أسيد، ٥- خزيمه بن ثابت، ٦- زيد بن ثابت، ٧- سهل بن سعد، ٨- ضمرة الاسلمي، ٩- عامر بن ليلي، ١٠- عبر الرحمن بن عوف، ١١- عبد الله بن عباس، ١٢- عبد الله بن عمر،

١٣- عدى بن حاتم، ١٤- عقبه بن عامر، ١٥- على بن أبى طالب عليه السلام، ١٦- أبو ذر الغفارى، ١٧- أبو رافع، ١٨- أبو شريح الخزاعى، ١٩- أبو قدامة الأنصارى، ٢٠- أبو هريرة، ٢١- أبو هيثم بن التيهان، ٢٢- ام سلمه، ٢٣- أم هانى.

تكرار حديث الثقلين على لسان النبي صلى الله عليه وآله:

من الامور التي يجدر ذكرها هنا أنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يدل بهذا الحديث لمرة واحدة فقط كما هو الحال بالنسبة لحديث الغدير الذي صرح به النبي صلى الله عليه وآله مرة واحدة وسمعه ونقله كثيرون، بل إنه ردّد حديث الثقلين في مواطن عديدة ومناسبات مختلفة.

والمواطن التي ذكر فيها الحديث ونُقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله في كتب أهل السنة عبارة عن:

١- في غدير خم أثناء عودة النبي صلى الله عليه وآله من حجة الوداع، حيث قام وأورد حديث الثقلين ضمن كلماته المفصلة. وهذا ما ذكرناه آنفاً عن صحيح مسلم وخصائص النسائي مع ذكر الاسناد والمصادر.

٢- خلال أيام الحج وفي يوم عرفة وعندما كان النبي صلى الله عليه وآله يخطب من على ناقته حيث أدلى بهذا الحديث. وهذا ما رواه الترمذى في صحيحه عن جابر بن عبد الله الأنصارى، وأدرج سابقاً تحت الرقم ٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٤٩

٣- تحدّث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا الحديث في «الجحفة» وهي أحد مواقيت الحج بين مكة والمدينة، كما ذكر ذلك ابن الأثير في «اسد الغابة» في أحوال «عبد الله بن حنطب»، وذكر سابقاً في العدد ٨ من سلسلة الأحاديث.

٤- أثناء مرضه الذي انتهى بوفاته، وعندما كان يدلى بآخر وصاياه، أوصى صلى الله عليه وآله بالثقلين وقال: «أيها الناس يوشك أن اقبض قبضاً سريعاً فينطلق بى وقد قدّمت إليكم القول معذرةً إليكم إلمائى مخلّف فيكم كتاب ربي عزّ وجلّ وعترتى أهل بيتى، ثم أخذ بيد على عليه السلام فرفعها، فقال: هذا علىّ مع القرآن والقرآن مع على لا يفترقان حتى يردا على الحوض فاسئلوهما ما خلّفتهما» (١).

وهناك دقائق وظرائف لا تخفى على أهل الحقيقة.

٥- قال صلى الله عليه وآله في «مسجد الخيف» اثناء «حجة الوداع»: ألا وإني سائلكم عن الثقلين، قالوا: يا رسول الله وما الثقلان؟ قال: كتاب الله الثقل الأكبر، طرف بيد الله وطرف بأيديكم فتمسكوا به لن تضلوا ولن تزلوا، وعترتى أهل بيتى، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض كاصبعي هاتين» (٢).

٦- أثناء عودته صلى الله عليه وآله من الطائف «بعد فتح مكة» حيث وقف النبي وذكر هذا الحديث وهذه النقاط المهمة (٣). إنّ هذا التكرار والتأكيد وفي أماكن مختلفة، في المدينة وفي أيام الحج، في يوم عرفة، وفي مسجد الخيف «أيام منى» وفي وسط الطريق بين مكة والمدينة، وموارد أخرى دليل واضح وبرهان قوي وناطق على أنّ التمسك بهذين الأمرين المهمين يعتبر قضية مصيرية ومهمة بحيث كان النبي صلى الله عليه وآله يريد توعية المسلمين على أهميتهما لئلا يضلوا، والعجب العجيب إذا ما تخلينا عنهما بعد كل هذا التكرار والتأكيد، وألقينا بأنفسنا في الضلالة، أو قللنا من شأنهم من خلال التبريرات الخاطئة.

(١) الصواعق المحرقة، ص ٧٥.

(٢) تفسير على بن إبراهيم وفقاً لنقل بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ١٢٩، ح ٦١.

(٣) صواعق ابن حجر، الفصل الأول، الباب ١١ آخر ص ٨٩.

نفحات القرآن ج ٩ ٩٩

فكيف يمكن المرور مرور الكرام بحديث نقله نيف وعشرون من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، وورد في المصادر الشهيرة ومن قبل الطبقة الاولى ونقل في ما يقارب من مائتي كتاب إسلامي معروف، لا شك ولا ريب في سنده، ولا غموض في برهانه؟ من المسلم به أن من يمر بهذا الحديث مرور الكرام تقع على عاتقه مسؤولية عظيمة.

فالذى يؤمن بالنبي صلى الله عليه وآله باعتباره رسول الله صلى الله عليه وآله وخاتم النبيين والأمين على الوحي، ويرى تأكيده على التمسك بهذين الأمرين المهمين رأى العين، ويعتبر أن الهدى في اتباعهما، عليه أن يعلم أن هناك سرّاً مهماً يكمن في هذين الأمرين.

المسائل المهمة المستوحاة من حديث الثقلين:

إنّ هذا الحديث الشريف يرسم خطوطاً مهمّة أمام المسلمين، وسنشير إلى جانب منها بشكل مختصر:

١- إنّ القرآن وأهل البيت عليهم السلام متلازمان دائماً ولا يمكن فصلهما، والذين يبحثون عن حقائق القرآن يتحتم عليهم التمسك بأهل البيت عليهم السلام.

٢- كما أن أتباع القرآن واجب على المسلمين بلا قيد أو شرط فإنّ أتباع أهل البيت عليهم السلام واجب أيضاً بلا قيد أو شرط.

٣- إنّ أهل البيت معصومون عليهم السلام، فعدم افتراقهم عن القرآن من ناحية، ووجوب اتباعهم بلا قيد أو شرط من ناحية أخرى دليل واضح على عصمتهم من الزلل والخطأ والذنب، فلو كانوا يذنبون أو يخطئون لانفصلوا عن القرآن، وأنّ اتباعهم لم يؤمن المسلمين من الضلالة والانحراف، وأنّ قوله صلى الله عليه وآله: «ما إن تمسكتهم بهما لن تضلوا»، دليل جليّ على عصمتهم.

٤- والأهم من كل ذلك أنّ النبي صلى الله عليه وآله قد رسم هذا الخط للمسلمين على مر الزمان إلى يوم القيامة، فيقول: «إنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» فهذا يوضح بجلاء أنّ هناك

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٥١

شخصاً من أهل البيت عليهم السلام بعنوان أمام معصوم على مر التاريخ، وكما أنّ القرآن نبراس هداية فإنهم كذلك، إذن لا بدّ أن نسعى ونبحث عنهم في كلّ عصر وزمان.

٥- استفاد من هذا الحديث الشريف أنّ الانفصال عن أهل البيت عليهم السلام أو التقدّم عليهم يمثل أساس الضلال، ولا ينبغي تقدّم شيء على ما يختارونه.

٦- إنهم أفضل وأعلم من الناس كافة.

نعم، فلا غموض في استجلاء هذه الامور من الحديث المذكور أبداً.

واللطيف أنّ «السمهودي» والشافعي «١» وهما من علماء القرن التاسع والعاشر الهجري المعروفين، وصاحب كتاب «وفاء الوفاء» يقول في احدي مؤلفاته باسم «جواهر العقدين» الذي كتبه حول حديث الثقلين: إنّ ذلك يفهم وجود من يكون أهلاً للتمسك به من أهل البيت والعترة الطاهرة في كلّ زمانٍ وجدوا فيه إلى قيام الساعة، حتى يتوجه الحث المذكور إلى التمسك به كما أنّ الكتاب العزيز كذلك «٢».

سؤال أخير:

يبقى سؤال واحد فقط وهو: إنّه عبر في بعض الروايات وإن كانت قليلة جداً ب «وسنتي» بدلاً عن «وعترتي أهل بيتي»، حيث عثرنا

عليهما في مكانين في سنن البيهقي، ففي مورد يروي ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله أنه خطبنا في حجة الوداع وقال: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً، ثم قال: كتاب الله وسنة نبيه» (٣).
وفي سند آخر نقل هذا المعنى عن أبي هريرة أيضاً (٤).
ولكن من الواضح أن هذه الرواية لا يُستند عليها في مقابل جميع تلك الروايات التي

(١) «سمهود»، قرية كبيرة إلى جانب النيل في مصر.

(٢) خلاصة عبقات الأنوار، ج ٢، ص ٢٨٥.

(٣) سنن البيهقي، ج ١٠، ص ١١٤.

(٤) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٥٢

تصرح باسم أهل البيت والعترة، وحتى أن كلمة أهل البيت تكررت في بعضها ثلاث مرات، وتم التأكيد عليهم، وفي بعضها جاء اسم علي عليه السلام بالنص، وأن النبي صلى الله عليه وآله أخذ بيده وعزّف به، ويبدو أن سلاطين الزمان قاموا بهذا التغيير للإفلات من مؤاخذات الناس، إلا أنهم لم يستطيعوا التحريف.

فضلاً عن أن هاتين الروايتين على فرض صحة حديث «وستني» لاتعارضان، ففي مكان يوصي النبي صلى الله عليه وآله بالكتاب والسنة، وفي مكان آخر بالكتاب والعترة، لأن النبي صلى الله عليه وآله وكما أسلفنا قد أدلى بهذا الحديث مرات عديدة (وفقاً للروايات التي وردت في المصادر المشهورة لأهل السنة)، فتارة في حجة الوداع، وأخرى أثناء عودته من الطائف، ومرّة في المدينة وعلى المنبر، وأخرى على فراش المرض والوفاء (١)، فما الضير في أن يقول مرات ومرات: «وعترتي» ومرّة واحدة: كتاب الله وستني؟ وهل هنالك شخص ينكر أن سنة النبي صلى الله عليه وآله هي إحدى آثاره العظيمة، التي يجب العمل بها؟ وهل يمكن لمسلم أن يغض الطرف عن سنة رسول الله صلى الله عليه وآله التي أكد عليها القرآن، وقال: «مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» (الحشر / ٧)

إنّ هذا المعنى لا يتعارض والتأكيد على اتباع العترة والتمسك بها الوارد في الموارد الأخرى

وبتعبير آخر: إنّ اختيار إحدى الروايتين يكون في موضع يتعارضان فيه، والحال أنّهما لا يتعارضان على الإطلاق، إنّ التمسك بهدى أهل البيت عليهم السلام هو أحد المصاديق البارزة للعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله فمن اطاع أهل البيت عليهم السلام فقد عمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، والذي أدار ظهره لهم وقدم اختياره على اختيار رسول الله صلى الله عليه وآله فقد تمرد على رسول الله صلى الله عليه وآله.

وعلى أي حال لا يمكن التنصل من المسؤولية التي حمّلتها إيانا أحاديث الثقلين الأحاديث المتواترة بلا شك، ولا يمكن التغاضي عنها من ناحية السند والبرهان.

ونختم الكلام بشعر أورده الإمام الشافعي بهذا الصدد:

(١) لقد تمّت الإشارة إلى هذه الموارد سابقاً، ويجدر القول إنّ المرحوم السيد شرف الدين قد أشار إلى الموارد في الرسالة الثامنة في كتابه المراجعات.

ولما رأيت الناس قد ذهب بهم مذاهبهم في بحر العين والجهل
ركبتُ على اسم الله في سفن النجاة وهم آل بيت المصطفى خاتم الرسل

وأمسكتُ جبل الله وهو ولاؤهم كما قد أمرنا بالتمسك بالجبل

وما أسعد الإنسان إذ يراهم الملاذ في كل شيء ويعرف الحق من خلالهم «١».

وقد استند في الكثير من الروايات الآنفه إلى قضية حوض الكوثر، وسبب ذلك بحسب الظاهر أن حوض الكوثر يقع في باب الجنة، وأن أول قدم للدخول تكون هناك، وأن الصالحين يزورون النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام هناك.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٥٥

٢- حديث سفينة نوح

إشارة

من الأحاديث المشهورة بحق أهل البيت عليهم السلام والأئمة المعصومين عليهم السلام هو «حديث السفينة» الذي ورد في الكتب المعروفة لدى الشيعة وأهل السنة بشكل واسع، ونحن هنا نبحث في نص واسناد ومصادر هذا الحديث الشريف بشكل سريع:

لقد نقل هذا الحديث ما لا يقل عن ثمانية من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وهم (أبو ذر، وأبو سعيد الخدرى، وابن عباس، وأنس، وعبد الله بن الزبير، وعامر بن وائلة، وسلمة بن الأكوع، وعلي عليه السلام) «١».

لقد وردت الروايات الآنفه في الكتب المشهورة لدى أهل السنة حيث نشير إلى جانب منها فيما يأتي،- وللمزيد من التوضيح نحث على مراجعة الكتب التالية: احقاق الحق، الجزء التاسع، وخلاصة عبقات الأنوار، الجزء الرابع وسائر الكتب.-

إن أبا ذر رحمه الله كان ماسكاً بباب الكعبة ويقول: «من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فليعلم أنى أبو ذر الغفارى، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك»، وجاء في رواية: «ومن تخلف عنها غرق» «٢».

وعليه فهم سفينة النجاة في بحر الحياة المتلاطم.

٢- يروى «ابن عباس» وكذا «سلمة بن الأكوع»- وفقاً لما ينقله أبو الحسن على بن

(١) وفقاً لما نقل في اسد الغابة أن عبد الله بن الزبير ولد في بداية الهجرة، وفي سن السابعة أو الثامنة جاء به أبوه الزبير إلى الرسول صلى الله عليه وآله ليبيعه، فسمع منه صلى الله عليه وآله ما بقى من عمره ورواها (اسد الغابة، ج ٣، ص ١٦٢).

(٢) روى هذا الحديث الحافظ الطبراني في المعجم الكبير والمعجم الصغير، ص ٧٨ طبعة دلهي؛ وابن قتيبة الدينورى في عيون الأخبار، ج ١، ص ٢١٢ طبعة مصر؛ والحاكم النيشابورى في المستدرک، ج ٣، ص ١٥٠؛ والذهبي في ميزان الاعتدال، ج ١، ص ٢٢٤؛ والسيوطى في تاريخ الخلفاء، ص ٥٧٣؛ وجماعة أخرى كثيرة.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٥٦

محمد الشافعى، المشهور بابن المغازلى، في كتاب المناقب- عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك».

وهذه العبارة نقلت عن ابن عباس، إلا أن عبارة «ابن الأكوع» أكثر اختصاراً وهى:

«مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا».

يقول الشيخ «محمد أمين الانطاكى»، مؤلف كتاب «لماذا اخترت مذهب الشيعة» في بحث حديث السفينة: اتفقت آراء علماء الإسلام على صحة واستفاضة نقل هذا الحديث حتى بلغ حد التواتر، وهناك عدد كبير من الحفاظ وأئمة الحديث وأهل السير والتواريخ نقلوا

هذا الحديث حتى بلغ عددهم أكثر من مائة وحتى غير المسلمين نقلوا هذا الحديث ووضوه بين الأحاديث الإسلامية» (١).
وروى هذا الحديث في كتاب «عقبات الأنوار» عن اثنين وتسعين كتاباً مكتوبةً من قبل اثنين وتسعين من مشاهير علماء أهل السنة بشكل مفصل مع جميع المشخصات:
وفي الملحقات التي ذكرها صاحب كتاب «خلاصة عقبات الأنوار» نقل هذا الحديث عن ثمانية من الصحابة، وثمانية من التابعين، وثلاثة من علماء القرن الثاني، وثمانية من علماء القرن الثالث، وأربعة عشر من علماء القرن الرابع، وهكذا قرناً بعد قرن حتى وصل إلى القرن الحالي، وذكرهم جميعاً بالإسم والمواصفات (٢).

مفاد حديث السفينة:

من أجل إدراك المعنى الدقيق لهذا الحديث لابد من إلقاء نظرة على أحوال سفينة نوح.
يقول القرآن الكريم: «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ». (القمر / ١١-١٣)

(١) لماذا اخترت مذهب الشيعة، ص ١٦٦.

(٢) خلاصة عقبات الأنوار، ج ٢، ص ١٢٦-١٩٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٥٧

لقد دمر هذا الفيضان الشامل وغطى الماء كل شيء ولم يبق مأوى يلتجئ إليه الإنسان إليه سوى سفينة نوح التي ضمن الله تعالى لمن ركبها النجاة من الغرق، بحيث عندما قال ابن نوح بغرور: «سَيَأْوِي أَلِيَّ جَبَلٍ يَغَصُّهُ مِثْنِي مِنَ الْمَاءِ» فليس هناك فيضان يصل إلى قمم الجبال، جيوبه برد أبيه الحازم والرادع حيث قال له: «لَا عِصَمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ»! إشارة إلى المؤمنين الذين ركبوا في السفينة، وظهر صدق كلام نوح مباشرة إذ: «وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ». (هود / ٤٣)

إن تشبيه أهل البيت بمثل هذه السفينة وفي تلك الظروف، زاخرٌ بالمعاني التي تعلمنا منها الكثير من الحقائق، ومن بينها:

١- إن العواصف ستعصف بالامة الإسلامية بعد النبي صلى الله عليه وآله وتجرّف الكثير معها ويغرق في أمواجها الكثير أيضاً.
٢- هنالك طريق واحد فقط للخلاص من مخالب الأخطار التي تهدد الدين والإيمان وأرواح الناس، ألا وهي سفينة أهل البيت عليهم السلام التي يُعتبر التخلف عنها أو تركها سبباً للهلاك.

٣- إن الانفصال عن واسطة النقل في الصحراء قد لا- يؤدّي إلى الموت دائماً، إلّا أنه يُعرّض الإنسان إلى العناء، بيد أن التخلف عن سفينة النجاة في بحر متلاطم لا ينتج عنه سوى الموت والهلاك.

٤- لقد كان شرط الركوب في سفينة نوح عليه السلام الإيمان والعمل الصالح، من هنا فقد عرض نوح على ابنه الإيمان، والانفصال عن الكافرين، والركوب معه ومع أصحابه في السفينة: «يَأْتِيَنَّكَ أَرْكَبٌ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ». (هود / ٤٢)
بناء على ذلك فشرط نجاة هذه الامه من العواصف والانحرافات هو الإيمان واليقين بمقام سفينة النجاة هذه.

٥- ليست محبتهم فقط التي تؤدّي إلى النجاة، حيث طرح بعض علماء الإسلام ذلك بادعائهم أن جميع المسلمين يحبون أهل البيت عليهم السلام ويعظمونهم، من هنا فهم جميعاً من الناجين. بل إن الكلام الذي جاء في الرواية هو عن اتباعهم (مقابل التخلف عنهم)، فإن ابن

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٥٨

نوح كان يحبُّ أباه إلّا أنه لم يكن يتبعه، ولم تؤدِّ محبته إلى نجاته ابداً (تأملوا جيداً).

٦- كما استفيد من «حديث الثقلين» خلال البحوث الآنفه أن التمسك بولاء أهل البيت عليهم السلام مستمر حتى نهاية العالم، وأن

القرآن وأهل البيت عليهم السلام لن يفترقا حتى يردا على رسول الله صلى الله عليه وآله الحوض في الجنة، يستفاد أيضاً من «حديث السفينة»، أن هذا الخط مستمر حتى نهاية الكون، لأن الدنيا دائماً مركز الابتلاءات والعواصف، أي أن الشياطين ودعاة الضلالة والتائهيين في وادي الحيرة موجودون في كل زمان، ولا تهدأ هذه العواصف أبداً، وهي قائمة إلى يوم القيامة حيث يحكم الله تعالى بين عباده، فتزال الاختلافات (١) على هذا الأساس، فإن وجود السفينة سفينة النجاة هذه ضروري إلى الأبد والتخلف عنها يؤدي إلى الهلاك.

٧- إن التمسك المطلق بأهل البيت عليهم السلام (في قبال التخلف عنهم) يمكن أن يكون شاهداً جلياً على وجود الإمام المعصوم في كل زمان من أهل البيت عليهم السلام، حيث يؤدي أتباعه إلى النجاة والتخلف عنه إلى الهلاك.

٨- إن هذا الحديث تفسيراً للحديث المعروف «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فرقة ناجية والباقيون في النار» (٢).

ويبرهن على أن الفرقة الناجية هم الذين يتمسكون بمذهب أهل البيت عليهم السلام، ويهتدون بهداهم في اصول وفروع الدين. من مجموع ما قيل يمكن الاستفادة أيضاً من هذا الحديث المعروف: إن مسألة أهل البيت عليهم السلام يجب أن تكون مسألة بسيطة وعلى الهامش، بحيث يأخذ المسلمون ما يريدونه في امور الدين والدنيا من الغير ويكتفون بمحبة أهل البيت عليهم السلام.

(١) يصرح القرآن في آيات عديدة أن يوم القيامة يوم يزال فيه الاختلاف وأن الله يفصل بين الامم.

(٢) لقد روى هذا الحديث طائفة كثيرة من علماء الشيعة والسنة، وجاء في بعض طرق الحديث أن النبي عليه السلام قال في جوابه لعلي عليه السلام الذي سأله، من هي الفرقة الناجية؟، المتمسك بما تمسكت به أنت و شيعتك و أصحابك (احقاق الحق، ج ٧ ص ١٨٥).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٥٩

٣- حديث النجوم

إشارة

الحديث الآخر الذي ورد بشكل واسع بحق أهل البيت عليهم السلام في المصادر الإسلامية، ويؤكد على أنهم عليهم السلام هداة وأئمة الناس في كل زمان هو حديث النجوم. حيث رواه جماعة كثيرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله (ما لا يقل عن سبعة أشخاص، ومنهم علي عليه السلام، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري، وانس بن مالك، والمنكدر (١)، وسلمة بن الاكوع، وابن عباس)، وجرت الإشارة إليه في عشرات الكتب من قبل حفاظ أهل السنة ومحدثيهم، حيث ندرج جانباً منها فيما يأتي، ونشير إلى بقية المصادر بشكل إجمالي (للمزيد من اطلاع القراء):

١- ينقل «الحاكم النيسابوري» في المستدرک عن «ابن عباس» أن النبي صلى الله عليه وآله قال:

«النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب ابليس». وبعد ذكره لهذا الحديث قال الحاكم: هذا حديث صحيح السند (٢).

يقول العلامة «الحمزاي» في «مشارك الأنوار»: جاء في الرواية التي صححها (٣) الحاكم النيسابوري: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف».

ومن الذين أوردوا هذا الحديث في كتابه، «ابن حجر» في «الصواعق» و «العلامة علي المتقي» في «منتخب كنز العمال» و «البدخشي» في «مفتاح النجاح» و «الشيخ محمد صبان

(١) المنكدر بن عبد الله، أبو محمد بن المنكدر- طبقاً لقول ابن الأثير في اسد الغابة- هو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله.
 (٢) الحاكم النيشابورى فى المستدرک، ج ٣، ص ١٤٩ طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ٩، ص ٢٩٤.
 (٣) عبارة الحمزاوى هكذا، صححها الحاكم على شرط الشيخين (إشارة إلى المعايير التى على أساسها يعتبر البخارى ومسلم الأحاديث صحيحة، فهذا الحديث صحيح)، مشارق الأنوار، ص ٩٠.
 نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٠

المالكي» فى «اسعاف الراغبين» و «العلامة النبهاني» فى «الشرف المؤبد» و «جواهر البحار» (١).
 كل هذا متعلق بالحديث الذى رواه ابن عباس عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، كما أشرنا أيضاً إلى أن هناك رواة كثيرين أيضاً نقلوا هذا الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله، حيث وردت رواياتهم فى كتب السنة والشيعه المعروفة (وبالطبع هناك تفاوت قليل فى عبارات هذه الروايات لا أثر لها فى ما يمثل الهدف الحقيقى).

فمثلاً نقرأ فى روايه «سلمة بن الاكوع»: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان لأمتى» (٢).
 وقد روى هذا المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وآله بشيء من الاختلاف كل من جابر بن عبد الله الأنصارى والمنكدر، وانس، وأبو سعيد الخدرى.

ونقرأ فى الحديث الآخر الذى رواه على عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وآله بهذا الصدد: «النجوم أمان لأهل السماء فاذا ذهبت ذهب أهل السماء وأهل بيتى أمان لأهل الأرض فاذا ذهب أهل بيتى ذهب أهل الأرض».
 وقد نقل هذا الحديث «محب الدين الطبرى» فى «ذخائر العقبى عن مناقب أحمد بن حنبل» (٣).
 ونقله جماعة آخرون فى كتبهم، مثل «الحموينى» فى «فرائد السمطين» و «ابن حجر» فى «الصواعق» و «محمد بن صبان» و «إسعاف الراغبين» و «الخوارزمى» فى «مقتل الحسين» و «النبهاني» فى «الشرف المؤبد».

(١) للمزيد من الاطلاع يراجع احقاق الحق، ج ٩، ص ٢٩٤-٢٩٦.
 (٢) لقد أورد هذا الحديث كل من السيوطى فى الجامع الصغير، ص ٥٨٧؛ ومحب الدين الطبرى فى ذخائر العقبى وابن حجر فى الصواعق، وجماعة آخرون فى كتبهم.
 (٣) ذخائر العقبى ص ٧.
 نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦١

مضمون حديث النجوم:

إن حديث أو أحاديث النجوم تشير إلى امور مختلفة:
 ١- إن هذا الحديث فى واقع الأمر إشارة إلى آيات القرآن التى تبين أن لنجوم السماء أثرين مهمين:
 أولاً: قوله تعالى «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ». (النحل / ١٦)
 ويقول فى مكان آخر: «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ». (الانعام / ٩٧)
 إن هذا فى الواقع إشارة إلى احدى الفوائد المهمة للنجوم، فقبل اختراع البوصلة كان من المتعذر تشخيص الطرق لاسيما فى الأسفار البحرية- حيث لا- وجود للجبال والأشجار- إلّا عن طريق النجوم، لهذا فإن السفن تتوقف عن المسير خلال الليالى التى تغطى فيها الغيوم السماء، وإذا واصلت طريقها فإن خطر الموت يهددها.
 وهذا يعود إلى أن نجوم السماء متجمعة ماعدا النجوم الخمسة السيارة (عطارد، الزهرة، المريخ، المشترى، وزحل) ولا تغير مكانها،

وكانها جواهر قد رصعت قطعة قماش سوداء، وهذه القطعة سحبت باتجاه معين وهنّ يأخذن بها في الاتجاه المعاكس، لهذا فقد سميت «الثوابت» بالإضافة إلى النجمة القطبية الثابتة في مكانها التي لا تنزغ أو تأفل كسائر النجوم، وهذا الوضع أدى إلى أن يتعرفوا على سائر النجوم ويعرفوا مكانها على مدار السنة، وأن يلتمسوا طريقهم نحو مقاصدهم من خلال الخارطة التي كانت لديهم.

والفائدة الأخرى هي ما يقوله القرآن في أنّ بعض النجوم «رجوم» للشياطين، أي أنها بمثابة السهام التي تنطلق نحو الشياطين وتحول دون نفوذهم إلى السموات، إذ يقول القرآن: «أَنَا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بَرِيَّةَ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ». (الصفافات / ٦-٩)

من هذه الآيات وسائر آيات القرآن يمكن أن ندرك مفهوم أمان النجوم لأهل الأرض.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٢

فكيف توصل النجوم أو «الشهب» الطريق أمام الشياطين، وتمنعها عن النفوذ إلى السموات؟ إن هذه المسألة يجب أن تبحث على حدة، وقد أوردنا شرحها في ذيل هذه الآيات في التفسير الامثل، وما يتوجب الاهتمام به هنا هو المفهوم الإجمالي للآيات التي تبين أنّ النجوم هي سبب تقهقر الشياطين عن الملاء الأعلى ويصبح منطقاً منزهاً للملائكة والكروبيين وهذا المقدار كاف لتفسير حديث النجوم.

نعم فالنبي صلى الله عليه وآله كنجوم السماء، فمن جهة ينقذون الناس من الضلالة في ظلمات الكفر والفساد والذنوب، ويشخصون لهم سبيل بلوغ غاياتهم، ويحفظون سالكي سبيل الحق من الغرق وسط أمواج الضلالة.

ومن جهة أخرى عندما يحاول شياطين الجن والانس النفوذ إلى حرم الإسلام ليقوموا بتحريف أحكام القرآن والسنة فإنهم عليهم السلام يردونهم على أعقابهم كالشهب الثاقبة، ويردون كيدهم إلى نحورهم ويحولون دون اطلاعهم على الأسرار.

وهذه النكتة جديرة بالاهتمام أيضاً لاسيما وأنها تبين أنّ أهل البيت عليهم السلام أمان للامة ازاء الاختلافات، فلو استمرت الاختلافات لصار الناس من حزب ابليس كما قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «اختلفوا فصاروا حزب ابليس» وهذا التعبير مفعم بالمعاني.

٢- يستفاد من هذا الحديث أنّ خطأ هداية أهل البيت عليهم السلام متواصل حتى فناء الكون، كاستمرار أمان النجوم لأهل السماء أو أهل الأرض.

٣- أنّه يثبت عصمتهم من الخطأ والذنب أيضاً، فلو أمكن صدور الخطأ والذنب عنهم لم يتسن لهم أن يكونوا أماناً- بشكل كامل ومطلق- لأهل الأرض في مواجهة الاختلاف والضلال، (تأملوا جيداً).

٤- كما أنّ نجوم السماء تتبادل البزوغ فكلما أفل منها واحدٌ بزغ آخر، وكلما اختفت منها مجموعة في الافق، طلعت أخرى فإنّ أهل البيت عليهم السلام كذلك أيضاً.

وقد وضح على عليه السلام هذا الأمر بصريح العبارة في نهج البلاغة:

«ألا أن مثل آل محمد صلى الله عليه وآله كمثل نجوم السماء إذا هوى نجمٌ طلع نجمٌ» (١).

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٣

ولعل الأمر لا يحتاج إلى تذكير بعدم إمكانية تفسير أهل البيت عليهم السلام في هذه الروايات بنساء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، لأنّه يتحدث عن أشخاص يمثلون أساس هداية الأمة ونجاتها من الغرق في الضلالة، ويتصدون للاختلافات في كل عصر، ونحن نعلم أنّ نساء النبي كن يعشن في زمان خاص، بالإضافة إلى أنّهنّ لم يكن لهنّ دور خاص في التصدي للاختلافات.

سؤال:

ربما يقال: إننا نقرأ في الحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وآله في مختلف الكتب: «أصحابي بمنزلة النجوم في السماء فأبدا أخذتم به اهتديتم» (١).

فهل أن هذا الحديث لا يتعارض والأحاديث المذكورة التي وردت بحق أهل البيت عليهم السلام؟

للإجابة عن هذا السؤال، لابد من الالتفات إلى بعض الأمور:

١- على فرض أن حديث «أصحابي كالنجوم» حديث معتبر فهو لا يتعارض مع ما ورد بحق أهل البيت عليهم السلام، لأن وجود مرجع واحد في بيان حقائق الإسلام لا يتعارض مع وجود المراجع الآخرين، لاسيما وأنه لم يرد الكلام في حديث «أهل بيتي كالنجوم» عن القرآن الكريم، بينما يمثل القرآن الكريم أهم سند للمسلمين.

٢- إن هذا الحديث «موضوع» و«مقدوح به» من ناحية السند لدى الكثير من علماء أهل السنة، أو مشكوك على أقل تقدير. ومن الذين صرحوا بهذا المعنى «أحمد بن حنبل» أحد الأئمة الأربعة لأهل السنة، و«ابن حزم»، و«أبو إبراهيم المزني»، أحد أصحاب الشافعي و«الحافظ البزاز» و«الدارقطني» و«الذهبي» وطائفة أخرى حيث يخرجنا نقل كلام كل منهم عن إطار البحث التفسيري، ولكن بإمكانكم مراجعته «خلاصة كتاب عبقات الأنوار» بغية الاطلاع الواسع على جميع هذه الأقوال (٢).

(١) جامع الاصول، ج ٩، ص ٤١٠.

(٢) خلاصة العبقات، ج ٣، ص ١٢٤ إلى ١٦٧ (وفي هذا الكتاب بين ضعف سند هذا الحديث عن أكثر من ثلاثين من علماء أهل السنة مع شرح لأحوالهم).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٤

٣- إن مضمون هذا الحديث لا يتناسب مع المعايير المنطقية، فأننا نعلم أن اختلافات شديدة قد وقعت بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله (الأصحاب بالمعنى الشامل للكلمة، نعني جميع الذين أدركوه صلى الله عليه وآله وكانوا إلى جانبه)، وقد أريقت دماء كثيرة بسبب هذه الاختلافات ووقعت حروب رهيبه، فأى منطق يرتضى لنا أن نعتبر فرقتين متخاصمتين وكل منهما متعطش لدم الآخر، أنوار هداية، ونخير الناس بأن لا فرق بالنسبة لكم في أن تلتحقوا بمعسكر أمير المؤمنين عليه السلام أو بمعسكر معاوية؟ أي: أن الأمر سيان للقوم في حرب الجمل سواء كانوا مع علي عليه السلام أو مع طلحة والزبير! فكلهم أنوار هداية ويأخذون بأيديكم إلى الجنة؟

فلا عقل يقبل مثل هذا المنطق، والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله أسمى وأرفع من أن ينسب إليه مثل هذا.

إن القرائن تبرهن على أن حكام «بنى أمية» ومن لف لف لفهم قد ابتدعوا هذا الحديث ونسبوه إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من أجل ترسيخ دعائمهم أو إضعاف معنى حديث النجوم والتقليل من أهمية أهل البيت عليهم السلام، ليفهموا أهل الشام أن لو كانت حكومة علي عليه السلام على الحق ومشعل هداية، فإن حكومة معاوية كذلك بحكم كونه من أصحاب رسول الله، فلا فرق في أن تكونوا مع هذا أو مع ذاك، والله العالم بحقائق الأمور.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٥

٤- حديث «الأئمة الأئني عشر»

إشارة

الحديث الآخر الذي يكشف عن منزلة أهل البيت عليهم السلام في الولاية والإمامة بشكل عام، وبإمكانه الإجابة عن الكثير من الأسئلة

التي ترد بهذا الصدد، هو ذلك الحديث الذي يذكر أنّ الأئمة اثني عشر وهو من أشهر الأحاديث، وقد نقل في أكثر كتب الصحاح، وفي البداية نتجه نحو سند الحديث، ومن ثم نتطرق إلى مضمونه:

روى هذا الحديث عن جملة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله إذ تنتهي أكثر الأسانيد إلى «جابر بن سمرة»، ثم إلى «عبد الله بن مسعود» و«عبد الله بن عمر»، و«عبد الله بن عمرو بن العاص»، و«عبد الملك بن عمير»، و«أبي الجلد»، و«أبي جحيفة» (وهم سبعة أشخاص على الأقل)، إلّا أنّ حفاظ الحديث والذين نقلوه في كتبهم بلغوا العشرات، والآن نلفت انتباهكم إلى جانب منها:

١- روى في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة أنّه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

«لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة» - ثم قال كلمة لم أفهمها! فقلت لأبي: ما قال؟ فقال: كلهم من قريش» (١).

وينقل في هذا الكتاب بسند آخر عن جابر، وجاء: «لا يزال هذا الأمر» بدلا عن «لا يزال هذا الدين عزيزاً»، وجاء في تعبير ثالث وبسند آخر: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً».

ويروى عن عامر بن سعد بن أبي وقاص بتعبير رابع: إنني كتبت إلى جابر بن سمرة أن اكتب لي الأخبار التي سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله، فكتب لي: سمعت رسول الله يقول: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثني عشر خليفة كلهم من قريش».

(١) صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٤٥٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٦

وسمعت أيضاً: «عصية من المسلمين يفتتحون بيت أبيض، بيت كسرى أو آل كسرى .

وسمعته يقول أيضاً: «إنّ بين يدي الساعة كذابين فاحذروهم» (١).

وعن طريق آخر جاء في صحيح مسلم نفسه عن جابر: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة»، وفي آخر هذا الحديث تلاحظ أيضاً جملة «كلهم من قريش» (٢).

٢- جاء هذا الحديث في صحيح البخاري وبعبارة مشابهة، يقول جابر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

«يكون اثني عشر أميراً فقال كلمة لم اسمعها، فقال أبي إنه قال كلهم من قريش» (٣).

٣- وذكر هذا المعنى في صحيح الترمذي أيضاً مع شيء من الاختلاف، ويقول الترمذي بعد نقله: «هذا حديث حسن صحيح» (٤).

٤- كما جاء هذا الحديث في صحيح أبي داود أيضاً مع اختلاف بسيط، ويبرهن نمط الحديث على أنّ النبي صلى الله عليه وآله أدلى به على الملأ العام، فقد جاء فيه أنّ النبي صلى الله عليه وآله حينما قال:

«لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة فكبر الناس وضجوا ثم قال كلمة خفية: كلهم من قريش» (٥).

٥- ذكر هذا الحديث في مسند أحمد أيضاً وفي عدّة موارد، بحيث عدّ بعض المحققين في هذا الكتاب طرقه إلى جابر أربعة وثلاثين طريقاً (٦).

وجاء عن «مسروق» أنّه قال: كنا جلوساً ليلة عند عبد الله بن مسعود يقرئنا القرآن فسأله رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن هل سألتم رسول الله صلى الله عليه وآله كم يملك هذه الامية من خليفة؟ فقال عبد الله: ما سألتني عن هذا أحد منذ قدمت العراق قبلك، قال: سألته فقال:

(١) صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٤٥٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) صحيح البخارى، ج ٣، الجزء ٩، ص ١٠١ (فى الباب الذى أورده قبل باب اخراج الخصوم وأهل الريب).

(٤) صحيح الترمذى، ج ٤، ص ٥٠١، باب ما جاء فى الخلفاء، الحديث ٢٢٢٢٣.

(٥) صحيح أبى داود، ج ٤، ص ١٠٣.

(٦) يراجع كتاب منتخب الأثر، ص ١٢؛ واحقاق الحق، ج ١٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٧

«اثنى عشر كعدة نقباء بنى اسرائيل» (١).

مانقلناه يتعلق بأشهر كتب السنة وأكثرها اعتباراً التى نقل فيها هذا الحديث عن طرق مختلفة، ومن بعدها جاء فى كتب اخرى أيضاً، حيث نشير إلى أسماء بعضها تجنباً للاطالة فى الحديث، وبإمكانكم الحصول على مزيد من التفصيل فى كتب «احقاق الحق»، و«فضائل الخمسة»، و«منتخب الأثر» وأمثالها.

مضمون حديث «الأئمة عليهم السلام اثنى عشر»:

إنّ التعابير التى جاءت فى هذه الروايات متفاوتة، فقد عبر فى بعضها ب «اثنى عشر خليفة» وفى بعض «اثنى عشر أميراً» وفى بعض جرى الحديث عن ولاية وحكم اثنى عشر رجلاً «ماولاهم اثنى عشر رجلاً»، ولكن غالباً ما عبر ب «خليفة»، وفى بعضها جاء التعبير أيضاً بالعدد فقط «اثنى عشر كعدة نقباء بنى اسرائيل»، كما عبر فى بعضها ب «اثنى عشره قيماً».

ولكن من الواضح أنها جميعاً تشير إلى مسألة الخلافة والولاية والحكومة، وبالتالي فهى واحدة.

ومن ناحية اخرى فقد ورد فى بعضها: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً»، وفى بعض: «لا يزال أمر امتى صالحاً»، وفى بعض: «لا يزال أمر هذه الامّة ظاهراً»، وفى بعض: «ماضياً» وفى بعض: «لا يضرهم من خذلهم».

وتعابير اخرى من هذا القبيل حيث تشير جميعها إلى حقيقة واحدة وهى: صلاح أمر الامّة واقتدارهم وظفرهم ونجاتهم.

(١) مسند أحمد، ج ١، ص ٣٩٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٨

ومن جهة ثالثة تلاحظ جملة «كلهم من قريش» فى أغلب هذه الروايات التى نقلت بأساليب مختلفة، ما عدا بعض الروايات مثل الرواية التى نقلها القندوزى الحنفى فى ينباع المودة، إذ ينقل فى ذيل هذه الرواية عن كتاب «مودة القربى عن «جابر بن سمرة» أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «كلهم من بنى هاشم» (١).

وجاء فى أغلب هذه الروايات أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خفض صوته أثناء ذكره هذه الجملة، وصرح بها سرّاً، وهذا يدل بوضوح أنّ ثمة أشخاص كانوا يعارضون أن يكون الخلفاء الاثنى عشر لرسول الله صلى الله عليه وآله فى قريش أو بنى هاشم، ممّا أدى إلى أن يصرح النبى صلى الله عليه وآله بذلك بشكل سرى!

على أية حال فإنّ تفسير هذا الحديث الشريف الذى ورد فى المصادر المشهورة والمعتبرة ونظراً لاعتراف جميع علماء الإسلام به فإنّه واضح لأتباع أهل البيت عليهم السلام، وأنهم لا يرون معنى له سوى الأئمة الاثنى عشر، إلّا أنّ تفسيره بالنسبة لأتباع المذاهب الاخرى أصبح عبارة عن مسألة غامضة ومعقدة ومعضلة، بنحو يمكن معه القول بكل اطمئنان: إنّ أيّاً منهم لم يقدم تفسيراً واضحاً له، والسر فى ذلك معلوم، فالخلفاء الأوائل كانوا أربعة، وحكام بنى امية كانوا اربعة عشر، وبلغ عدد حكام بنى العباس سبعة وثلاثين شخصاً.

وإنّ أيّاً منهم لم ينطبق عليه حديث «الأئمة اثنى عشر»، كما أنّ الجمع والتمييز بينهم لن يحل المشكلة، إلّا أن نلغى البعض ونقبل

بالبعض الآخر وفقاً لميولنا، وننتخب اثني عشر منهم بمشقة وعناء، وهذا أيضاً لا ينسجم مع أى منطق.

من الأفضل لنا أن نضع زمام الحديث بيد «الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي» فهو يقول في الكتاب المعروف «ينابيع المودة»:

قال بعض المحققين: إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده صلى الله عليه وآله اثني عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة فبشرخ الزمان وتعريف الكون والمكان علم أن مراد رسول الله صلى الله عليه وآله من حديثه هذا الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته، إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه لقلتهم عن اثني عشر ولا يمكن أن يحمله على الملوك الأموية لزيادتهم عن اثني عشر، ولظلمهم الفاحش - إلّا عمر بن عبد العزيز - ولكونهم غير

(١) ينابيع المودة، ص ٤٤٥، الباب ٧٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٦٩

بنى هاشم، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: كلهم من قريش، في رواية عبد الملك عن جابر واخفاء صوته صلى الله عليه وآله في هذا القول يرجح هذه الرواية لأنهم لا يحسنون خلافة بنى هاشم، ولا يمكن أن يحمله على الملوك العبّاسيين لزيادتهم على العدد المذكور ولقلة رعايتهم الآية: «قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى . (الشورى/ ٢٣)

وكذلك حديث الكساء، فلا بدّ من أن يحمل هذا الحديث على الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته صلى الله عليه وآله لأنهم كانوا اعلم أهل زمانه وأجلهم وأورعهم واتقاهم وأعلاهم نسباً وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله «١».

يقول الدكتور «محمد التيجاني السماوي» الذي كان من أهل السنة ثم اختار التشيع، في الكتاب الذي ألفه حول سبب تشييعه واسماه «كونوا مع الصادقين» في عدّه جمل قصيرة ومفعمة بالمعاني: «هذه الأحاديث لا تصح ولا تستقيم إلّا إذا فسرناها على أئمة أهل البيت الذين تقول بهم الشيعة الإمامية، وأهل السنة والجماعة هم المطالبون بحل هذا اللغز إذ إنّ عدد الأئمة الاثني عشر الذي اخرجوه في صحاحهم بقي حتى الآن لغزاً لا يجدون له جواباً» «٢».

والعجيب أنّ البعض أرادوا تفسير هذا الحديث الشريف دون الاذعان لاعتقاد اتباع أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال فتعرضوا لعناء مدهش، فمن ناحية عدوا «يزيد بن معاوية» من الاثني عشر الذين سما بهم الإسلام واصبح مقتدرًا، ومن ناحية اخرى ألغوا عددا من الخلفاء وفقاً لرغبتهم.

وباعتقادنا أنّهم لو اختاروا السكوت لكان أفضل لهم من هذه التبريرات، والأعجب من ذلك كله التفسير الذي سمعناه في احدى أسفارنا لحج بيت الله الحرام من أحد علماء مكة وفي المسجد الحرام وهو: إنّ الأئمة الاثني عشر أولهم الخلفاء الأربعة وثمانية منهم سيظهرون في المستقبل!

بينما كل من يقرأ هذا الحديث يعرف أنّ المراد منه الوجود المتتابع للخلفاء الاثني عشر،

(١) ينابيع المودة، ص ٤٤٦، ملحق الباب ٧٧.

(٢) كونوا مع الصادقين، ص ١٤٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧٠

والتعابير مثل: «لا يزال هذا الدين منيعاً عزيزاً»، أو «لا يزال هذا الدين قائماً حتى تقوم الساعة» تفيد هذا المعنى بجلاء وصراحة بأنّ سلسلة خلفاء النبي صلى الله عليه وآله الاثني عشر ستستمر إلى يوم القيامة.

ونختم هذا البحث بحديث عن الحافظ أبي نعيم الاصفهاني في كتاب «حلية الأولياء» فهو ينقل بسنده عن ابن عباس أنّ النبي صلى الله

عليه وآله قال: «من سره أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنه عدن غرسها ربي، فليوال علياً من بعدى، وليوال وليه وليقتد بالائمة من بعدى فإنهم عترتي» (١).

ملاحظة

وثمة ملاحظة مهمة هنا نشير إليها ونترك شرحها للبحوث اللاحقة، وهي ورود أسماء الأئمة الاثني عشر - كما يعتقد به اتباع مذهب أهل البيت - في العديد من الروايات التي نقلت عن طريق السنّة والشيعة، وفي بعض طرق هذه الروايات تمت الإشارة إلى اسم أولهم على عليه السلام وآخرهم المهدي (عج) بصيغته أولهم على وآخرهم المهدي، وفي بعضها أشير إلى ثالثهم أي الإمام الحسين عليه السلام بهذا الشكل الذي نقل أن رسول الله صلى الله عليه وآله أو ما إليه وقال: «هذا ابني إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تسع» (٢)، وهكذا اشير إلى جميع الأئمة الاثني عشر.

لا تخلو الأرض من حجة:

من المسائل المهمة التي يستند إليها في الروايات هي أن الأرض لا تخلو من مندوب عن الله تعالى وقد تكرر هذه المضمون في الروايات المتواترة التي وصلتنا عن مصادر أهل

(١) حلية الاولياء، ج ١، ص ٨٦ (وفقاً لنقل الفضائل الخمسة من الصحاح الستة، ج ٢، ص ٣٤).

(٢) يقول المرحوم العلامة في كشف المراد (شرح تجريد الاعتقاد)، إن هذا الحديث روى بشكل متواتر عن النبي صلى الله عليه وآله كشف المراد، ص ٣١٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧١

البيت عليهم السلام، بأن الأرض لا تخلو من إمام أو «نبي» أو حجة على العموم، وقد احتوى كتاب الكافي على باين في هذا المجال، وروى في باب منهما تحت عنوان: «إن الأرض لا تخلو من حجة»، ثلاثة عشر حديثاً عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام والإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وبعض الأئمة، في الباب الآخر تحت عنوان: «إنه لو لم يبق في الأرض إلّا رجلان لكان أحدهما الحجّة»، ورويت فيه خمسة أحاديث بهذا المضمون (١)، حيث نشير فيما يلي إلى بعض هذه الأحاديث الواردة في كلا البابين.

نقرأ في أحد الأحاديث الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنّ الأرض لا تخلو إلّا وفيها إمام كيما إن زاد المؤمنون شيئاً ردّهم وإن نقصوا شيئاً أتمّهم لهم» (٢).

ونقرأ أيضاً في حديث آخر عنه عليه السلام: «ان الله أجّل وأعظم من أن يترك الأرض بغير امام عادل» (٣)، بل ورد في بعض هذه الأحاديث أن الأرض إذا خلت من الإمام والحجة ساعة واحدة لتزلزلت الأرض وساخت بأهلها (٤).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لو كان الناس رجلين لكان احدهما الإمام»، «وان آخر من يموت الإمام» (٥).

بالإضافة إلى الأحاديث الثمانية عشر المذكورة فقد اشير إلى هذا المعنى بصراحة في نهج البلاغة أيضاً، ففي الكلمات المهمة التي قالها الإمام علي عليه السلام لكميل بن زياد، يقول:

«اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجته، اما ظاهراً مشهوراً واما خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيئاته» (٦).

وقد نقل المرحوم العلامة المجلسي أيضاً في الجزء ٢٣ من بحار الأنوار في باب «الاضطرار إلى الحجّة» ١١٨ حديثاً في هذا المجال وهذه الأحاديث الموجودة في اصول

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ١٧٨ و ١٧٩.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ح ٢ من الباب الأول.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ح ٦ من الباب الأول.

(٤) المصدر السابق، ح ١١ و ١٢ و ١٣.

(٥) المصدر السابق، ح ٣، (باب إنه لو لم يبق إلّا رجلان احدهما الإمام).

(٦) نهج البلاغة، الخطبة ١٤٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧٢

الكافي هي قسم منها، وقسم كثير اضيف إليها من سائر الكتب «١».

بناءً على ذلك فإنّ قضية وجود حجّة على الأرض في كل عصر تعتبر من الامور المسلّم بها في مذهب أهل البيت عليهم السلام، إلى الحد الذي نقرأ في حديث للإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «إنّ الله لا يُخلى أرضه من حجّةٍ طرفه عين، إمّا ظاهر وإمّا باطن» «٢».

الإشارات القرآنية والمنطقية على وجوب الحجّة:

إنّ ما جاء في الروايات الآتية الذكر يمكن تطبيقه مع الدليل العقلي أيضاً، لأنّ «برهان اللطف» الذي ورد في مستهل البحث حول لزوم وجود الإمام أو النبي في كل عصر وزمان، وكذلك المفاصد المترتبة على فقدانه تصدق على ذلك في جميع الأحوال حتى لو كان سكان الكرة الأرضية شخصين فقط.

تقول قاعدة اللطف: إنّ الذي خلق الإنسان من أجل السعادة والتكامل، وألقى على عاتقه التكليف، من الواجب أن يهيء مقدمات هداية الإنسان وتربيته، وأن يضع تحت تصرفه مستلزمات بلوغ هذا الهدف لأنه لو لم يفعل هكذا فقد نقض الغرض، ومن المستحيل أن يفعل الله الحكيم هكذا.

لا شك في أنّ وجود العقل أو القادة العاديين لا يصون الإنسان من الأخطاء والزلات والمعاصي، وبتعبير آخر: إنّ علم الإنسان لا يستطيع لوحده إرشاد الإنسان إلى غايته، أي طاعة الله والسعادة الأبدية، بل بالإضافة إلى ذلك فهو يحتاج إلى من يرتبط بالعلم الإلهي والمعصوم من الخطأ والزلل والمعصية، ليتسنى له اتمام الحجّة وتوضيح السبيل للناس بشكل تام.

إنّ هذا البرهان يصدق في كل عصر وزمان، ولكل مجتمع كبيراً كان أم صغيراً حتى ولو

(١) بحار الأنوار، ج ٢٣، من ص ١ إلى ٥٦.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٤١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧٣

كان من شخصين، وعليه فلو لم يكن في الأرض إلّا شخصان فاحدهما النبي أو الإمام المعصوم.

على أيّة حال فكما قرأنا في الروايات الآتية أنّ الله أجل من أن يكلف الناس بلوغ مقام السعادة من دون أن يرشدهم إلى الطريق الصحيح الذي يخلو من الخطأ.

يلاحظ في بعض آيات القرآن إشارات إلى هذا المعنى أيضاً.

فآية الكریمه: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ». (الرعد / ٧)

تدل على أن لكل قوم في كل عصر وزمان هادياً، (هادٍ بالمعنى الحقيقي للكلمة حيث يجسد الهداية الكاملة والخالية من كل خطأ)، ومن هنا نقرأ في الحديث الوارد عن الإمام الباقر عليه السلام، إذ قال في تفسير هذه الآية: «... وفي كل زمانٍ إمامٌ منا يهديهم إلى ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله» (١).

والتعبير الذي جاء في نهج البلاغة يضم في ثناياه دليلاً منطقياً أيضاً، وهو: إنَّ أحد واجبات الإمام هو المحافظة على آثار النبوة والتعاليم الإلهية من كل تحريف، وبتعبير آخر:

لو فرضنا أن كل من على الأرض كفروا فلا بد من وجود شخص يحافظ على تعاليم وآثار النبوة وينقلها إلى الأجيال القادمة التي تريد سلوك سبيل الهداية، وإلا فإنَّ الحجج الإلهية تُمحي وتزول، وتنتهي دلائله وبياناته «لثلا تبطل حجج الله وبياناته». وهنا نصل إلى خاتمة البحوث المتعلقة بالولاية العامة، والآن نتطرق إلى شروطها وخصائصها.

(١) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٥، ح ٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧٥

الشروط والصفات الخاصة بالإمام

إشارة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧٧

الشروط والصفات الخاصة بالإمام

تمهيد:

نظراً للمسؤوليات الخطيرة الملقاة على عاتق الإمام وخليفته النبي صلى الله عليه وآله، فلا بد بطبيعته الحال من أن تتوفر فيه شروط صعبة. وتلك الشروط تشابه إلى حد ما شروط وخصائص النبي صلى الله عليه وآله لأنهما يسيران في طريق واحد، ويتحملان نوعاً واحداً من المسؤولية، فالنبي صلى الله عليه وآله يتقدم في المرحلة الأولى والأئمة يتابعونه في المراحل اللاحقة.

وكما تحدثنا في بحث النبوة، فالنبي وبحكم المسؤولية المهمة الملقاة على عاتقه يجب أن يتمتع بعلم واسع في كل مجال، ليستطيع انقاذ البشر من أخطار الضلالة، ويهديهم في القضايا العقائدية والأخلاقية والأحكام والأنظمة الاجتماعية إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم وكمالهم، ويوضح الأحكام الإلهية بلا نقص أو زيادة.

أضف إلى هذا فلا بد أن يتمتع باطلاع عن روح وجسم الإنسان، والمسائل النفسية والاجتماعية، وتاريخ المجتمع البشري، والخلاصة أن يتمتع بما يساعد على معرفة الناس الذين يحتاجون إلى التريية، بل وتم التوضيح في بحث علم الأنبياء ووجوب تمتعهم بالعلم بما يخص وقائع المستقبل نوعاً ما، ليتسنى لهم وضع الخطط الدقيقة لذلك لشمولية رسالتهم (للمزيد من التوضيح بهذا الصدد راجعوا الجزء السابع من نفحات القرآن، بحث المقام العلمي للأنبياء).

وهذه الامور تصدق بالنسبة لأئمة الحق وخلفاء الأنبياء أيضاً مع شيء من التفاوت لأنهم يواصلون طريق الأنبياء وخطهم، وكل ما يشرع به اولئك يواصله هؤلاء، وكل ما أقامه

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧٨

الأنبياء يصونه ويكمله الأئمة عليهم السلام فالشجيرات التي غرستها سواعد الأنبياء تسقى بسواعد الأئمة الهداه عليهم السلام. ومن جهة اخرى فالائمة الصالحون كالأنبياء يجب أن يوصلوا ما يعلمونه إلى الناس سالما من الخطأ والزلل والانحراف، وإذا لم يكونوا معصومين لا تتحقق الغاية من وجودهم.

ومن ناحية ثالثة فالأنبياء وبمقتضى مقام القيادة في الدين والدنيا لابد وأن يكونوا ذوى أخلاق فاضله وصفات محموده ظاهريه كانت أو باطنيه لئلا يتذمر منهم الناس ولكي تثمر الأهداف من بعثهم ولا يعرض امرٌ ينقض الغاية.

هذا الأمر يصدق بحق الأئمة عليهم السلام تماما، فهم لا ينبغي عليهم التنزه عن أسباب التذمر فحسب، بل لابد من توفر الجاذبيات الأخلاقية لديهم بالقدر الكافي لجذب القلوب والعقول، وهنا لابد أولاً من البحث في علم الإمام.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٧٩

علم الإمام

إشارة

يشير القرآن الكريم إلى هذه المسألة في عدة آيات:

فيقول تعالى في مكان: «وَأَذًا حِجَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ إِذْ أَعْبَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا». (النساء / ٨٣)

ويقول في آية اخرى «فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ». (النحل / ٤٣)

تدل الآية الاولى على أن هناك اشخاصاً بين المسلمين كانوا يسلكون- وبلا وعى منهم- سبيل بث الشائعات التي يثيرها أعداء الإسلام أحياناً، فتارة يثرون إشاعة الانتصار، واخرى إشاعة الهزائم، أو سائر الإشاعات، وسبب هذا الأمر الغفلة والجهل، وقد يتسبب في انهيار معنويات المسلمين، يقول القرآن: على المسلمين أن يراجعوا النبي صلى الله عليه وآله أو اولى الأمر في مثل هذه المسائل الاجتماعية المهمة التي يجهلونها.

واولى الأمر تعنى أصحاب القرار، ومن المسلم به أنها لا- تعنى هنا القادة الحربيين، لأنه تعالى يقول بعد ذلك ما معناه: إن الذين يستنبطون الأحكام (أى الذين يبحثون القضايا من أصلها يمتلكون الاطلاع حول هذه الامور، وعلى الذين يجهلون مراجعته هؤلاء)، فإن «يستنبطونه» من مادة «نَبَطَ»- على وزن «فَقَطَّ»- وتعنى فى الأصل الماء الأول الذى يستخرجونه من البئر ويتفجر من باطن الأرض، لذا يقال للحصول على الحقيقة من مختلف

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٠

الأدلة والقرائن، استنباط.

وهذا التعبير صادق بحق العلماء فقط، لا قادة الجيش ولا الأمراء، من هنا فإنه تعالى يكلف المسلمين بالرجوع إلى العلماء وأولى الأمر فى المسائل الحساسة والمصيرية.

لكن ما المقصود هنا من «اولى الأمر»؟ ثمة جدل بين المفسرين أيضاً، فبعض فسرها بمعنى امراء الجيش لاسيما الجيش الذى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، وبعض بمعنى العلماء والفقهاء، وبعض فسرها بالخلفاء الأربعة، وبعض بمعنى أهل الحل والعقد (زعماء المجتمع)، وطائفة اعتبرتهم الأئمة المعصومين عليهم السلام.

والظاهر أن التفسير الأخير أكثر ملائمة من البقية، فقد ذكرت خصلتان لأولى الأمر فى ذيل الآية لا يمكن لهما أن تصدقا على غير

المعصوم:

الاولى: ما يقوله تعالى بما معناه: ولو ردوه إلى اولى الأمر لأرشدهم أولئك الذين يعلمون اصول القضايا، وظاهر هذا التعبير أن علمهم غير مختلط بالجهل والشك، وهذا الأمر لا يصدق على غير المعصومين.

والثانية: هي أنه تعالى يعدُّ وجود اولى الأمر نوعاً من الفضل والرحمة الإلهية حيث تحول طاعتهم دون اتباع الناس للشيطان: «وَلَوْ لَّا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِيَّالِقَلِيلًا».

ومن الواضح أن اتباع المعصومين فقط هو الطريق الأمثل والأصوب الذي بإمكانه الحؤول دون ضلال الإنسان واتباعه للشياطين، لأن غير المعصومين ربما يزلون ويقعون في الخطأ والمعصية ويصبحون ألعوبة بيد الشيطان.

لهذا فقد فسّرت (اولى الأمر) في هذه الآية في العديد من الروايات التي وصلتنا عن طرق أهل البيت عليهم السلام وأهل السنة بمعنى الأئمة المعصومين.

ففي روايه ذكرها المرحوم الطبرسي في مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «هم الأئمة المعصومون» (١).

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٨٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨١

ونقرأ في الحديث الذي نقل في تفسير العياشي عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام:

«يعنى آل محمد، وهم الذين يستنبطون من القرآن ويعرفون الحلال والحرام وهم حجة الله على خلقه» (١).

ونقرأ في الحديث الآخر الذي نقل في «كمال الدين» للصدوق عن الإمام الباقر عليه السلام:

«ومن وضع ولاية الله وأهل استنباط علم الله في غير أهل الصفوة من بيوتات الأنبياء فقد خالف أمر الله» (٢).

أما فيما يتعلق بالآية الثانية أي: فهي توعد إلى الجميع بسؤال أهل الذكر عن الامور التي يجهلون بها يقول الله سبحانه: «فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون».

(النحل / ٤٣ والأنبياء / ٧)

فمما لا شك فيه أن الذكر هنا بمعنى العلم والاطلاع، وأهل الذكر تشمل العلماء والمطلعين بشكل عام، وعلى هذا الأساس فقد استدل بهذه الآية بشأن التقليد ورجوع الجاهل للعالم، إلّا أن المصداق الكامل لها هم الذين يستلهمون علمهم من علم النبي صلى الله عليه وآله والبارى جلّ وعلا، فعلمهم علم منزّه من الخطأ والزلل، علمٌ مقترن بالعصمة، لهذا فقد فسرت هذه الآية باهل البيت عليهم السلام والأئمة المعصومين، ففي الرواية الواردة عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام في اجابته عندما سئل عن الآية: «نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون» (٣).

والجدير بالذكر أن نفس هذا المطلب أو ما يقاربه قد نقل عن التفاسير الاثني عشر لأهل السنة، (المراد من التفاسير الاثني عشر، تفسير «أبو يوسف» و «ابن حجر» و «مقاتل بن

(١) تفسير كنز الدقائق، ج ٣، ص ٤٨٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٨٦.

(٣) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٣٦٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٢

سليمان» وتفسير «وكيع بن جراح» وتفسير «يوسف بن موسى القطان» وتفسير «قتادة» وتفسير «حرب الطائي» وتفسير «السدّي» وتفسير

«مجاهد» وتفسير «مقاتل بن حيان» وتفسير «أبي صالح» وتفسير «محمد بن موسى الشيرازي».

فقد روى في هذه التفاسير عن ابن عباس أن المراد من الآية «فأسألوا أهل الذكر هو محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، هم أهل الذكر والعلم والعقل والبيان، وهم أهل بيت النبوة» (١).

وملخص الكلام هو: بالرغم من سعة مفهوم الآية، إلّا أنّ نموذجها الكامل والشامل لا يتصور إلّا في الأئمة المعصومين عليهم السلام المنزه علمهم من الخطأ والزلل، ومن هنا يتضح عدم معارضة نزول الآية بشأن علامات الأنبياء السابقين، والتوراة، والانجيل، والسؤال من علماء اليهود والنصارى مع ما قيل في معنى هذه الآية.

ملاحظة

كما ذكرنا في بحث علم الأنبياء في الجزء السابع من هذا الكتاب، فإنّ الأنبياء المكلفين بهداية الناس في جميع الجوانب المادية والمعنوية، الذين تمتد حدود مسؤولياتهم إلى الجسم والروح والدنيا والآخرة، يجب أن يكونوا على جانب كبير للغاية من العلم ليتسنى لهم انجاز هذا الواجب على أحسن وجه.

والأئمة الذين هم خلفاء النبي يحظون بهذا الحكم أيضاً، فلا بدّ من امتلاكهم لعلم يتناسب مع واجبه العظيم ليطمئن إليهم الناس ويسلمونهم دينهم.

ويجب أن يكون هذا العلم منزهاً من الخطأ والعيب والزلل، وإلّا فإنه لا يحظى بثقة الناس، ويسمح الناس لأنفسهم بتقديم بعض آرائهم على آراء النبي أو الإمام، باعتبار أنّ النبي والإمام يخطئان أيضاً ولا ينبغي التسليم لهما مطلقاً، إذن فالثقة المطلقة تتبع عصمتها. يقول القرآن الكريم بشأن إمام بني اسرائيل «طالوت»: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ

(١) احقاق الحق، ج ٣، ص ٤٨٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٣

بَسْطَةُ فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ». (البقرة / ٢٤٧)

من هنا يقول تعالى في مقابل مزاعم بني اسرائيل الذين كانوا يقولون: إنّ طالوت من أسرة فقيرة ومجهولة، وأنه خالي اليدين من مال الدنيا: أنّ الأساس الحقيقي للحكم الإلهي هو «العلم» و «القدرة» حيث وهبه الله ما يكفيه منهما.

وفيما يتعلق بيوسف عليه السلام عندما يصف نفسه بالأهلية للتصدي لجانب من حكم مصر، أي إدارة بيت المال، فهو يستند إلى العلم والأمانة: «قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ». (يوسف / ٥٥)

بل كما قلنا سابقاً بشأن علم الأنبياء: لا بدّ أن يتمتعوا بجانب من علم الغيب على الأقل ليتسنى لهم القيام بواجبهم على أحسن وجه، وأنّ الذي يصدق بحقهم يصدق بحق الأئمة أيضاً.

إنّ تكليفهم عالمي أيضاً، فلا بدّ أن يكونوا مطلعين على أسرار العالم، وواجبهم مرتبط بالماضي والمستقبل، فكيف يمكنهم أداء رسالتهم جيداً إذا كانوا يجهلون الماضي والمستقبل، وأن يضعوا الخطط لجميع الناس؟

إنّ حدود رسالتهم تشمل ظاهر وباطن المجتمع، والناس، فمن المتعذر انجاز هذه الامور المهمة بدون العلم بالغيب، وهذا ماورد بتعبير لطيف للغاية في حديث الإمام الصادق عليه السلام يقول «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ يَحْتَجُّ بَعْدَ فِي بِلَادِهِ ثُمَّ يَسْتَرُّ عَنْهُ جَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَقَدْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ» (١).

نعم فالعلم بأسرار العالم حالياً وفي الماضي والمستقبل هو في واقع الأمر: السبيل إلى انجاز الرسالة المهمة في هداية البشر والتحول إلى حجة لله تعالى

ومختصر الكلام هو أن أول شرط للتصدي لمقام الإمامة هو العلم والاطلاع والإلمام بجميع العلوم الدينية، وحوائح الناس، وكل ما يلزم في أمر تعليم وتربية وهداية وإدارة المجتمع الإنساني، ومن المستحيل أداء هذه المسؤولية بدون مثل هذا العلم.

(١) بصائر الدرجات وفقاً لنقل بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٣٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٥

مصادر علم الأئمة!

إشارة

من الامور المهمّة الجديرة بالدقّة والاهتمام فيما يتعلق بعلم الأئمة المعصومين عليهم السلام، مصادر علم الأئمة عليهم السلام، إذ من أين يحصل لهم هذا الاطلاع الواسع على امور الدين والدنيا، وبالتسليم بأنّ الوحي لا ينزل عليهم، وأنّ أبواب الوحي بعد وفاة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله قد أوصدت والى الأبد، فكيف يطلعون على مسائل الشريعة ومصالح الإسلام والمسلمين والحقائق المتعلقة بالماضي والمستقبل التي تعتبر ضرورية في أمر هداية الامّة؟

من الممكن معرفته هذه المصادر جيداً من خلال الإشارات التي وردت في آيات القرآن والبيانات المفصلة والواسعة التي جاءت في الروايات.

إنّ هذه المصادر متنوعة وكثيرة نذكر بعضاً منها:

١- العلم الكامل بكتاب الله

بنحو يلمون فيه بمعرفة تفسيره وتأويله وباطنه وظاهره ومحكمه ومتشابهه.

يقول القرآن الكريم: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ». (الرعد / ٤٣)

يتضح من خلال هذه الآية أنّ هناك شخصاً لديه علم الكتاب جميعاً (انتبهوا إلى أنّ علم الكتاب قد جاء بشكل مطلق، وشامل لجميع العلوم المتعلقة بعلم الكتاب، على العكس ممّا ورد في الآية: «قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ». (النمل / ٤٠)

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٦

من المسلّم به أنّ كتاب الله معين لا- ينضب من العلوم، وأنّ العلم به مفتاح لجميع الامور، فعندما يستطيع «أصف بن برخيا» وزير سليمان من القيام بهذا العمل المهم نتيجة لعلمه ببعض الكتاب، ويأتي بعرش ملكة سبأ بطرفه عين من أقصى جنوب الجزيرة العربية (اليمن) إلى أقصى شمالها (الشام مركز حكومة سليمان)، فمن المسلم به أنّ الذي عنده جميع علم الكتاب يستطيع القيام بأعمال أهم من ذلك كثيراً، ولكن من الذي عنده علم الكتاب؟ يشير القرآن الكريم إلى ذلك إشارة غامضة.

فقال البعض: إنّ المراد هو الله تعالى (وعلى هذا سيكون عطف جملة «عنده علم الكتاب» عطفاً تفسيرياً، وهذا يخالف ظاهر الكلام).

كما قال عدد من المفسرين: المراد منه هم علماء أهل الكتاب وأشخاص كسلمان، وعبد الله بن سلام الذين كانوا قد شاهدوا علامات النبي صلى الله عليه وآله في الكتب السماوية السابقة ويشهدون بحقانيته صلى الله عليه وآله.

إلّا أنّ أغلب المفسرين نقلوا في كتبهم أنّ هذه الآية إشارة إلى علي بن أبي طالب عليه السلام وأئمة الهدى عليهم السلام.

يروى المفسر الشهير القرطبي في تفسير هذه الآية عن عبد الله بن عطاء: قلت لأبي جعفر علي بن الحسين عليه السلام: إنّ الناس يظنون

أن الذي عنده علم الكتاب هو عبد الله بن سلام، فقال: «إنما ذلك علي بن أبي طالب رضى الله عنه»، هو علي بن أبي طالب فقط، وكذلك قال محمد بن الحنفية ذلك «١».

والجدير بالذكر أن هذه السورة (سورة الرعد) نزلت في مكة والحال أن عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وسائر علماء أهل الكتاب أسلموا في المدينة.

وقد ورد هذا الكلام عن سعيد بن جبير أيضاً عندما سئل: هل أن «من عنده علم الكتاب» هو عبد الله بن سلام؟ قال: «كيف يكون هو وهذه السورة مكية» «٢»؟

(١) تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣٥٦٥.

(٢) تفسير در المنثور، ج ٤، ص ٦٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٧

كما ينقل الشيخ سليمان القندوزي الحنفي «١» في «ينابيع المودة» عن «الثعلبي» و «ابن المغازلي» عن «عبد الله بن عطاء»: كنت مع محمد الباقر عليه السلام في المسجد ورأيت ولد عبد الله بن سلام فقلت: هذا ابن من عنده علم الكتاب، فقال: هذه الآية بحق علي بن أبي طالب عليه السلام «٢».

وقد رويت في نفس الكتاب رواية أخرى عن عطية العوفى عن «أبي سعيد الخدرى» قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن آية «الذى عنده علم من الكتاب»، فقال صلى الله عليه وآله: هو وزير أخى سليمان، ثم سألت عن آية «قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب»، فقال صلى الله عليه وآله: ذاك أخى علي بن أبي طالب عليه السلام «٣».

ونقرأ أيضاً في رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال: «من عنده علم الكتاب» إنما هو علي عليه السلام، لقد كان عالماً بالتفسير والتأويل والناسخ والمنسوخ «٤».

وملخص الكلام هو: لا يمكن تفسير هذه الآية بعلماء أهل الكتاب ابداً، بسبب نزول هذه السورة الرعد في مكة، وهؤلاء أسلموا بعد الهجرة في المدينة، واستناداً إلى الروايات الآنفه فهى بحق علي عليه السلام ومن بعده تشمل (سائر الأئمة المعصومين عليهم السلام). نعم، فهذا العلم الواسع بالقرآن الكريم وأسراره، ودقائقه، وظاهره وباطنه، هو أحد المصادر الرئيسة لعلم الأئمة المعصومين عليهم السلام «٥».

ومن شواهد هذا المعنى قول الآية الكريمة: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ». (آل عمران / ٧) وللتوضيح ثمة جدل بين المفسرين بأن هل «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» معطوفة على «اللَّهُ» أى ليس هنالك من يعلم تأويل القرآن سوى الله «والراسخون في العلم»، أم أنها مطلع جملة

(١) «قندوز»، مدينة شمال أفغانستان نسب إليها هذا العالم السنّي.

(٢) ينابيع المودة، ص ١٠٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٤) ينابيع المودة، ص ١٠٤.

(٥) وردت عن أهل البيت عليهم السلام روايات عديدة في هذا المجال، فللمزيد من الاطلاع راجعوا تفسير كثر الدقائق، ج ٦، ص ٤٨٠ وتفسير البرهان ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٨

مستقلة؟ وعليه فإن مفهوم الآية يكون هكذا: لا- يعلم تأويل القرآن غير الله، أما الراسخون في العلم فيقولون: وإن كنا لا نعلم تأويل الآيات المتشابهة، إلّا أننا نسلّم أمامها».

وما يؤيد المعنى الأول هو أولاً: من المستبعد أن تكون في القرآن أسرار لا يعلمها إلّا الله فقط، فالقرآن نزل لتربية الناس وهدايتهم، ولا معنى في أن تكون في هذا الكتاب آيات وجمل لا يعلم مقصودها إلّا الله تعالى

ثانياً: كما يقول المفسر الكبير «الطبرسي» في «مجمع البيان»: لا يوجد بين المفسرين من يقول: إن الآية الفلانية لا يعلم معناها إلّا الله، بل إنهم يسعون دائماً لكشف أسرار الآيات بطرق مختلفة، منها أحاديث المعصومين عليهم السلام، وفي الواقع أن هذا الكلام يناقض إجماع المفسرين.

ثالثاً: إذا كان المقصود هو التسليم بدون علم فيجب أن يقال: «الراسخون في الإيمان، لا الراسخون في العلم»، فالذي لا يعرف شيئاً كيف يمكن تسميته راسخاً في العلم؟

رابعاً: جاء في عدّة روايات أن «الراسخون في العلم، يعلمون تأويل القرآن» وهذا دليل على أن هذه العبارة عطف على لفظ الجلالة «الله».

فقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الراسخون في العلم أمير المؤمنين والأئمة من بعده» (١).

وجاء في رواية أخرى عنه عليه السلام أنه قال: نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله» (٢).

ونقرأ في رواية أخرى أيضاً، أن الإمام الباقر عليه السلام (أو الإمام الصادق عليه السلام) قال في تفسير الآية: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ»: «فرسول الله أفضل الراسخين في العلم، قد علمه الله عز وجلّ جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله، وأوصيائه من بعده يعلمونه كله» (٣).

وهناك روايات عديدة أخرى بهذا الصدد تؤيد هذا المعنى المفهوم (٤).

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٢١٣، ح ٣.

(٢) المصدر السابق، ح ١.

(٣) المصدر السابق، ح ٢.

(٤) للمزيد من التوضيح، يراجع كتاب جامع الأحاديث، ج ١، ص ٢٧؛ وتفسير كتر الدقائق، ص ٤٢-٤٥؛ واصل الكافي، ج ١، ص ٤١٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٨٩

من خلال البراهين الأربعة التي ذكرناها آنفاً- وكل برهان منها يكفي لإثبات الغرض- فلا يبقى شك في أن عبارة «والراسخون في العلم» معطوفة على «الله» ومعناها علمهم بالتأويل وباطن الكتاب.

والجدير بالذكر أن التعبير ب «الراسخون في العلم» جاء مرتين في القرآن الكريم، فمرة جاء في الآية محل البحث سورة آل عمران ٧، ومرة في سورة النساء حيث يقول تعالى بعد أن ذم أفعال أهل الكتاب (اليهود والنصارى القبيحة المتمثلة بأكل الربا ونهب أموال الناس:

«لَكِنَّ الرّٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ».

(النساء / ١٦٢)

ويبدو أن الذين ذكروا اسم «عبدالله بن سلام» وأمثاله من علماء أهل الكتاب- الذين أسلموا- في تفسير الراسخين في العلم يقصدون هذه الآية ١٦٢ من سور النساء، لا الآية ٧ من سورة آل عمران، لأن الآية التي تتحدث حول علماء أهل الكتاب الآية الأولى، أما الآية

التي هي محل بحثنا (الآية ٧ من سورة آل عمران) فلا علاقة لها بقضية أهل الكتاب، (تأملوا جيداً). كما تتضح هنا نكتة مهمة أخرى وهي: ما ورد في خطبة الأشباح في نهج البلاغة حيث يقول عليه السلام: «واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم الله عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب لاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب» (١). وربما يكون إشارة إلى آية سورة النساء أيضاً، حيث يتحدث عن تسليم بعض علماء أهل الكتاب والمؤمنين بلا قيد أو شرط أمام القرآن وسائر الكتب السماوية، لا الآية من سورة آل عمران (تأملوا جيداً كذلك). وملخص الكلام أن ظاهر الآية ٧ من سورة آل عمران يقول: إن الله والراسخين في العلم يعلمون تأويل القرآن، ونظراً إلى أن المقصود من الراسخين في العلم هم النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومون عليهم السلام بالدرجة الأولى إذن يُعرف أحد مصادر علمهم وهو القرآن الكريم وتأويله وتفسيره وظاهره وباطنه.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩١ (خطبة الأشباح).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٠

ونختتم هذا الحديث بإشارة أخرى إلى آيات القرآن الكريم فنقرأ في الآية: «يَلْهُوْا بِآيَاتِ بَيِّنَاتٍ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ». (العنكبوت / ٤٩)

ففي مصادر أهل البيت عليهم السلام تلاحظ روايات كثيرة بصدد تفسير جملة «الذين أوتوا العلم» في هذه الآية بالأئمة المعصومين بعد النبي صلى الله عليه وآله.

وللمزيد من الاطلاع راجعوا بحار الأنوار وتفسير البرهان (١).

٢- الوراثة من النبي صلى الله عليه وآله

المصدر الثاني من مصادر علوم الأئمة المعصومين عليهم السلام هو الوراثة من النبي صلى الله عليه وآله، بمعنى أن النبي صلى الله عليه وآله قد علم علماً عليه السلام جميع العلوم وشرائع الإسلام، واستناداً إلى بعض الروايات فإن علماً عليه السلام قد كتب ذلك في كتاب بخط يده وانتقل هذا العلم إلى أولاده أي الأئمة المعصومين عليهم السلام نسلاً بعد نسل. أو بتعبير آخر - كما ورد في الروايات - أن النبي صلى الله عليه وآله علم علماً عليه السلام ألف باب من العلم يفتح من كل باب ألف باب.

وقد احتوى في كتاب الكافي على روايات عديدة في هذا المجال، منها ما نقرأه في حديث عن أبي بصير حيث يقول: سألت الإمام الصادق عليه السلام إن شيعتكم يقولون: إن رسول الله صلى الله عليه وآله علم علماً عليه السلام باباً من العلم يفتح منه ألف باب، قال الإمام عليه السلام: «علم رسول الله علماً ألف باب يفتح من كل باب ألف باب».

ثم قال عليه السلام: «يا أبا بصير! ان عندنا الجامعة ... قلت وما الجامعة؟ قال: صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله واملائه، من فلق فيه، وخط على يمينه، فيها كل حلال وحرام، وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى الارش من الخدش» (٢). والجدير بالذكر أنه قد وردت روايات لا حصر لها في اشهر كتب السنة والشيعه حول

(١) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ١٨٨-٢٠٨؛ وتفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٥٤-٢٥٦ (لقد روى في هذين الكتابين ما يقارب عشرين حديثاً بهذا الصدد).

(٢) اصول الكافي، ج ١، ص ٢٣٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩١

الحديث المعروف ب «مدينة العلم» ومن جملة رواة هذا الحديث «ابن عباس» و «جابر بن عبد الله» و «عبد الله بن عمر» و «علي عليه السلام».

ومن الذين نقلوا هذا الحديث في كتبهم هم «الحاكم النيسابوري» في «المستدرک»، و «أبو بكر النيشابوري» في «تاريخ بغداد» و «ابن المغازلي» في «مناقب أمير المؤمنين عليه السلام»، و«الكنجي» في «كفاية الطالب» و «الحمويني» في «فرائد السمطين» و «الذهبي» في «ميزان الاعتدال» و «القدوزي» في «ينابيع المودة» و «النبهاني» في «الفتح الكبير» و طائفة أخرى «١».

ونقرأ أيضاً في عدّة روايات بصريح القول أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يقولون: ما نقله بإمكانك أن تنقله عن رسول الله صلى الله عليه وآله، لأننا سمعنا كل ذلك عن أجدادنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله!

فقد سأل أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام: ربّما نسمع حديثاً منك، ثم نشك في هل أننا سمعناه منك أم من أبيك؟ فقال عليه السلام: «ما سمعته منّي فاروه عن أبي، وما سمعته من أبي فاروه عن رسول الله صلى الله عليه وآله» «٢».

ويقول في مكان آخر أيضاً: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين عليه السلام وحديث أمير المؤمنين عليه السلام حديث رسول الله صلى الله عليه وآله و آله وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ» «٣».

وجاء عنه عليه السلام في رواية أخرى حيث قال بصريح العبارة: «مهما اجبتك فيه بشيء فهو من رسول الله لسنا نقول برأينا من شيء» «٤».

(١) للمزيد من الاطلاع راجعوا احقاق الحق، ج ٥، ص ٤٦٨-٥٠١ وللاطلاع على مصادر هذا الحديث في كتب الشيعة راجعوا كتاب جامع الأحاديث، الطبعة القديمة، ص ١٦ وما بعدها.

(٢) جامع الأحاديث، ج ١، ص ١٧، ح ٤، باب حجية فتوى الأئمة.

(٣) المصدر السابق، ح ١.

(٤) المصدر السابق، ح ٧ (وتوجد أحاديث أخرى أيضاً بهذا الصدد في نفس الكتاب).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٢

٣- الاتصال بالملائكة

من مصادر علم الأئمة، اتصالهم بالملائكة، لا بمعنى أنّهم كانوا من الأنبياء والرسل، فإننا نعلم أنّ نبي الإسلام صلى الله عليه وآله كان خاتم الأنبياء والرسل، وبوفاته انقطع الوحي، بل إنّهم كانوا ك «الخضر» و «ذو القرنين» و «مريم»، حيث كانوا على اتصال بالملائكة بناءً على ظاهر آيات القرآن، وكانت الحقائق تلقى في قلوبهم من خلال عالم الغيب.

جاء عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ علياً كان مُحدّثاً؟» وعندما طلبوا منه عليه السلام معرفة من يُحدّثه قال: يُحدّثه ملك، ولما سأله: هل كان نبيّاً؟ فأوماً بيده بالنفي والانكار، ثم أضاف: كصاحب سليمان، أو كصاحب موسى أو كذو القرنين «١»، (هناك روايات عديدة أيضاً بهذا المجال) «٢».

٤- إلقاء روح القدس

المصدر الرابع لعلم الأئمة هو فيض روح القدس.

وتوضيح ذلك: إن الحديث قد تكرر في آيات القرآن عن تأييد «روح القدس» فقد ورد ثلاث مرات بشأن المسيح عليه السلام، (البقرة/ ٨٧ و ٢٥٣ والمائدة/ ١١٠) ومرة واحدة بشأن النبي صلى الله عليه وآله (البقرة/ ١١٠).
فمن هو أو ما هو «روح القدس»؟ ثمّة جدل كثير بين المفسرين، فقد فسّره جماعة من المفسرين بـ «جبرائيل»، وفسّر بالروح المقدسة الطاهرة للمسيح عليه السلام، أو بمعنى الانجيل الذي انزل عليه، وتارة قالوا: إن المراد هو اسم الله الأعظم الذي كان المسيح يحيى به الموتى «٣».

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٢٧١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) جاءت هذه المعاني الأربعة في تفسير كنز الدقائق، ج ٢، ص ٧٨، ولكن في بعض التفاسير المعروفة ذكر التفسير الأول فقط، واكتفى في تفسير الكبير بذكر ثلاثة معانٍ وهي، جبرئيل، والانجيل، والاسم الأعظم (تفسير الكبير، ج ٣، ص ١٧٧).
نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٣

ولكن يستفاد من تعبير القرآن الكريم، وكذا مختلف الروايات، أن روح القدس له عدّة معانٍ وربما يحمل معنى خاصاً في كل مكان، ففي إحدى آيات القرآن الكريم: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ» (النحل / ١٠٢)

يعنى بحسب الظاهر «جبرئيل» الذي كان ينزل بالقرآن على النبي صلى الله عليه وآله من قبل الله تعالى

لكن يبدو أنه يحمل مفهوماً آخر في الموارد الثلاثة الأخرى والتي جميعها بحق المسيح عليه السلام، فالتعبير «إذ أيدتك بروح القدس» - أو - «وأيدناه بروح القدس» يدل على أنه إشارة إلى الروح التي كانت ترافق المسيح عليه السلام وتؤيده وتسده.

ويفهم من الروايات التي وردت في مصادر أهل البيت عليهم السلام أن روح القدس هي الروح التي كانت مع الرسل والأنبياء والمعصومين عليهم السلام دائماً، وكانت تنقل إليهم الامدادات الغيبية في مختلف الحالات، بل يستفاد من الروايات العديدة التي وردت في مصادر السنّة أيضاً، أنهم كانوا يصفون الكلام أو الشعر ذي المغزى الذي يصدر عن شخص ما: «كان هذا بتأييد من روح القدس».

ومن هذا الكلام ما نقرأه في الرواية الواردة في تفسير الدر المنثور أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال بحق الشاعر الإسلامي المعروف «حسان بن ثابت»: «اللهم أيد حسناً بروح القدس كما دافع عن نبيه» (١).

ونقرأ بشأن شاعر أهل البيت المعروف «الكميت بن زيد الأسدي» أن الإمام الباقر عليه السلام قال له: كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله لحسان بن ثابت، «لن يزال معك روح القدس ما ذيّبت عنّا» (٢).

وورد في رواية أخرى أن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام بكى كثيراً عندما أنشده الشاعر دعبل الخزاعي بعض أبيات قصيدته المعروفة «مدارس آيات» ثم قال له: «نطق

(١) تفسير در المنثور، ج ١، ص ٨٧ (ذيل الآية ٨٧ من سورة البقرة) وجاء في صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٩ و ٣٢ باب فضائل حسان بن ثابت ما يشبه هذا المضمون.

(٢) سفينة البحار، ج ٢، ص ٤٩٥٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٤

روح القدس على لسانك بهذين البيتين» (١).

من هنا يتضح جيداً أن «روح القدس» روح معينة تعين الإنسان أثناء ادائه للأعمال المعنوية الإلهية، وبطبيعة الحال فإنها متفاوتة بتفاوت

مراتب الأشخاص، فهي لدى الأنبياء والأئمة المعصومين تكون فعالة وتعمل بشكل استثنائي وأكثر وضوحاً، ولدى الآخرين تكون وفقاً لقبلياتهم وإن كنا نفتقد العلم بماهيتها وتفصيلها.

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ»
(الواقعة/ ١٠-١١)

فقال: «السابقون هم رسل الله عليهم السلام وخاصة الله من خلقه، جعل فيهم خمسة أرواح، أيدهم بروح القدس فبه عرفوا الأشياء...»
«٢».

وجاء في رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام بهذا الصدد حيث قال بعد تعداده للأرواح الخمسة الموجودة لدى الأنبياء والأوصياء: «فروح القدس .. عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى» (٣).

وهناك روايات كثيرة أخرى بهذا المجال في أصول الكافي وسائر الكتب، حيث لا يسع المجال لشرحها هنا. نعم فالإمداد الإلهي عن طريق روح القدس مصدر آخر من مصادر علم المعصومين عليهم السلام.

٥- النور الإلهي

المصدر الخامس الذي يمكن ذكره لعلوم الأئمة هو ماورد في العديد من الروايات في أصول الكافي، منها ما يقوله «حسن بن راشد»: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: «... فاذا

(١) كشف الغمة، ج ٣، ص ١١٨؛ واعلام الوري ص ٣٣١، وذانك البيتان هما، خروج إمام لا- محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات

يميز فينا كل حق وباطل ويجزى على النعماء والنقمة

(٢) اصول الكافي، ج ١، ص ٢٧١.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٥

مضى الإمام الذي كان قبله رفع لهذا منار من نور ينظر به إلى أعمال الخلاق فهذا يحتاج الله على خلقه» (١).

وورد في بعض الروايات أيضاً ب «عمود من نور» (٢)، «إلما أنه غالباً ما جاء تعبير «منار من نور»، وبالطبع ليس هنالك تباين كثير بين هذين التعبيرين.

وللمزيد من الاطلاع راجعوا بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٣٢، إذ ينقل المرحوم العلامة المجلسي ستة عشر رواية بهذا الصدد، وكذلك وردت روايات عديدة في هذا المجال في باب «عرض الأعمال» (ج ٢٣، ص ٣٣٣ وما بعدها).

يستفاد من مجموع ما قيل إن مصادر علم الأئمة المعصومين عليهم السلام متعددة ومتنوعة، ويأتي علمهم بجميع معاني القرآن الكريم بالدرجة الأولى، وفي الدرجة الثانية تأتي العلوم التي يرثونها عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ويليها التسديد والتأييد الإلهي، والالهامات القلبية والاتصال بالملائكة وعالم الغيب.

ومن فيض هذه المصادر يقتبس الأئمة المعصومون علوماً ومعارف كثيرة ليتسنى لهم إنجاز مهمتهم التي تتجسد في المحافظة على الإسلام والقرآن وسنة النبي صلى الله عليه وآله وهداية الخلق نحو الخالق، وتربية النفوس وإقامة الحدود وتدبير الامور على أحسن وجه.

والملاحظة الأخرى الجديرة بالاهتمام هي أنه يستفاد من بعض الروايات أن أرواح الأئمة عليهم السلام تستلهم كل ليلة جمعة علوماً

ومعارف جديدة بصدد القضايا المستجدة، وذلك من قبل الله تعالى (لينسجموا مع متطلبات الأمة الإسلامية).
منها ما نقرأه في الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «إن لنا في كل ليلة جمعة سروراً».

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٣٨٧، ح ٢.

(٢) المصدر السابق، ح ٤.

نقحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٦

يقول الراوي فقلت: زادك الله وما ذاك؟

قال عليه السلام: «إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول الله العرش ووافى الأئمة معه، فلا تُرَدُّ أرواحنا إلى أبداننا إلا بعلم مستفاد، ولولا ذلك لأنفدنا» (١).

وتشاهد روايات عديدة في هذا البحث بهذا الصدد أيضاً يطول شرحها هنا.

نظراً إلى ما ذكرناه في هذا الفصل يتضح أن مصادر علم الأئمة ليست أمراً بسيطاً، فالمصادر التي يمتلكونها هي التي تميزهم عن سائر الناس، وتعينهم في أدائهم للمسؤوليات المهمة التي يتحملونها في المحافظة على الإسلام وتعاليم القرآن وهدايته العباد.

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٢٥٤ (باب في أن الأئمة عليه السلام يزدادون في ليلة الجمعة).

نقحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٧

عصمة الأئمة عليهم السلام

تمهيد:

التوقي من الخطأ والسهو والمعصية شرط آخر من الشروط العامة للأئمة المعصومين، وفي الحقيقة أن القرائن كافة التي تدل على عصمة الأنبياء عليهم السلام تدل على عصمة الأئمة عليهم السلام أيضاً، لأن مسؤوليتهم تتشابه إلى حد كبير.
صحيح أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الواضع لأسس الشريعة ويتصل بعالم الوحي، أما الأئمة فهم بمثابة الامتداد لوجود النبي صلى الله عليه وآله وهم حماة حراس الشريعة بالرغم من عدم نزول الوحي عليهم، لأنهم يتبعون أثر النبي صلى الله عليه وآله في هداية الناس، والدفاع عن الأحكام والحدود الإلهية وجميع ما يتعلق بالشريعة، من هنا فهم يشتركون في الكثير من الصفات ويتشابهون فيما بينهم.

بناءً على ذلك فإن جميع الأدلة الرئيسة التي ذكرناها في بحث عصمة الأنبياء (١) تصدق فيما يتعلق بالأئمة أيضاً.

بعد هذه اللمحة المختصرة نرجع إلى بعض آيات القرآن الواردة بهذا الصدد ونبدأ بالكلام من القرآن:

١- «أَتَمَّا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُدْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً». (الأحزاب / ٣٣)

(١) للمزيد من الايضاح راجعوا ج ٧، ص ١٤٥ - ١٦٠ من هذا التفسير.

نقحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٨

في البحوث السابقة وأثناء تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة، قرأنا ما يتعلق بعظمة مقام الإمامة والولاية في قصة إبراهيم عليه السلام حيث أن الله تبارك وتعالى قد أخضع هذا النبي العظيم إلى العديد من الاختبارات المهمة، ولما خرج منها ظافراً قال له: «أَنْتَى جَاعِلُكَ

لِلنَّاسِ أَمَامًا» (فالإمامة تعنى الهيمنة على الجسم والروح، وتربية النفوس والمجتمعات البشرية).

وعندما سأل إبراهيم عليه السلام هذا المقام لبعض ذريته وأبنائه، جوبه بالرد الإلهي المشروط، فقال تعالى: «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ»، أى (أنّ الرهط الطاهر والمعصوم من أبنائك يستحقون هذا المقام فقط).

وقد تبين في تلك البحوث كيف أنّ هذا المقطع من الآية دليل على عصمة الأئمة، وأنّ الذين أمضوا عمرهم في طريق الكفر والشرك من ناحية الاعتقادات، أو من ناحية أعمالهم حيث ارتكبوا الظلم بحق أنفسهم أو الآخرين، لا يستحقون هذا المقام، لأنّ الظلم بالمعنى الشامل للكلمة يشمل الظلم والشرك والكفر والانحرافات العقائدية، وكذلك جميع أشكال التجاوز على الآخرين، وظلم النفس عن طريق ارتكاب المعصية.

وحيث إنّ هذه البحوث قد جاءت هناك بشكل مفصل ومستفيض فلا نرى حاجة للتكرار، وعليه فقد وضع القرآن الكريم الركيزة الأساسية لشروط عصمة الأئمة في هذه الآية الكريمة.

والآن نعود إلى آية التطهير وبحث مسألة العصمة الواردة في هذه الآية:

صحيح أنّ هذه الآية تتوسط الآيات المتعلقة بنساء النبي صلى الله عليه وآله إلّا أنّها تحمل نغمة مختلفة عنها، وتشير إلى معنى آخر، فجميع الآيات التي سبقتها وتلتها جاءت بضمير «جمع المؤنث» بينما جاءت الآية محل البحث بضمائر «جمع المذكر»!

ففي مستهل هذه الآية خاطب تعالى نساء النبي صلى الله عليه وآله وأمرهنّ بالمكوث في بيوتهن، وأن لا يخرجن بين الناس كما كان سائداً في الجاهلية، ويحافظن على معايير العفة، وأن يقمن الصلاة ويؤتينا الزكاة ويطعن الله ورسوله «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ». (الاحزاب / ٣٣)

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٩٩

فجميع الضمائر الستة التي وردت في هذا المقطع من الآية هي على صورة جمع المؤنث (تأملوا جيداً).

ثم يتبدل لحن الآية، ويقول: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا».

وقد استخدم في هذا المقطع من الآية ضميرين جمع بصورة جمع المذكر.

صحيح أنّ مطلع ونهاية كل آية يستهدف امراً واحداً، إلّا أنّ هذا الكلام يجرى في المكان الذي لا تتوفر فيه قرينه على الخلاف، وعلى هذا فالذين رأوا أنّ هذا الجانب من الآية ناظرٌ إلى نساء النبي صلى الله عليه وآله أيضاً فقد نطقوا خلافاً لظاهر الآية والقرينة التي فيها، أى تباين الضمائر.

بالإضافة إلى ذلك نمتلك روايات عديدة فيما يتعلق بهذه الآية حيث نقلها أكابر علماء المسلمين سواء الشيعة أم السنة عن النبي صلى الله عليه وآله وجاءت بشكل وآخر في أشهر كتب الفريقين التي تحظى بقبولهم.

هذه الروايات بأجمعها تفيد أنّ المخاطب في هذه الآية هو النبي صلى الله عليه وآله وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام (لا نساء النبي) كما سيأتى بالتفصيل فيما بعد.

ولكن قبل الدخول في البحث لابدّ من التطرق إلى تفسير العبارات:

إنّ التعبير بـ «إِنَّمَا» الذي عادة ما يستعمل للحصر دليل على أنّ الموهبة الواردة في هذه الآية تخص آل النبي صلى الله عليه وآله ولا تشمل غيرهم.

وعبارة «يريد» إشارة إلى إرادة الله التكوينية - أى أنّ الله تعالى شاء من خلال أمر تكويني أن يطهركم ويحفظكم من كل قذارة - لا الإرادة التشريعية، فالإرادة التشريعية تعنى تكليفهم بصيانته أنفسهم طاهرة، ونحن نعلم أنّ هذا التكليف لا يختص بآل الرسول صلى الله عليه وآله بل إنّ المسلمين جميعاً مكلفون بتطهير أنفسهم.

ربّما يتصور أنّ الإرادة التكوينية تفرض نوعاً من الجبر، وفي هذه الحالة لن تكون العصمة فضيلة وفخراً.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٠

نفحات القرآن ج ٩، ص: ١٤٩

لقد ذكرنا الاجابة عن هذا السؤال بالتفصيل فى الجزء السابع فى بحث عصمة الأنبياء، ولا بد من التعرض إليه باختصار: إن المعصومين يمتلكون نوعين من القابلية «قابلية ذاتية موهوبة» و «قابلية اكتسابية» من خلال أعمالهم وملكاتهم الداخلية، ومن مجموع هاتين القابليتين اللتين لا تخلو إحداها على أقل تقدير من صبغة اختيارية لتحصيل هذا المقام السامى، وتعبير آخر فإن المشيئة الإلهية توفر الأرضية للتوفيق من أجل بلوغ هذا المقام الشامخ، واستثمار هذا التوفيق يتعلق بإرادتهم (تأملوا جيداً).

فترك الذنب بالنسبة لهم محال عادى لا عقلى، فمثلاً، محال عادى أن يصطحب إنسان عالم ومؤمن الخمر إلى المسجد ويحتسيه بين صفوف الجماعة، إلا أنه من المسلم به أن هذا الأمر ليس محالاً عقلياً، ولا يتعارض مع كون هذا الفعل اختيارياً، أو على سبيل المثال، أن الإنسان العاقل لا يخرج إلى الزقاق والشارع عارياً كما ولدته امه أبداً، فالقيام بهذا العمل ليس محالاً بالنسبة له، بل مستوى تفكيره ومعرفته لا يسمح له بالقيام بمثل هذا الفعل وإن كان فعله وتركه باختياره.

وهكذا حالة ارتكاب الذنوب بالنسبة للأنبياء والأئمة، صحيح أن العصمة من الألفاظ الإلهية، بيد أن الألفاظ الإلهية تخضع لحساب، كما يقول القرآن الكريم بشأن إبراهيم عليه السلام:

لن ننال منزلة الإمامة ما لم تفلح فى الابتلاءات الإلهية «وَأَذِ ابْتُلِيَ إِبرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ...» (١).

(البقرة/ ١٢٤)

وأما كلمة «الرجس» فتعنى لغَةً، الشىء القدر سواء من ناحية كونه قدراً ومقززاً لطبع الإنسان، أو بحكم العقل، أو الشرع، أو جميعها. من هنا فبعد أن يفسر «الراغب» فى «المفردات» الرجس بأنه الشىء القدر، يذكر له أربع حالات (نفس الحالات الأربع التى ذكرت أعلاه من ناحية طبع الإنسان، أو العقل، أو الشرع، أو جميعها)، وإذا ما فسر الرجس فى بعض تعابير العلماء بالذنب أو «الشرك» أو

(١) للمزيد من الايضاح فى مجال أن العصمة لا تتنافى واختيارية أفعال المعصومين راجعوا، ج ٧، ص ١٥٥ وما بعدها من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠١

«العقيدة الباطلة» أو «البخل والحسد» فهو فى الحقيقة بيان لمصاديق من هذا المفهوم الواسع الشامل.

على أية حال، نظراً لمجىء «الف ولام الجنس» فى بداية هذه الكلمة «الرجس» والثى تفيد العموم، يكون مفهوم الآية: إن الله شاء أن يبعد كل أنواع الرجس عنهم.

وفى عبارة: «ويطهركم تطهيراً»، فيما أن «التطهير» تعنى التركيبية فهى تمثل تأكيداً آخر على قضية نفى الرجس وكافة الاقدار التى وردت فى العبارة السابقة، وكلمة «تطهيراً» التى هى بعنوان مفعول مطلق فهى تأكيد آخر على هذا المعنى والنتيجة: هى أن الله تعالى شاء وبمختلف التأكيدات أن يطهر ويُنزه آل النبى صلى الله عليه و آله من كل أشكال القذاره والرجس، ومن المسلم أنه يشمل النبى صلى الله عليه و آله بالمرتبة الاولى باعتبارها صاحب الدار ومن ثم البقية، والآن لنعرف من هم أهل البيت؟

مَنْ هم أهل البيت؟

رأى بعض من مفسرى أهل السنّة أن ذلك يعنى نساء النبى صلى الله عليه و آله، ولكن كما قلنا فإنّ تغيير سياق الآية، وتبديل الضمائر من «جمع المؤنث»- فيما قبل وبعد هذه الآية- إلى «جمع المذكر» دليل يبيّن على أن لهذه العبارة مضمونا منفصلاً، وأن المراد منها أمر آخر، أليس الله حكيماً والقرآن فى أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة وجميع عباراته تخضع للحساب.

وطائفة اخرى من المفسرين خصتها بالنبى وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، والروايات الكثيرة الواردة فى مصادر أهل

السنة والشيعه والتي نشير إلى بعضها لاحقاً شاهد على هذا المعنى

وبسبب وجود هذه الروايات ربما ذكر الذين لا يحصرون الآية بهؤلاء العظماء معني واسعاً لها بحيث يشملهم ويشمل نساء النبي صلى الله عليه وآله وهذا تفسير ثالث للآية.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٢

أمّا الروايات التي تدل على اختصاص الآية بالنبي صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام وسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام وابنيهما الحسن والحسين عليهما السلام فهي - وكما أشرنا - كثيرة للغاية، منها ثمانية عشرة رواية، نقلت خمس منها في تفسير «الدر المنثور» عن ام سلمة، وثلاث عن أبي سعيد الخدري، وواحدة عن عائشة، وواحدة عن انس، واثنان عن ابن عباس، واثنان عن أبي الحمراء، وواحدة عن وائل بن الاسقع، وواحدة عن سعد، وواحدة عن الضحاک بن مزاحم، وواحدة عن زيد بن الأرقم «١».

ويحصى المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير «الميزان» الروايات التي وردت بهذا الصدد بما يربو عن سبعين رواية ويقول: وهي روايات جمّة تزيد على سبعين حديثاً يربو ما ورد منها من طرق أهل السنة على ما ورد منها من طرق الشيعة، ويضيف رواة آخرين سوى الذين ذكرناهم أعلاه (الرواة الذين ذكرت رواياتهم في غير تفسير الدر المنثور).

وذكر البعض أنّ عدد الروايات والكتب التي نقلت فيها بلغ المئات ولا يُستبعد أن يكون كذلك.

وهنا نذكر طائفة من هذه الروايات فقط مع ذكر مصادرها ليتبين قول الواحد في «أسباب النزول»: أنّ الآية نزلت في النبي صلى الله عليه وآله وعلی وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم «٢».

ويمكن اختصار هذه الروايات في أربعة أقسام:

١- الروايات التي نقلت عن بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله تقول بصريح التعبير: عندما كان النبي صلى الله عليه وآله يتحدث عن هذه الآية سألتنا هل نحن منهم؟ فقال: «لا ولكنكم على خير».

منها ما يرويه الثعلبي في تفسيره عن «ام سلمة» زوجة النبي صلى الله عليه وآله أنّ النبي كان في بيتها وجاءته فاطمة عليها السلام بالطعام، فقال لها صلى الله عليه وآله: «ادع لي بعلك وابنيك» فجاؤا وفتناولوا الطعام ثم نشر صلى الله عليه وآله عليهم الكساء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وعترتي فأذهب عنهم الرجس

(١) تفسير در المنثور، ج ٥، ص ١٩٦ و ١٩٩.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٣١١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٣

وطهّهم تطهيراً، ونزلت آية «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ...» فقلت يا رسول الله وأنا معكم؟! فقال: «إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ» «١».

وكذلك الثعلبي وهو من العلماء المعروفين لدى أهل السنة الذي عاش في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، وتفسيره الكبير معروف، يروي عن عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وآله ما يلي:

عندما سئلت عن حرب الجمل ودورها في تلك الحرب المدمرة، قالت (بتأسف): لقد كان تقديراً إلهياً! وعندما سئلت عن علي عليه السلام قالت:

«تسألني عن أحب الناس كان إلى رسول الله، وزوج أحب الناس كان إلى رسول الله، لقد رأيت علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً وجمع رسول الله صلى الله عليه وآله بثوب عليهم، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وحامتي فأذهب عنهم الرجس وطهّهم تطهيراً. قالت: فقلت يا رسول الله أنا من أهلك؟ قال: تنحي فإنك إلى خير» «٢».

فمثل هذه الروايات تؤكد بصراحة أنّ نساء النبي صلى الله عليه وآله لم يكن من أهل البيت في هذه الآية.

٢- وردت قصة حديث الكساء في روايات كثيرة للغاية وبتعابير مختلفة والمضمون المشترك لها جميعاً هو أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعا علياً عليه السلام وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام- أو أنهم حضروا عند رسول الله صلى الله عليه وآله- أو أنه غطاهم بالكساء أو بقماش، وقال: إلهي هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس، فنزلت الآية: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».

والجدير بالاهتمام أن هذا الحديث روى في صحيح مسلم عن «عائشة»، وكذلك نقله الحاكم في «المستدرک»، والبيهقي في «السنن»، وابن جرير في «تفسيره»، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣).

(١) ذكر الطبرسي في مجمع البيان في ذيل الآية مورد البحث، والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٥٦، الحديث أعلاه.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية محل البحث.

(٣) صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٨٣، ح ٢٤٢٤ (باب فضائل أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٤

وأورده الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل أيضاً (١)، كما نقل هذا الحديث في صحيح «الترمذی» مراراً، ففي موضع رواه عن «عمرو بن أبي سلمة» وفي موضع آخر عن «ام سلمة» (٢).

والملاحظة الأخرى هي أن «الفخر الرازي» يضيف في ذيل آية المباهلة (سورة آل عمران، الآية ٦١) بعد نقله لهذا الحديث (حديث الكساء):

واعلم أن هذه الرواية كالمتمفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث (٣).

كما يجدر ذكر هذه الملاحظة وهي: أن الإمام «أحمد بن حنبل» أورد هذا الحديث في مسنده بطرق مختلفة (٤).

٣- نقرأ في جانب آخر من الروايات العديدة والكثيرة أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله وبعد نزول آية التطهير كان يمر على دار فاطمة عليها السلام ولعدّة أشهر «في بعضها ستة أشهر، وفي بعضها ثمانية أو تسعة أشهر» أثناء ذهابه لصلاة الصبح وينادي: «الصلاة يا أهل البيت! إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».

وروى هذا الحديث في «شواهد التنزيل» للمفسر الشهير «الحاكم الحسكاني» عن «انس بن مالك» (٥).

وجاء في نفس الكتاب رواية أخرى عن «أبي الحمراء» يذكر فيها أن المدّة كانت «سبعة

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣٣، ح ٣٧٦.

(٢) صحيح الترمذی، ج ٥، ص ٦٩٩، ح ٣٨٧١ (باب فضل فاطمة).

(٣) تفسير الكبير، ج ٨، ص ١٠٥، ٨٠.

(٤) مسند أحمد، ج ١، ص ٣٣٠، ج ٤، ص ١٠٧، ج ٦، ص ٢٩٢ (نقلًا عن فضائل الخمسة، ج ١، ص ٢٧٦ وما بعدها).

(٥) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ٩٢ (انتبهوا إلى أن شواهد التنزيل نقل هذه الرواية بطرق عديدة).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٥

أشهر».

ورويت هذه الواقعة أيضاً في نفس الكتاب عن «أبي سعيد الخدري» ذاكراً أن المدّة كانت «ثمانية أشهر» (١).

إن الاختلاف في هذه التعابير أمر طبيعي، فربما شاهد أنس هذا الأمر لمدّة ستة أشهر، وأبو سعيد الخدري لمدّة ثمانية أشهر، وأبو الحمراء لمدّة سبعة أشهر وابن عباس تسعة أشهر (٢).

فكل منهم نقل ما رآه، فلا تضارب بين كلامهم.

على أئمة حال، فاستمرار هذه الحالة وتكرار هذا الكلام خلال تلك الفترة الطويلة من قبل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان أمراً مخططاً له، فهو كان يريد أن يُبين بوضوح أنّ المراد من «أهل البيت» هم أهل هذه الدار فقط، لئلا يبقى شك بالنسبة لأي شخص في المستقبل، ولتعلم الجميع أنّ هذه الآية نزلت بحق هذه الزمرة فقط، والعجيب أنّ القضية بالرغم من هذا التكرار والتأكيد بقيت غامضة بالنسبة للبعض.

لاسيما وأنّ الدار الوحيدة التي كانت بابها مفتوحة على مسجد النبي صلى الله عليه وآله هي دار النبي صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام، (فقد أمر النبي صلى الله عليه وآله بإغلاق جميع الأبواب التي كانت تفتح على المسجد ماعدا هاتين البابين). ويذكر أنّ الكثير من الناس طالما سمعوا هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أثناء الصلاة، وبعد هذا التأكيد والإثبات ليس من المدهش أن يصير بعض المفسرين على سعة مفهوم الآية لتشمل نساء النبي صلى الله عليه وآله أيضاً، مع ما أوردناه سابقاً من حديث عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وآله واستناداً إلى شهادة التاريخ حيث أنّها لم تدع شيئاً أثناء ذكرها لفضائلها وتفصيل حياتها مع النبي صلى الله عليه وآله، فهي لم تر نفسها غير مشمولة بهذه الآية فحسب، بل تقول: إنّ النبي قال لي: «لست منهم»!

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٨؛ واحقاق الحق، ج ٢، ص ٥٠٣ إلى ٥٤٨.

(٢) تفسير در المنثور، ج ٥، ص ١٩٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٦

٤- الروايات العديدة المروية عن الصحابي المعروف أبي سعيد الخدري التي أشارت إلى آية التطهير تقول بصراحة: نزلت في خمسة: في رسول الله وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام «١». وملخص الحديث هو: إنّ الروايات التي وردت في المصادر الإسلامية بشأن آية التطهير واختصاصها بالنبي وعلى وفاطمة والحسن والحسين من الكثرة بحيث يجعلها في صف الروايات المتواترة، ولا يبقى فيها أدنى شك من هذه الناحية، حيث إنّ صاحب شرح إحقاق الحق ينقلها عن ما يربو على سبعين مصدراً من مصادر أهل السنة (بالإضافة إلى المصادر المعروفة لدى أتباع أهل البيت) ويقول: «لو أحصينا كافة هذه المصادر لتجاوزت الألف» «٢»!

أجابه عن عدّه أسئلة:

نظراً إلى أنّ الآية الآنفه الذكر التي تواترت الروايات في المصادر الإسلامية المعروفة في تفسيرها، تعد كرامة عظيمة لأئمة أهل البيت عليهم السلام يمكن اعتبارها دليلاً على حقانية خطهم، وقد تشبث بعض العلماء وأخذوا كالعادة بالبحث عن إشكالات أشبه ما تكون باختلاق المبررات بعيداً عن الانتقاد العلمي، بينما أيقنت طائفة أخرى بالآية والروايات بشجاعة، وإن ظلوا أتباعاً لطريقة أهل السنة من الناحية الاصولية، وفيما يلي بعض الانتقادات:

١- المراد من أهل البيت هم الساكنون في بيت النبي صلى الله عليه وآله، لأنّ البيت يعنى الدار المسكونة، وسكنه بيت النبي صلى الله عليه وآله هو نساؤه، وليس الآخرون، وإذا ما جاء الضمير على صورة ضمير المذكر فالسبب يعود إلى أنّ لفظ «الاهل» مذكر، وإذا ما جاء البيت بصيغة المفرد لا الجمع، بينما نساء النبي صلى الله عليه وآله كنّ يسكنن في بيوت عديدة، فذلك بسبب أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان واحداً، فذكر بيته بصفة الواحد أيضاً، والخلاصة أنّ الآية ناظرة إلى نساء النبي صلى الله عليه وآله فقط.

(١) وردت في شواهد التنزيل أربع روايات بهذا الصدد، ج ٢ من ص ٢٤-٢٧ (ح ٦٥٩ و ٦٦٠ و ٦٦١ و ٦٦٤).

(٢) اقتباساً من احقاق الحق، ج ٢، ص ٥٠٢ إلى ٥٦٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٧

لقد اتضحت الاجابة جيداً عن هذا السؤال أو التبرير من خلال الأبحاث السابقة، وآثار التكلف أثناء الدفاع عن هذا الرأي مشهودة تماماً، فلو كان المقصود من (الأهل) نساء النبي صلى الله عليه وآله يكون ظاهر اللفظ «مفرد مذكر» ومعناه «جمع مؤنث»، بينما لم يذكر في الآية لا «المفرد المذكر» ولا «الجمع المؤنث» بل جاء بصيغة «الجمع المذكر».

كما أن التعبير ب «البيت» جاء بصيغة المفرد خلافاً لمطلع الآية الذي جاء بصيغة الجمع، فمن المتعذر أن تكون عبارة: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» من أجل شخص النبي صلى الله عليه وآله، لأن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن يمتلك بيتاً مستقلاً، فقد كان بيته هي البيوت التي كانت تعيش فيها زوجاته.

على هذا الأساس فلا- سبيل سوى أن يكون المقصود من البيت هنا بيت القرابة والارتباط النسبي بالنبي صلى الله عليه وآله، لا بيت السكنى كما في التعبير المتداول والمعتاد عليه.

بالإضافة إلى كل هذا فعلى فرض قبولنا بهذه الآراء البعيدة عن الواقع، فهل يمكن التغاضي عن روايات بهذه السعة والكثرة والصرحة وهي التي تحصر أهل البيت عليهم السلام بخمسة أشخاص؟ أم نعتبرها روايات ضعيفة السند؟ فلو لم تكن هذه الروايات متواترة وقوية، فليس لدينا- إذن- حديث متواتر وصحيح، ولو كانت هذه الروايات خالية من الصراحة، فأى رواية صريحة في مضمونها؟! والأدهى من ذلك كله ما نقل عن «عكرمة» قوله: من شاء باهله أنها نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وآله «١»، ونقل عنه في تعبير آخر: إن عكرمة كان ينادى في السوق أن قوله تعالى إنما يريد الله... نزل في نساء النبي صلى الله عليه وآله «٢».

إنه لمدهش حقاً، فهل يمكن إثبات المسائل العلمية والاستدلالية بالمباهلة والصرخ في الأسواق، وهو أمر يمتلك جميع هذه الأدلة والشواهد والقرائن، إذ يقوم النبي صلى الله عليه وآله بيسط الكساء على خمسة أشخاص ويشخصهم بدقة ويخاطبهم، حتى أنه لم يسمح ل «أم سلمة»

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ١٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٨

و «عائشة» بالدخول تحته، وأخذ يكرر هذه العبارة أمام دار فاطمة عليها السلام لمدة ستة أشهر أو ثمانية أشهر أو تسعة أشهر، دالاً على أن المرادف بهذه الآية هو أنتم، وإن كلمة «إنما» التي تدل على الحصر واضحة للعيان.

والنبي صلى الله عليه وآله إنما يريد بهذا التأكيد إزالة جميع اشكال الشبهات، بيد أن عكرمة يريد من خلال الدوافع التي يعلمها جيداً أن يثبت بالمباهلة غير ذلك رافعاً عقيرته في الأسواق ضد ذلك!.

إن حماس واندفاع عكرمة وراء المباهلة النادرة والقليلة الحصول في الأبحاث العلمية، وكذا مناداته في الأسواق التي هي من النوادر في القضايا العلمية أيضاً، بحد ذاته دليل على أن هناك أمراً وراء ذلك، وإن وراء هذا القيل والقال تكمن أسراراً أخرى فهل كان مكلفاً بإنكار هذه الفضيلة الإلهية العظيمة ارضاءً لسلطين زمانه، وأن ينبري للتصدي لأحاديث النبي صلى الله عليه وآله بهذه الصلابة؟!.

٢- السؤال الآخر هو: إذا كان المراد هو تلك الأنوار المقدسة الخمسة، فما هي منزلة سائر أئمة أهل البيت عليهم السلام؟

والجواب هو: أن الذين كانوا يعاصرون ذلك الوقت هم أولئك الخمسة، والآخرون جاءوا فيما بعد، وورثوا تلك الصفات عن النبي

صلى الله عليه وآله وآبائهم عليهم السلام.

٣- كما تم التلميح آنفاً إلى أن المراد من الإرادة في «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ»، الإرادة التكوينية، لا التشريعية، وبتعبير آخر ليس المراد هو أن الله أمركم بالابتعاد عن المعصية، لأن هذا الأمر الإلهي يعم المسلمين جميعاً ولا يخص أصحاب الكساء فقط. يتضح مما تقدم أن الإرادة التكوينية والمشينة الإلهية قضت بتطهيرهم، والمحافظة عليهم من كل ذنب، وصيانتهم من شر الشيطان والأهواء النفسية، ونحن نعلم أن مشيئة الله غير قابلة للتخلف، وما تفوه به البعض من أن إرادة الله قابلة للتخلف يمثل غاية الجهل والغباء، فمن الذى يستطيع الحيلولة دون مشيئة الله، إلا أن تكون مشيئة الله متعلقة بشرط

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٠٩

ولم يحصل ذلك الشرط؟ ونحن نعلم أن الإرادة فى الآية أعلاه مطلقة، وليست مشروطة بشرط أبداً.

وما قاله البعض: إن هذا الكلام يستدعى أن يكون صحابة النبى صلى الله عليه وآله معصومين لاسيما الذين شاركوا فى معركة بدر، حيث قال تعالى بحقهم:

«وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (١). (المائدة/ ٦)

ومما يبعث على الأسف هو عند اضطرام نار التعصب فإنها تلتهم كل شىء وتحوّله إلى رماد، وبالأساس فإننا نفتقد فى القرآن الكريم مثل هذه الآية بشأن معركة بدر، وما نزل بشأن معركة بدر هو: «وَيُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ». (الانفال / ١١)

وظاهر هذه الآية تتعلق بنزول المطر (فى معركة بدر) واستثمار المسلمين له للغسل والوضوء، ولا ترتبط ببحثنا أبداً، إلا أن هذا الأخ المتعصب حذف مطلع الآية وجاء بعبارة «ليطهركم» فقط، وعدّها دليلاً على طهارة وقداسته الصحابة كافةً. وبالطبع فإن عبارة: «وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» لم تأت بشأن أصحاب بدر، بل جاءت فى ذيل آية الوضوء والغسل والتيمم، وواضح أنها تشير إلى الطهارة التى تحصل من هذه المطهرات الثلاثة، فكيف يصادرها هذا المفسر الشهير من هناك ويذهب بها إلى ميدان بدر، ويصادر أمراً يخص الغسل والتيمم ويقحمه فى موضوع بحث العصمة؟ إنه أمرٌ غامض. ويثار هنا سؤال آخر وهو: إذا كانت الآية دليلاً على عصمة هؤلاء العظماء، فلماذا جاءت «يريد» بصيغة «الفعل المضارع» إذن؟ فإن كانوا معصومين فلماذا يقول: «يريد الله» فهل أن تحصيل الحاصل ممكن؟ لماذا لم يقل «أراد الله بصيغة الفعل الماضى»؟ «٢».

(١) تفسير روح المعانى، ج ٢٢، ص ١٧، (ذيل الآية ٣٣ من سورة الأحزاب).

(٢) تفسير روح المعانى، ج ٢٢، ص ١٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٠

لو كان قائل هذا الكلام يبحث التعبير ب «يريد» فى آيات القرآن الكريم بدقّة وتمعّن لما تفوه بمثل هذا الكلام، لأن هذه الكلمة طالما استعملت فى الكثير من آيات القرآن الكريم بشأن الامور المتعلقة بالإرادة المستمرة من الماضى وحتى الآن، ومن الآن إلى المستقبل، وبتعبير آخر: إن هذه العبارة غالباً ماتستعمل للدلالة على استمرار وثبات المشيئة على شىء ما فى الماضى والحاضر والمستقبل، ويمكن ملاحظة صدق هذا الكلام فى الآيات التالية:

«وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ». (آل عمران / ١٠٨)

«يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ». (البقرة / ١٨٥)

«يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ». (النساء / ٢٨)

وبديهى أن مفهوم هذه الآيات ليس هو أن الله أراد ظلماً فى السابق، وكان يريد بكم العسر قبل ذلك، أو أنه لم يرد سابقاً التخفيف

عنكم واليوم فعل هكذا، بل إن مفاد هذه الآيات جميعها هو أنه أراد هكذا في الماضي والحاضر وفي المستقبل.

وكذلك قال تعالى بشأن الشيطان: «وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا». (النساء / ٦٠)

و «أَتَمَّا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ». (المائدة / ٩١)

و «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ». (القيامة / ٥)

يتضح جلياً من خلال هذه الآيات بيان الإرادة المستمرة للشيطان في الماضي والحاضر والمستقبل لإغواء الناس، وذلك بخلق العداوة والبغضاء عن طريق الخمر والقمار، وكذا مفهوم الآية الثالثة، وهو: إن الإنسان الجاحد يريد أن يكون متحرراً على الدوام ويرتكب الذنب، لذا فهو ينكر القيامة.

هنالك آيات كثيرة في القرآن تتابع هذا الموضوع، غير هذه الآيات الست أعلاه التي تبين أن استعمال كلمة «يريد» بنحو الاستمرارية يشمل الأزمنة الثلاثة.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١١

على هذا الأساس فمفهوم الآية الكريمة: «أَتَمَّا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذِيبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ»، هو تعلق الإرادة الإلهية المستمرة بطهارة وقداسته وعصمة أصحاب الكساء.

شبهات حول العصمة:

تثار عدّة أسئلة فيما يتعلق بعصمة الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام أهمها هو: أليس العصمة صفة إجبارية؟ فإذا كانت العصمة موهبة إلهية تمنح فقط إلى هؤلاء، وليس بمقدور الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام ارتكاب الذنب، أو أن الله يحول دون عوامل الذنب بشكل حازم، فما الفضيلة والفخر في ذلك؟

لقد تمّ تقديم الاجابة عن هذا السؤال بشكل مفصل في الجزء السابع من نفحات القرآن في بحث عصمة الأنبياء وهو باختصار:

إن إثارة هذه الشبهة سببه عدم التمعّن باصول عصمة المعصومين عليهم السلام، فهم لم يلتفتوا إلى أن هذه «التقوى الراسخة» تنبع من «إيمانهم القوى وعلمهم ومعرفتهم الخارقة» التي يكون جانب منها اكتسابياً والآخر هبة، فمثلاً: إن الإنسان الذي يبلغ درجة عالية في الطب، محال أن يشرب ماءً ملوثاً بالجراثيم، بينما ربّما يفعل الإنسان الامى هذا الأمر، إن امتناع الطبيب عن شرب الماء الملوث كان باختياره، فهو يستطيع شرب ذلك الماء، إلّا أن إيمانه ومعرفته بعواقب الأمر تحول دون ذلك، فهو شبيه المعصوم في حرية إرادته ازاء القيام بهذا العمل (١).

السؤال الآخر هو: إن الأئمة اعترفوا بالخطأ والذنب من خلال كلماتهم، فكيف يمكن اعتبارهم معصومين؟ ففى ادعيتهم يسألون الله أن يغفر لهم ذنوبهم، وهذا بحد ذاته دليل على عدم عصمتهم.

(١) للمزيد من الايضاح راجعوا ج ٧، ص ١٥٥ - ١٦٠ من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٢

يقول أمير المؤمنين الإمام على بن أبي طالب عليه السلام في الخطبة ٢١٦ من نهج البلاغة: «إني لست في نفسي بفوق أن اخطيء ولا آمن ذلك من فعلى إلّا أن يكفى الله من نفسي ما هو أملك بي منى» (١).

ويشار نظير هذا الاعتراض بشأن الكثير من الآيات المتعلقة بقصص الأنبياء في القرآن الكريم أيضاً، حيث ذكرناها جميعاً في نفس الجزء السابع تحت عنوان «تنزيه الأنبياء»، وأعطينا الجواب عنها، وتعبّنا هذه القضايا من خلال الإشارة إلى جزئيات تاريخ الأنبياء وما يمكن أن يتعرض إلى هذه الشبهات.

ولابد من الإشارة إلى بعض النقاط بشكل مختصر:

١- في الكثير من الحالات كان الأئمة عليهم السلام يتحدثون لتعليم الناس باعتبارهم الاسوة، وأن أقوالهم كانت تحمل طابعاً تعليمياً، واللطف أن تفسير روح المعاني وبعد إثارة هذا الاعتراض بشأن علي عليه السلام يأتي بهذا الجواب، ثم يقول: وقصد الكلام كما في بعض الأدعية النبوية بعيد «٢» فلماذا لا يكون مستبعداً في كلام النبي صلى الله عليه وآله بينما يستبعد في كلام علي عليه السلام. إن هذا لا يدل إلّا على تعصب هذا المفسر المعروف.

٢- كان الغرض في بعض الحالات هو أنهم عليهم السلام يريدون أن يقولوا: إننا لا نملك شيئاً بدون الاعتماد على اللطف الإلهي، وهذه هي عطايه ومواهبه وفيوضاته التي جعلنا معصومين، وبتعبير آخر: إن ما نقل عن علي عليه السلام في العبارة يعاكس ما يقوله المشككون تماماً فهو يدل على عصمته بالاعتماد على الألفاظ الإلهية، فالإمام يقول: لست معصوماً عن الخطأ «بدون اللطف الإلهي»، وهذه الموهبة ليست سوى لطف إلهي، أو وفقاً للتعبير الذي ورد في سورة يوسف ليس إلّا.

٣- في الكثير من الامور التي وردت في الآيات أو الأدعية باعتبارها ذنباً، فهي ليست سوى ترك الأولى ومصداق للقول المعروف: «حسنت الأبرار سيئات المقربين».

(١) يصرُّ آلوسى في تفسيره، ذيل آية التطهير اصراراً عجيباً في انكار أن مفهوم الآية يتعلق بعصمة أهل البيت عليهم السلام ويشير هذه الشبهة (تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ١٧).

(٢) تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ١٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٣

وهذه النكتة جديرة بالذكر أيضاً وهي أن المراد من ترك الأولى ليس ترك عمل واجب، أو ارتكاب محرم أو مكروه، بل أراد الفعل المباح أو المستحب في قبال عمل أكثر استحباباً منه، وواضح أن ترك المستحب الأولى والإتيان بمستحب آخر ليس في فعله خلاف، إلّا أنه ترك للأولى لكن ليس هذا الفعل بالنسبة للآخرين لا يعتبر خلافاً فحسب، بل إن أداء المستحب بحد ذاته يعدُّ فضيلةً، وربما يؤدّي إلى اللوم بالنسبة إلى المقربين لدى الله تعالى

فالصلاة المقبولة من شخص عادى، تعد تركاً للأولى بالنسبة للعالم الكبير، وصلاة ذلك العالم لا تليق بالمعصوم، للمزيد من التوضيح راجعوا الجزء السابع من نفحات القرآن.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٥

خصائص الأئمة عليهم السلام

إشارة

كما تكررت الإشارة فإن رسالة الأئمة المعصومين عليهم السلام تشبه وتنسجم مع رسالة الأنبياء في الكثير من الحالات، سوى أن الوحي لا ينزل عليهم، ولم يضعوا الحجر الأساس للدين، بل واصلوا خط الأنبياء، من هنا فإن أكثر الصفات اللازمة فيهم تطابق صفات الأنبياء، ونظراً إلى أننا قد جئنا بهذه الصفات بشكل مفصل، مستندين إلى آيات القرآن الكريم في بحث الصفات العامة للأنبياء في الجزء السابع، فلا نرى ضرورة لشرحها بشكل موسع هنا، ولكن من أجل التذكير لابد لنا من المرور عليها ثانية (التفتوا إلى أن هذه الصفات جميعها طرحت في القرآن بشأن الأنبياء)، ولابد للقادة الإلهيين والأئمة المعصومين عليهم السلام بالاضافة إلى تمتعهم ب «العلم» و «العصمة» أن يتمتعوا بالصفات التالية:

- ١- الصدق: فلو لم تتوفر لديهم هذه الصفة لم يحصل الاطمئنان والثقة اللازم توفرها من أجل اقامة العلاقات المعنوية بين الأتباع والقادة.
 - ٢- الالتزام بالعهود والمواثيق: لأنّ جانباً عظيماً من دعوتهم يقوم على أساس الوعود التي يمنحونها للناس، فإن لم يكونوا «صادقياً الوعد» تنهار ركائز ثقة العامة بهم.
 - ٣- الأمانة في المحافظة على الودائع والأحكام الإلهية وابلغها: حيث إنّها تمثل إحدى دعائم الثقة والإعتماد.
 - ٤- المحبة والحرص الفائق تجاه الناس: فلو لم تتوفر هذه الميزة من المستحيل أن يبدي الناس تحملاً للعناء والمشقات في قيادة المجتمع - لاسيما الجهلة والمعاندون -.
 - ٥- الاخلاص والتجرد التام وقطع الأمل بكل أجر مادي وإلا ستفقد الدعوة والقيادة جاذبيتها.
- نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٦
- ٦- الاحسان والتفضل بحق الأصدقاء بل وحتى الأعداء: وهي من مظاهر رحمانية الله ورحيمته وسبب في إقامة الارتباط المعنوي بين القيادة والقاعدة.
 - ٧- الشجاعة الفائقة وعدم الخشية إلامن الله تعالى التي تعد ميزة أساسية للذين «يلغون رسالات الله» في القرآن الكريم، لأنّها السر الحقيقي وراء النجاح، وبدونها لا يتقدم العمل في مجال القيادة.
 - ٨- التوكّل المطلق على الله: فغالباً ما يبقى القائد الرباني وحيداً فريداً ويعزله عن الآخرين الفساد الذي يسود البيئه، فلو لم يكن متوكّلاً على الله فمن المتعذر عليه مواصلة طريقه.
 - ٩- الرفق وحسن الخلق: الميزة الاخرى التي وردت في القرآن الكريم بشأن النبي صلى الله عليه وآله، وفي الحقيقة لا بد لكل قائد إلهي (سواء كان نبياً أو إماماً) أن يتمتع بها، وإلا فإنّ الخشونة والغلظة والاتصاف ب «فظ غليظ القلب» يؤدّي إلى تفرق الناس وعقم أهداف القائد الإلهي.
 - ١٠- النجاح في الامتحانات القاسية: حيث يعتبر القرآن الكريم إعطاء منصب الإمامة لإبراهيم عليه السلام بسبب نجاحه في اجتياز الامتحان والإبتلاء وتحمله المشاق.
- وفي واقع الأمر يجب على المعصومين أن يخرجوا من الامتحانات القاسية ظافرين، ليكونوا مؤهلين لقيادة المؤمنين جسماً وروحاً وظاهراً وباطناً.
- لقد وردت هذه المواضيع بشكل مفصّل ومستند إلى آيات القرآن الكريم في بحث الصفات العامة للأنبياء في الجزء السابع من نفحات القرآن.

الله فقط الذي يُعَيِّن الإمام:

يستنتج من مجموع الأبحاث التي جرت بشأن صفات الإمام وتشبيهه بالأنبياء في الكثير من الحالات أن الأئمة المعصومين عليهم السلام (أوصياء الأنبياء) يجب أن يكون تعيينهم من قبل الله تعالى.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٧

وبتعبير آخر: ليس ل «انتخاب الأئمة» دور في هذا المجال ولا- «إجماع الأئمة» أو «التنصيب» من قبل أشخاص عاديين، لأنّ الصفات اللازمة في الإمام لا- يعلمها إلا الله تعالى، وأهمها «العصمة»، و «العلم الخاص»، حيث يتعذر على الإمام التحليق في سماء الإمامة والزعامه بدون هذين الجناحين!

فمن الذي يعلم أنّ فلاناً معصوم عن الذنب والخطأ، وأنّ هيمنه علمه على جميع مسائل التشريع وحياء البشر مسلّمه وثابته؟

إنّ تشخيص سائر الصفات الخاصة بالإمام التي ذكرت آنفاً، متعذر على أغلب الناس، وربّما جميعهم.

من هنا يستفاد جيداً أنّ لا سبيل لتعيين الإمام سوى عن طريق التنصيب الإلهي، وهذا «التنصيب» يثبت من خلال ثلاثة طرق:

الأول: عن طريق النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام المعصوم السابق الذي يعين خليفته بأمر الله تعالى ويعرّفه لجميع الناس، وفي الحقيقة أنّه في هذه القضية يمثل الواسطة في نقل الأمر الإلهي إلى الناس.

الثاني: عن طريق مشاهدة «المعجزات» كما مر ذكره في بحث النبوة، أي خرق العادة، وهو خارج عن طاقة البشر، وهو مترافق مع التحدى ودعوة الآخرين بالإتيان بمثلها إن لم يدعوا.

غاية الأمر أنّ التحدى في قضية «النبوة» يأتي في مجالها وفي قضية «الإمامة» في مجال الإمامة، أو بتعبير أكثر بساطة: إنّ الذي يدعى الإمامة يقوم بخرق العادة الخارج عن طاقة أي إنسان تأكيداً على ادّعائه الإمامة.

ومن المسلمّ به أنّ خرقاً للعادة كهذا يعطى له من قبل الله تعالى ومن المحال أن يمنح الله الحكيم والعالم بالسرائر هذه الوسيلة للذي يدعى الإمامة زوراً وبهتاناً.

الثالث: الطريق الثالث هنا هو كالذي مرّ في بحث النبوة، وهو جمع القرائن، أي مجموعة الصفات والأفعال والخصائص المتوفرة لدى شخص ما بحيث يتيقن الإنسان من

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٨

خلال مشاهدتها أنّه إمام معصوم وقائد إلهي، فيتظافر علمه ومعرفته مع المزايا الأخلاقية والصفات الإنسانية والأفعال والأقوال والسلوكيات لتثبت بكل يقين أنّه إمام معصوم وخليفة للنبي صلى الله عليه وآله.

راجعوا تفصيل هذه المسألة في الجزء السابع من نفحات القرآن في بحوث «النبوة والقرآن».

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١١٩

الولاية التكوينية للأنبياء والأئمة عليهم السلام

إشارة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢١

الولاية التكوينية للأنبياء والأئمة عليهم السلام

تمهيد:

نحن نعلم أنّ الولاية على نحوين:

١- الولاية التشريعية.

٢- الولاية التكوينية.

المراد من الولاية التشريعية هو الحكم والاشراف القانوني والإلهي الذي يكون تارة بشكل محدود كولاية الأب والجد على الصغير، وتارة بشكل واسع وشامل كولاية الحاكم الإسلامي على كافة القضايا المتعلقة ب «الحكومة» و «إدارة شؤون الأمة الإسلامية»، حيث

سيأتي بحث ذلك بشكل مفصل في «الجزء العاشر من نفحات القرآن» إن شاء الله تعالى

أمّا المراد من الولاية التكوينية، فهي: قدرة الإنسان على التصرف في عالم الخلق والتكوين بأمر الله وإذنه، والإتيان بأفعال خارقة للعادة والنواميس الطبيعية لعالم الأسباب، فتمتلاً ببريء المريض الذي لا علاج له بإذن الله، وذلك من خلال الهيمنة والنفوذ الذي وهبه الله

تعالى له، أو يحيى الموتى وأعمال أخرى من هذا القبيل، وكل أشكال التصرف المعنوي غير الاعتيادي في أرواح وأجسام البشر، وهذا النوع يشمل الطبيعة أيضاً.

وربما تكون ل «الولاية التكوينية» أربع حالات بعضها «مقبولة» وبعضها «غير مقبولة».

١- «الولاية في أمر الخلق وخلق العالم»: بمعنى أن الله تبارك وتعالى يمنح عبداً من عباده أو ملكاً من ملائكته قدرة خلق العوالم أو محوها من الوجود، ومن المسلم به أن هذا الأمر ليس مستحيلاً، لأن الله على كل شيء قدير وقادر على منح أى نحو من القدرة لأى إنسان، بيد أن آيات القرآن تؤكد في كل المواضع على أن خلق عالم الوجود والسماوات

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٢

والأرضين والجن والانس والملائكة والنباتات والحيوانات والجبال والبحار قد حصل بقدرة الله جلّ وعلا لا- عن طريق عباده الخاصين أو ملائكته، لذا فقد نسب الخلق إليه في جميع الأحوال، ولم ينسب هذا الأمر إلى غيره «بنحو واسع» فى أى موضع أبداً، وعليه فإن خالق السماوات والأرضين والنبات والحيوان والإنسان هو الله وحده.

٢- «الولاية التكوينية فى إيصال الفيض»: بمعنى أن كل إمداد ورحمة وبركة وقدرة من قبل الله تعالى تصل إلى عباده أو سائر الكائنات فى عالم الوجود بواسطة أولياء الله وخاصة عباده، كمياه الشرب بالنسبة للبيوت فى مدينه ما التى تمر من خلال الانبوب الرئيس وهذا الانبوب الكبير يستلم المياه من مصدرها ويوصلها إلى جميع النقاط، ويعبر عنه ب «الواسطة فى الفيض».

وهذا المعنى ليس محالاً أيضاً من الناحية العقلية، ويشاهد نموذجة فى العالم الصغير، وبناء الإنسان، وتوزيع المواد الغذائية على الخلايا كافة عن طريق شريان القلب، فما المانع من ذلك فى العالم الكبير أيضاً؟

ولكن مما لا شك فيه أن إثباته بحاجة إلى دليل مقنع، وإذا ما ثبت فهو بإذن الله تعالى

٣- «ولاية تكوينية فى حدود معينة»: كإحياء الموتى وشفاء المرضى الذين يستحيل علاجهم ونحو ذلك.

وقد وردت نماذج من هذا النوع من الولاية بشأن بعض الأنبياء فى القرآن الكريم بصراحة حيث سيشار إليها لاحقاً، والروايات الإسلامية شاهد على ذلك أيضاً، من هنا فإن هذا الفرع من الولاية التكوينية ليس ممكناً من ناحية العقل فحسب، بل هنالك أدلة نقلية عليه أيضاً.

٤- «الولاية التى تعنى الدعاء من أجل تحقيق المطالب»: ويأتى ذلك بقدرة الله تعالى فإن النبى صلى الله عليه وآله أو الإمام المعصوم يدعو فيتحقق ما طلبه من الله تعالى

وهذا المعنى ليس فيه أى محذور عقلى ولا- نقلى، وأن الآيات والروايات مليئة بنماذج منه، بل ربما لا- يمكن اطلاق اسم الولاية التكوينية عليه لأن استجابته دعائه تأتى من قبل الله تعالى.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٣

ويشاهد فى الكثير من الآيات إشارات إلى ال «الاسم الأعظم» الذى كان لدى الأنبياء والأئمة عليهم السلام أو بعض أولياء الله (من غير الأنبياء والأئمة)، ومن خلاله كانوا يستطيعون التصرف بعالم التكوين.

وبغض النظر عن المراد من «الاسم الأعظم»- الذى بحثناه بشكل مفصل فى بحث صفات الله- فإن مثل هذه الروايات ربما تكون ناظرة إلى القسم الثالث من الولاية التكوينية وتنطبق عليه بشكل تام.

بهذه الإشارة نعود إلى بعض آيات القرآن فى هذا المجال «الولاية التكوينية»:

١- «وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي اخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَابْرِيءُ الْأَكْمَةِ وَالْإِبْرَصِ وَآخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَابْتُئِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». (آل عمران / ٤٨-٤٩)

٢- «فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ». (ص / ٣٦)

٣- «قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ إِنَّا آتَيْنَكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ». (النمل / ٤٠)

في الآية الاولى يدور الحديث أولاً عن الألفاظ الإلهية بحق عيسى عليه السلام حيث «وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ». ثم بعثه كرسول إلى بني اسرائيل، «وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ»، ومن ثم يشرح كلام المسيح عليه السلام في إثبات حقانيته وبيان معاجزه التي تم بيانها في خمس مراحل:

يقول في الاولى: «أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّن الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَاَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ».

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٤

وفي الثانية والثالثة: «وَأَبْرِيءُ الْاَكْمَةَ وَالْاَبْرَصَ».

والرابعة: «وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ».

والخامسة: «وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ».

إن التمغن في مضمون هذه الآيات والتفاوت في التعابير المستعملة فيها، يوضح هذه المسألة وهي: أن المسيح عليه السلام ينسب خلق الطير من الطين إلى الله تعالى، بينما في الأقسام الثلاثة الأخرى ينسب (شفاء الأعمى والأبرص، وإحياء الموتى إلى نفسه، ولكن باذن الله وأمره، وهذا هو المقصود من الولاية التكوينية، حيث إن الله تعالى قد يمنح مثل هذه القدرة للإنسان بحيث يؤثر في عالم الخلق والطبيعة بأمره، ويخرق الأسباب الطبيعية، فيحيى الميت ويشفي المرضى الذين يستحيل علاجهم.

هذا النموذج من الولاية التكوينية التي وهبها الله تبارك وتعالى لعبده المسيح عليه السلام، ولا مانع أو حائل أبداً دون اعطاء مثل ذلك لسائر الأنبياء أو الأئمة المعصومين عليهم السلام.

وإذا قال قائل: إن مقصود هذه الآية هو أن المسيح عليه السلام كان يدعو فيبريء الله المريض، أو يحيى الميت، فقد نطق بما يخالف ظاهر الآية، لأن الآية تقول بوضوح: «بِإِذْنِ اللَّهِ» أي إنني أفعل ولكن تحقيق الفعل بإذن الله، وليس هنالك من دليل لترك هذا والبحث عن معنى يخالف الظاهر.

بل ليس هنالك مانع أيضاً في مرحلة خلق الطير من أن يلقي الله تعالى هذا الأثر في فم عيسى عليه السلام فيكون القيام بمثل هذا العمل بإذن الله، بيد أن بعض المفسرين لم يقتنعوا بهذا المعنى وقالوا: إن خلق الطير مستند إلى الله مباشرة، ولعل هذا القول يأتي لثلا يدعى الجهلاء الوهية المسيح، لأن أمر الخلقه متعلق به وحده:

وورد شبيه هذا المعنى أيضاً في سورة المائدة، غاية الأمر أن الخطاب صادر من قبل الله تعالى للمسيح عليه السلام لا على لسان المسيح عليه السلام، فيقول تعالى

«وَأَدْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْاَكْمَةَ

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٥

وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَأَدْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي». (المائدة / ١١٠)

والملفت للنظر هو أن اختلاف التعبير الذي كان في سورة آل عمران ظاهرٌ بدقه هنا أيضاً، أي لم تُنسب مسألة الخلق وخلق الطير إلى المسيح عليه السلام، ولكن نُسب إليه احياء الموتى وشفاء المرضى والعمى الذين يستحيل علاجهم، وإن جاء التعبير بإذن الله في كل ذلك.

وملخص الكلام أن هذه الآيات تثبت بأن الولاية التكوينية لعيسى عليه السلام هي في نطاق خاص، وليس هنالك دليل على اختصاصها المطلق بالمسيح عليه السلام، ويمكن أن تصدق بحق سائر الأنبياء أو الأئمة المعصومين عليهم السلام بمقتضى أن: «حكّم

الأمثال في ما يجوز وما لا يجوز واحد».

وفي الآية الثانية يتحدث تعالى عن تسخير الرياح لسليمان عليه السلام ويقول: «فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ». ويستفاد من هذه الآية والآيات التي تليها أنه وكما أن الشياطين كانت تُنفذ أمر سليمان وتنجز له أعمالاً مهمّة في البر والبحر، فإنّ الرياح كانت تُنفذ أمره أيضاً، وكانت تتحرك حيث يأمرها، وهذا الأمر ليس سوى مصداق للولاية التكوينية في هذا الجانب من الموجودات. وورد نظير هذا المعنى أيضاً في سورة الأنبياء، والحديث هنا عن أمر سليمان عليه السلام على العواصف، إذ يقول تعالى «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا».

(الانبياء / ٨١)

وهذا الاحتمال وارد أيضاً فيما جاء في قصة موسى عليه السلام في البقرة، الآية ٦٠: (من ضرب الحجر وانبثاق عين الماء فيه بإذن الله)، وكذا ضرب البحر بالعصا، حيث يقول تعالى «فَاَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ». (الشعراء / ٦٣)

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٦

وكل ذلك كان من قبيل الولاية التكوينية أيضاً.

والخلاصة هو أنه في جميع الحالات التي يمنح فيها الله تعالى لأحد عباده الخاصين القدرة والقوة للنفوذ في عالم الخلق والطبيعة، يحصل لذلك العبد نوع من الولاية التكوينية.

والحديث في الآية الثالثة عن التصرف التكويني لشخص من المقربين لسليمان ومن خاصته، بيد أن اسمه لم يأت في القرآن سوى بوصف (الذي عنده علم من الكتاب)، فعندما خاطب سليمان عليه السلام أصحابه وخاصته: «قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ» قَالَ عَفْرَيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ»، ثم يضيف: «قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ». وبطبيعة الحال أن هذا لم يكن ادعاءً فحسب، بل إنه نفذ وعده، إذ نقرأ في سياق الآية: «فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي».

وهنا بحوث كثيرة:

من ذلك الذي كان عنده علم من الكتاب؟ فالمعروف والمشهور أنه كان وزير سليمان عليه السلام، (آصف بن برخيا) الذي يقال إنه كان ابن اخته، وطبقاً لما ورد في الرواية في تفسير العياشي في جواب الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام ليحيى بن الأکثم فإنّ «آصف» كان وصي وخليفة سليمان عليه السلام، وكان نبياً، وكان سليمان عليه السلام يريد بهذا العمل تعريف العامة بمكانته ومنزلته، وإلا فإنه كان يمتلك القدرة على هذا العمل من باب أولى (١).

وقد احتمل البعض أيضاً أن هذا الشخص كان سليمان نفسه (٢)، إلا أنه لا ينسجم وظاهر الآية.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٩١، ح ٧٧ كما نقل هذا المعنى بصريح القول في تفسير الدر المنثور عن ابن عباس وآخرين بأنّ القائل كان آصف بن برخيا حيث كان الاسم الآخر له «اتمليخا»، (تفسير در المنثور، ج ٥، ص ١٠٩).

(٢) نقل هذا الاحتمال في تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٣٦٣ واشكل عليه.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٧

واحتمل البعض أنه كان رجلاً من بني اسرائيل، حيث يتعارض هذا مع التفسير الذي يقول إنه كان آصف بن برخيا، لأنه وحسب الظاهر كان من بني اسرائيل، على أية حال فالذي يحظى باهتمامنا هنا ليس شخصاً بعينه، بل الغرض هو أن أحد اولياء الله كانت له

القدرة في التصرف في عالم التكوين وعالم الأسباب من خلال امتلاكه لـ «علم من الكتاب» أو معرفة الاسم الأعظم، أو أى شيء آخر، وأن ينقل عرش وملكه سباً من أقصى جنوب شبه الجزيرة العربية إلى أقصى شمالها خلال طرفه عين، ولا يخفى أن هذا الأمر ممكن لسائر أولياء الله لاسيما والأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام.

وقد ورد في بعض الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام:

«إن اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً وإتما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس حتى تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفه عين ونحن عندنا من الاسم الأعظم اثنان وسبعون حرفاً وحرف واحد عند الله تعالى استأثر به في علم الغيب عنده، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» (١).

ونقل هذا المعنى أيضاً في روايات أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام وبعض أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ويستفاد بوضوح مما مر من الآيات أن الولاية التكوينية أمر ممكن وجدير بالقبول في نظر القرآن الكريم.

الولاية التكوينية في الأحاديث الإسلامية:

كثيراً ما نصادف في الروايات الإسلامية إشارات عن المعجزات التي حصلت في إطار الولاية التكوينية، وتوضيح ذلك أن المعجزات لها أقسام وأنواع فبعضها يحصل بدعاء

(١) اصول الكافي، ج ١ ص ٢٣٠ استناداً إلى نقل تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٠٣، ح ١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٨

النبى صلى الله عليه وآله أو الإمام المعصوم فقط، وبعض يحصل بطلب الناس منهم وياذن الله، وبعضها يحصل عن طريقهم وبفعلهم، أى أن بعض المعجزات يحصل من خلال تصرفهم ومقامهم الروحي والمعنوي وياذن الله، بحيث لا يمثل سوى الولاية التكوينية التي نتحدث عنها الآن.

وهذه الحالات كثيرة للغاية، وفيما يلي نشير إلى بعض النماذج منها:

١- ورد نموذج ظريف منها في نهج البلاغة- الخطبة القاصعة- حيث يقول عليه السلام «ولقد كنتُ معه صلى الله عليه وآله كما أتاه الملائكة من قريش فقالوا له: يا محمد إنك ادّعت عظيمًا لم يدعه أبؤك ولا أحد من بيتك، ونحن نسألك أمراً إن أنت أجبتنا إليه وأريتناه علمنا أنك نبي ورسول، وإن لم تفعل علمنا أنك ساحر كذاب».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله «وما تسألون» قالوا: تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك، فقال صلى الله عليه وآله: «إن الله على كل شيء قدير، فإن فعل الله لكم ذلك، أتؤمنون وتشهدون بالحق؟» قالوا: نعم، قال: «فاني ساريكم ما تطلبون وإني لأعلم أنكم لا تفيئون إلى خير، وإن فيكم من يطرح في القليب ومن يحزب الأحزاب»، ثم قال صلى الله عليه وآله: «يا أيها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر، وتعلمين أني رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يدي ياذن الله».

فوالذي بعثه بالحق (لا نقلعت) بعروقها وجاءت ولها دوى شديد وقصف كقصف أجنحة الطير حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله مرفرفة، وألقت بعضها الأعلى على رسول الله صلى الله عليه وآله ولبعض أغصانها على منكبيه، وكنت عن يمينه صلى الله عليه وآله.

فلما نظر القوم إلى ذلك قالوا- علواً واستكباراً: فمُرّها فليأتك نصفها، ويبقى نصفها، فأمرها بذلك فاقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشدّه دويّاً فكادت تلتف برسول الله صلى الله عليه وآله!

فقالوا- كفراً وعتواً-: فمَرَّ هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان، فأمره صلى الله عليه وآله فرجع، فقلت أنا: «لا إله إلا الله، إني أول مؤمن بك يا رسول الله، وأول من أقرَّ بأنَّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقاً بنبوتك وإجلالاً لكلمتك». نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٢٩

فقال القوم كلهم: بل ساحرٌ كذاب عجيب السحر، خفيفٌ فيه، وهل يصدقك في أمرك إلا مثل هذا «يعنونني»؟
«وإني لمن قوم لا- تأخذهم في الله لومة لائم، سيماهم سيما الصديقين، وكلامهم كلام الأبرار، عمازُ الليل ومنار النهار، متمسكون بحبل القرآن، يحيون سنن الله وسنن رسوله، لا يستكبرون ولا يعلون، ولا يغلون ولا يفسدون، قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل»
«١».

تأملوا تعابير هذه الخطبة قليلاً، فإنها تثبت أن هذا الأمر الخارق للعادة حدث بنفوذ وتصرف النبي صلى الله عليه وآله في التكوين، وعليه فما ورد في ذيل هذه العبارة: «إنَّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى، هو أمر الله وإذنه والقدرة التي قد وهبها لنبهه لمثل هذا التصرف، كما ورد التعبير «إذن الله» في بداية هذه الكلمة.
بناءً على ذلك، فالتعابير مثل: مُرَّ ليحدث كذا أو كذا، وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله أيتها الشجرة افعلی كذا وكذا، كلها أدلة على ولاية النبي صلى الله عليه وآله ونفوذه التكويني.

٢- يروي المرحوم العلامة المجلسي في كتاب بحار الأنوار عن سلمان الفارسي: لما قدم النبي صلى الله عليه وآله المدينة تعلق الناس بزمام الناقة، فقال النبي صلى الله عليه وآله: يا قوم دعوا الناقة فهي مأمورة، فعلى باب من بركت فأنا عنده (وهذا أفضل طريق للخلاص من كل اختلاف وتفرقة).

فأطلقوا زمامها وهي تهف في السير حتى دخلت المدينة، فبركت على باب أبي أيوب الأنصاري، ولم يكن في المدينة أفقر منه، فانقطعت قلوب الناس حسرةً على مفارقة النبي صلى الله عليه وآله، فنادى أبو أيوب: «يا أمه افتحي الباب، فقد قدم سيد البشر، وأكرم ربيعه ومضر، محمد المصطفى والرسول المجتبي .

فخرجت وفتحت الباب وكانت عمياء، فقالت: «واحسرتاه ليت كانت لي عين أبصر بها

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢ (القاصعة).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣٠

وجه سيدي رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة»، وضع صلى الله عليه وآله كفه على وجه ام أبي أيوب فانفتحت عيناها «ربما يراد في وضع اليد الإشارة باليد، أو وضع اليد فوق قطعة قماش» «١».

٣- كما وردت هذه الرواية أيضاً في الكتب المشهورة لدى الشيعة والسنة وهي لما لم يأت النصر على يد بعض امراء الجيش في معركة خيبر، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سأعطى الراية غداً إلى رجل يحبُّ الله ورسوله ويحبُّ الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ثم ارسل على عليّ وكان أرمداً، فحضر فبصق في عينيه فبرأتا، ثم سلّمه الراية وفتح خيبر» «٢».

تفيد هذه الرواية المشهورة أن النبي صلى الله عليه وآله ابرء عيني على عليه السلام من خلال ولايته التكوينية- بإذن الله-.

٤- وجاء في تاريخ أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً «مد الفرات في عهد على عليه السلام فأقبل إليه الناس، فقالوا: يا أمير المؤمنين نحن نخاف الغرق لأنَّ في الفرات قد جاء من الماء ما لم ير مثله وقد امتلأت جنبناه فالله الله، فركب أمير المؤمنين عليه السلام والناس معه وحوله يميناً وشمالاً ٠٠٠٠ حتى انتهى إلى الفرات وهو يزخر بأمواجه، فوقف والناس ينظرون فتكلم بالعبرانية كلاماً فنقص الفرات ذراعاً، فقال: حسبكم؟ قالوا: زدنا» «٣».

فهل هذا الفعل سوى تصرفٍ تكويني بإذن الله؟

(١) بحار الأنوار، ج ١٩، ص ١٢١.

(٢) لقد أورد ابن الأثير هذه الرواية في الكامل بالتفصيل (ج ٢، ص ٢١٩)؛ وكذا ابن هشام في السيرة النبوية ج ٣، ص ٣٤٩؛ والعلامة المجلسي في بحار الأنوار ج ٢١، ص ٢٩٨، ح ٣٠.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٢٣٧ (مع الاختصار).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣١

٥- ونقرأ في تاريخه عليه السلام أيضاً أنه وأثناء مروره قرب الكوفة جاءه قوم من اليهود، وقالوا: «أنت على بن أبي طالب الإمام؟ فقال: أنذا، قالوا: لنا صخرة مذكورة في كتبنا عليها اسم سته من الأنبياء، وهو ذا نطلب الصخرة فلا نجدها فإن كنت إماماً أوجدنا الصخرة.... فسار القوم خلف أمير المؤمنين عليه السلام إلى أن استبطن فيهم البر فاذا بجبل من رمل عظيم فقال عليه السلام: أيتها الريح انسفي الرمل عن الصخرة بحق اسم الله الأعظم فما كان إلّاساعة حتى نسفت الرمل وظهرت الصخرة» (١) وهذا نموذج آخر من النفوذ والتأثير على عالم التكوين.

وقد وردت نماذج أخرى في الكثير من كتب التاريخ والتفسير، والحديث، ومختلف المصادر الإسلامية للشيعة والسنة، حيث يحتاج ذكرها كلها إلى تدوين كتاب مستقل.

إنّ هذه الآيات والروايات تؤكد أنّ أولياء الله سواء من الأنبياء أو الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا يتمتعون بقدره بأمر الله وإذنه، بحيث كانوا يستطيعون التصرف في عالم التكوين من خلال ما وهبهم الله تعالى من إذن في حالات معينة، وهذا ما نُعبر عنه بالولاية التكوينية.

وبطبيعة الحال، فإنّ الولاية التكوينية لها تفرعات أخرى أيضاً، منها التأثير في القلوب المستعدة لقبول الحق عن طريق الألفاظ المعنوية والروحية، وتربية وهداية النفوس المؤهلة من خلال التأثير الروحي فيها، حيث تتوفر أمثلة كثيرة لذلك في التاريخ الإسلامي. وغالباً ما كان يحصل لكثير من الأشخاص تحول وتغيير مفاجيء، بنحو لا- ينسجم مع الموازين والمعايير الطبيعية، وذلك بمجرد وجودهم في محضر رسول الله صلى الله عليه وآله أو الإمام المعصوم عليه السلام، وبالتالي يستقيم سلوكهم في الحياة على أثره. إنّ هذا التحول والتغيير المفاجيء والخارق للعادة يحصل أيضاً نتيجة ل «الولاية التكوينية» والتأثير في النفوس المؤهلة.

(١) بحار الأنوار، ج ٤١ ص ٢٣٧ (مع الاختصار).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣٣

الولاية والإمامة الخاصة

إشارة

١- الآيات التي تهتم بمسألة الإمامة بشكل مباشر

٢- آيات الفضائل

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣٥

الولاية والإمامة الخاصة

تمهيد:

بعد الفراغ من البحوث العامة في «الإمامة العامة» جاء دور الكلام في بحث الإمامة الخاصة، حيث سيكون البحث في معرفة الإمام المعصوم والوصى بعد النبي صلى الله عليه وآله، مُستعينين بمختلف المصادر الإسلامية، والنصوص الواردة في القرآن، والروايات الموثوقة في هذا البحث.

كما نستعين بأسلوب جمع القرائن الذي هو أحد أهم الأساليب لمعرفة الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام، ونسأل الله تعالى أن يأخذ بأيدينا وقلمنا وبياننا إلى ما هو حق، ويبعدنا عن كل خلاف وانحراف.

في البداية نيمّ وجوهنا صوب آيات القرآن الكريم لنرى ما ورد من آيات بصدد الإمامة الخاصة. حيث يمكن تقسيم هذه الآيات إلى قسمين:

١- الآيات التي تهتم بمسألة الإمامة بشكل مباشر وتبحث فيها بجلاء.

٢- الآيات التي تبحث هذه المسألة بشكل غير مباشر.

وبالرغم من كثرة الآيات في كلا القسمين، فإننا سنتخذ مجموعة من الآيات وذلك لمزيد من التوضيح، ومن ثم نشرع بالبحث. ففي القسم الأول نناقش الآيات التالية:

١- آية التبليغ وواقعة الغدير.

٢- آية الولاية.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣٦

٣- آية اولى الأمر.

٤- آية الصادقين.

٥- آية القربى

وفى القسم الثاني نتجه نحو آيات الفضائل، وهذه الآيات لا تطرح مسألة الخلافة والولاية بشكل مباشر، إلّا أنها تثبت الفضائل بحق أمير المؤمنين عليه السلام، حيث تصفه بأنّه أفضل أمة محمد صلى الله عليه وآله، وأسمى شخصية بعد النبي صلى الله عليه وآله، مع إلحاق مقدمة عقلية واضحة (ترجيح المرجوح على الراجح قبيح) حيث نستنتج عدم وجود شخص أليق وأجدر منه لقيادة الأمة بعد النبي صلى الله عليه وآله.

وهذه الآيات كثيرة للغاية حيث تجرى الإشارة إلى ٣٢ آية، من بينها:

١- آية المباهلة. ٢- آية خير البرية. ٣- آية ليلة المبيت. ٤- آية الحكمة. ٥- آيات سورة هل اتى ٦- آيات مقدمة سورة براءة، ٧- آية سقاية الحاج. ٨- آية صالح المؤمنين.

٩- آية الوزارة. ١٠ و ١١- آيات سورة الاحزاب. ١٢- آية البينة والشاهد. ١٣- آية «الصديقون»، ١٤- آية النور. ١٥- آية الانذار. ١٦- آية مرج البحرين. ١٧- آية النجوى

١٨- آية «السابقون». ١٩- آية أذن واعية. ٢٠- آية المحبّة. ٢١- آية «المنافقين»، ٢٢- آية الايذاء. ٢٣- آية الانفاق. ٢٤- آية المحبّة. ٢٥- آية المسؤولين. ٢٣- آية اشقاها.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣٧

القسم الأول: الآيات التي تهتم بمسألة الإمامة بشكل مباشر

١- آية التبليغ

إشارة

«يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»
(المائدة/ ٦٧)

شأن النزول:

جاء في الكثير من كتب علماء السنة (وكافة كتب الشيعة المعروفة) سواء التفسير أو الحديث أو التاريخ، أن الآية أعلاه نزلت بحق على عليه السلام.

وروى هذه الروايات جمع كثير من الصحابة، منهم «أبو سعيد الخدرى، وزيد بن أرقم، وجابر بن عبد الله الأنصارى، وابن عباس، والبراء بن عازب، وحذيفة، وأبو هريرة، وابن مسعود، وعامر بن أبى ليلى، وجاء فى رواياتهم أن هذه الآية نزلت بشأن على عليه السلام وواقعه يوم الغدير.

واللطيف أن بعض هذه الروايات نُقلت بطرق متعددة منها:

رواية أبى سعيد الخدرى عن أحد عشر طريقاً.

رواية ابن عباس عن أحد عشر طريقاً أيضاً.

ورواية البراء بن عازب نُقلت عن ثلاثة طرق.

ومن بين الذين أوردوا هذه الروايات (بشكل واسع أو بالاجمال) فى كتبهم، العلماء

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣٨

المعروفون المدرجة أسماؤهم فيما يلى:

«أبو الحسن الواحدى النيشابورى فى أسباب النزول ص ١٥٠.

«ابن عساكر الشافعى نقلًا عن «الدر المنثور»، ج ٢، ص ٢٩٨.

«الفخر الرازى فى التفسير الكبير ج ٣، ص ٦٣٦.

«أبو اسحاق الحموينى فى «فرائد السمطين» (مخطوط).

«ابن الصباغ المالكى فى «الفصول المهمّة» ص ٢٧.

«جلال الدين السيوطى فى «الدر المنثور» ج ٢، ص ٢٩٨.

«القاضى الشوكانى فى «فتح القدير» ج ٣، ص ٥٧.

«شهاب الدين الالوسى الشافعى فى «روح المعانى» ج ٦، ص ١٧٢.

«الشيخ سليمان القندوزى الحنفى فى «ينابيع المودّة» ص ١٢٠.

«بدر الدين الحنفى فى عمدة القارى فى «شرح صحيح البخارى» ج ٨، ص ٥٨٤.

«الشيخ محمد عبده المصرى فى تفسير المنار ج ٦، ص ٤٦٣.

«الحافظ ابن مردويه (المتوفى عام ٤١٨ هـ. ق) (على ضوء نقل السيوطى فى الدر المنثور) وكثير غيرهم.

وبالطبع لاينبغى نسيان أن بعض هؤلاء العلماء فى الوقت الذى ينقلون به الرواية وشأن النزول فإنهم يمرون بها مرور الكرام للأسباب التى سنشير إليها لاحقاً، أو يبادرون إلى نقدها، حيث سنتطرق إلى بحث أقوالهم بشكل دقيق فى البحوث القادمة إن شاء الله.

حادثة الغدير:

اتضح من البحث السابق وبشكل إجمالي أن هذه الآية وعلى ضوء الشواهد التي لا تحصى قد نزلت بحق على عليه السلام، وأن الروايات التي نقلت في الكتب المعروفة لأهل السنة - فضلاً عن كتب الشيعة - أكثر من أن يستطيع أحد إنكارها. وبالإضافة إلى الروايات أعلاه، فلدينا روايات أخرى تفيد بصريح القول: إن هذه الآية وردت أثناء واقعة الغدير وخطبة النبي صلى الله عليه وآله في التعريف بعلي عليه السلام على أنه الوصي والولي،
نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٣٩

وعدها يربو على الروايات السابقة، حتى أن المحقق الكبير العلامة «الأميني» ينقل في كتاب الغدير، حديث الغدير عن ١١٠ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله بالاسناد والوثائق الحية، وكذلك عن ٨٤ من التابعين و ٣٦٠ من مشاهير علماء المسلمين ومؤلفيهم.

إن كل من يلقي نظرة على مجموعة هذه الأسانيد والوثائق يدرك بأن حديث الغدير من أكثر الروايات الإسلامية جزمًا، ومصداقًا واضحًا للحديث المتواتر، ومن يشك في تواتره، فعليه أن لا يؤمن بأي حديث متواتر. وحيث إن الولوج في هذا البحث بنحوٍ واسعٍ يخرجنا عن أسلوب كتابه تفسير موضوعي، فنكتفي بهذا القدر بشأن اسناد الرواية وشأن نزول هذه الآية، ونتطرق إلى مضمون الرواية، ونرشد من يريد المزيد من المطالعة حول إسناد الرواية إلى الكتب التالية:

- ١- كتاب الغدير، ج ١.
- ٢- احقاق الحق، تأليف العلامة الكبير القاضي «نور الله التستري» مع شرح مفصل لآية الله النجفي، ج ٢ و ٣ و ١٤ و ٢٠.
- ٣- المراجعات للمرحوم السيد «شرف الدين العاملي».
- ٤- عبات الأنوار للعالم الكبير «ميرحامد الحسيني الهندي» (من الأفضل مراجعته خلاصة العبات، ج ٧ و ٨ و ٩).
- ٥- دلائل الصدق، تأليف العالم الكبير المرحوم «المظفر»، ج ٢.

مضمون روايات الغدير:

وهنا تأتي بقصة الغدير بشكل مختصر كما يستفاد من مجموع الروايات أعلاه، (وطبعاً فإن هذه الواقعة قد وردت في بعض الروايات بشكل مفصل ومطول، وفي بعضها بشكل مختصر وقصير، وفي بعضها اشير إلى جانب من هذه القصة وفي البعض إلى جانب آخر، ومنها جميعاً يستفاد ما يلي):

في السنة الأخيرة من حياة النبي صلى الله عليه وآله اقيمت مراسم حجة الوداع بكل جلال بمشاركة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٠

النبي صلى الله عليه وآله، وكانت الأفتدة تمتلئ بالمعنويات ولم تزل اشعاعات هذه اللذة المعنوية وهذه العبادة العظيمة تنعكس في النفوس.

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الذين كان عددهم كثيراً للغاية لا تسعهم أنفسهم نتيجة لإدراكهم هذا الفيض والسعادة العظيمة «١».

ولم يكن أهل المدينة وحدهم الذين يرافقون رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا السفر، بل كان المسلمون من مختلف بقاع الجزيرة العربية برفقته صلى الله عليه وآله لنيل هذا الفخر التاريخي العظيم.

وكانت شمس الحجاز تضيء على الجبال والأودية حرارة لا تطاق، إلّا أنّ حلاوة هذا السفر المعنوي النادر كانت تيسر كل شيء، وقد

اقترب الظهر، وأخذت منطقة الجحفة، وصحراء «غدير خم» الجافة الرضاء تبدو للعيان.

ومن هذا المكان الذى يتشعب إلى أربعة طرق يفرق أهل الحجاز، فطريق يتجه إلى الشمال نحو المدينة، وطريق إلى الشرق نحو العراق، وطريق إلى الغرب نحو مصر، وطريق إلى الجنوب نحو اليمن، وهنا يجب أن تُطرح آخر المستجدات فى هذا السفر، ويتفرق المسلمون بعد استلامهم لآخر حكم وهو فى واقع الأمر كان خط النهاية فى الواجبات الناجحة للنبي صلى الله عليه وآله.

كان ذلك فى يوم الخميس من السنة العاشرة للهجرة، وقد مضت عشرة أيام على عيد الأضحى، وفجأة صدر الأمر من الرسول صلى الله عليه وآله إلى الذين معه بالتوقف، ونادى المسلمون بأعلى أصواتهم أصحابهم الذين تقدموا الركب بالتوقف والعودة، وامهلوا المتأخرين حتى يصلوا، وزالت الشمس وصدح صوت مؤذن رسول الله صلى الله عليه وآله بالأذان: الله أكبر، داعياً الناس إلى صلاة الظهر، وسرعان ما استعد الناس للصلاة، إلا أن حرارة الجو كانت إلى الحد الذى اجبر البعض على أن يغطى أرجله بقسم من ازاره ويستتر رأسه بالقسم الآخر، وإلا فإن حصى الصحراء وأشعة الشمس ستحرق أرجلهم ورؤوسهم.

(١) ذكر البعض أن عدد الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ٩٠ ألفاً، والبعض ١١٢ ألفاً، وبعض ١٢٠ ألفاً، وبعض ١٢٤ ألفاً. نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤١

فلا خيمة فى الصحراء، ولا خضرة، ولا نبات، ولا شجرة، سوى بعض الأشجار البرية الجرداء التى تقاوم حرارة الصحراء، والتى لاذ بها البعض، ووضعوا قطعة من القماش على إحداها وجعلوها ظلًا لرسول الله صلى الله عليه وآله، إلا أن الرياح اللاهبة تهب تحتها وتلفها بحرارة الشمس المحرقة.

وانتهت صلاة الظهر، وعزم المسلمون على اللجوء إلى خيامهم الصغيرة التى كانوا يحملونها معهم، بيد أن النبي صلى الله عليه وآله أوعز لهم بالاستعداد لسماع بلاغ إلهى جديد يوضح ضمن خطبة مفصلة، ولم يكن بمقدور البعيدين عن رسول الله صلى الله عليه وآله رؤية وجهه الملكوتى وسط زحام الناس، لذا فقد صنعوا له منبراً من أربعة من أحداج الإبل، فارتقاء النبي صلى الله عليه وآله، وفى البداية حمد الله واثنى عليه واستعاذ به، ثم خاطب الناس قائلاً:

«أيها الناس: يوشك أن أدعى فأجيب.

أنا مسؤول، وأنتم مسؤولون.

فكيف تشهدون بحقى؟

فصاح الناس: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجاهدت فجزاك الله خيراً، ثم قال:

ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله إليكم، وأن البعث حق، وأن الله يبعث من فى القبور؟! فقالوا: نشهد بذلك، قال: اللهم اشهد، ثم قال:

أيها الناس أستمعوني؟ قالوا: نعم، ثم عمّ السكوت الصحراء فلم يسمع إلا صوت الريح، فقال صلى الله عليه وآله: فانظروا ماذا صنعتم بالتقلين من بعدى؟

فقال رجل من بين القوم: ما هذان الثقلان يارسول الله؟!!

قال صلى الله عليه وآله: أما الثقل الأكبر فهو كتاب الله حبل ممدود من الله إليكم، طرفه بيد الله والطرف الآخر بأيديكم، فلا تدعوه، وأما الثقل الأصغر فهم عترتى وقد أخبرنى اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فلا تتقدموهما فتهلكوا ولا تتأخروا عنهما فتهلكوا.

ونظر الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يلتفت حوله، وكأنه يبحث عن أحد، ولما وقعت

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٢

عيناه على على عليه السلام التفت إليه وأخذ بيده ورفعها حتى بان بياض ابطيها، وشاهدهما جميع القوم، وعرفوا أنه ذلك الفارس المقدم، وهنا ارتفع صوت النبي صلى الله عليه وآله، وقال: أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال النبي صلى الله عليه وآله: الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين وأولى منهم بأنفسهم، ثم قال: فمن كنت مولاه فعلى مولاه، وكرر هذا الكلام ثلاث مرات، وكما قال أرباب الحديث: إنه كرره أربعاً، ثم رفع رأسه نحو السماء، وقال:

اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، واحب من أحبه وابعض من أبغضه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار.
ثم قال صلى الله عليه وآله: إلفليليغ الشاهد الغائب».

هنا انتهت خطبة الرسول صلى الله عليه وآله وكان العرق يتصبب من النبي صلى الله عليه وآله وجميع من حضر، وما زال الناس لم يتفرقوا من ذلك المكان حتى نزل عليه الوحي وقرأ هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله: «اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الله أكبر، الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الرب برسالتى والولاية لعلى من بعدى».

فى هذه الأثناء عم الناس النشاط والحركة، وأخذوا يهتفون علياً عليه السلام بهذا المقام، وكان من الذين هتأوه، أبو بكر وعمر حيث نطقا بهذه العبارة أمام أعين الحاضرين:

«بخ، بخ لك يا ابن أبى طالب أصبحت وأمست مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة».

أثناء ذلك قال ابن عباس: «والله أنه عهد سيبقى فى أعناقهم»، واستأذن النبي صلى الله عليه وآله الشاعر المعروف «حسان بن ثابت» لينشد شعراً بهذه المناسبة، ثم استهل قصيدته المعروفة:

يناديهم يوم الغدير نبيهم بخم وأسمع بالرسول مناديا

فقال فمن مولاكم ونبيكم؟ فقالوا ولم يبدو هناك التعاميا

إلهك مولانا وأنت نبينا ولم تلق منا فى الولاية عاصيا

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٣ فقال له قم يا على فإننى رضيتك من بعدى إماماً وهاديا

فمن كنت مولاه فهذا وليه فكونوا له أتباع صدق مواليا

هناك دعا اللهم وال وليه وكن للذى عادى علياً معاديا «١»

دراسة وتحليل حول آية التبليغ:

لو تغاضينا عن جميع الروايات الواردة بشأن نزول الآية الآنف الذكر، وكذا الروايات الواردة حول واقعة الغدير، وأمنا النظر بمضمون الآية نفسها وما تلاها من الآيات، نستطيع من خلال عمق هذه الآيات اتخاذ موقف ازاء مسألة خلافة النبي صلى الله عليه وآله.

والتوضيح: إن الآية المذكورة باختلاف التعابير التى وردت فيها تؤكد على أنها ناظرة إلى قضية ذى ثلاث مزايا مهمّة:

١- إنها قضية تحظى بأهميّة فائقة من وجهة نظر الإسلام إلى الحد الذى يؤمر النبي صلى الله عليه وآله بإبلاغها، وإن لم يفعل فما بلغ رسالة الله! وبتعبير آخر فقد كانت أمراً مرادفاً لقضية النبوة، فإن لم يؤدّها تبقى رسالة النبي صلى الله عليه وآله ناقصة!

ومن البديهي أنه ليس المراد أن هذا أمر الهى عاد وكل أمر الهى لا يبلغ لم تبلغ رسالة الله، فهذا الكلام من قبيل توضيح الواضح وغنى عن البيان، بينما ظاهر الآية هو أن القضية المشار إليها تحظى باهتمام خاص من حيث إنها خلاصة الرسالة والنبوة.

٢- إن هذه القضية لا تتعلق بالصلاة والصوم والحج والزكاة وما شابه ذلك من قواعد تعاليم الإسلام، لأنها من آيات سورة المائدة، ونحن نعلم أن سورة المائدة هى آخر سورة نزلت على النبي صلى الله عليه وآله (أو من أواخر السور) أى فى آواخر عمر النبي صلى

الله عليه وآله المبارك حيث كان قد تم بيان كافة الأركان المهمة للإسلام «٢».

(١) روى هذا الشعر جماعة من كبار علماء السنة منهم، الحافظ «أبو نعيم الإصفهاني»، والحافظ «أبو سعيد السجستاني»، و«الخوارزمي المالكي»، والحافظ «أبو عبد الله المرزباني»، و«الكنجي الشافعي»، و«جلال الدين السيوطي»، و«سبط بن الجوزي»، و«صدر الدين الحموي».

(٢) يقول الفخر الرازي في ذيل هذه الآية، قال أصحاب الآثار أنه لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وآله لم يعمر بعد نزولها إلا أحد وثمانين يوماً، أو اثنين وثمانين يوماً، التفسير الكبير، ج ١١، ص ١٣٩؛ وجاء في تفسير المنار أيضاً وبعض الكتب الأخرى أن سورة المائدة جميعها نزلت في حجة الوداع (تفسير المنار، ج ٦، ص ١١٦) وبالطبع فقد نقل البعض بشأن عدد الأيام أعلاه، أقل من ذلك.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٤

٣- إن عبارات الآية تدل على أن القضية المقصودة من الآية كانت مسألة قد اتخذ البعض ازاءها موقفاً متصلباً، ولربما تعرضت حياة النبي صلى الله عليه وآله إلى الخطر بسببها، من هنا أعلن الباري تعالى دعمه الخاص لنيبه في هذا الصدد وقال:

«وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ».

ثم يؤكد تعالى في نهاية الآية:

«إِنَّ اللَّهَ لَيَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ».

وهذه العبارة بحد ذاتها دليل على المواقف السلبية لبعض المخالفين.

إن مجموع هذه الأمور الثلاثة التي تستتج من الآية تؤكد على أن المراد منها ليس إلا ابلاغ خلافة ووصاية النبي صلى الله عليه وآله. نعم، فمثل هذا الأمر يمكن أن يحظى بالبحث والتمعن في آواخر حياة النبي صلى الله عليه وآله، وليس سائر دعائم الإسلام التي كانت قد بُنيت آنذاك، ومثل هذا الأمر باستطاعته أن يكون مرادفاً للنبوة ومماثلاً لها، وربما تثار الاعتراضات نتيجة لظهور مثل هذا الأمر قبل هذا الوقت ويكمن فيه الخوف من الخطر.

إن أي تفسير آخر يعطى لهذه الآية عدا ما يتعلق بالولاية والإمامة والخلافة، لا ينسجم معها.

فلو طالعت جميع كلمات المفسرين الذين أرادوا صرف مضمون الآية إلى قضايا أخرى لم يستطع أي منهم أن يُشير إلى الأمر الذي تؤكد عليه الآية، وهذا ما حدا بهم إلى أن يتوقفوا عن تفسيرها.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٥

توضيحات

١- معنى الولاية والمولى في حديث الغدير

لقد اطلعنا على حديث الغدير المتواتر بشكل إجمالي، والعبارة المشهورة التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع الكتب وهي: «من كنت مولاه فعلي مولاه» توضح الكثير من الحقائق، وإن أصرَّ كثيرٌ من كتاب أهل السنة على تفسير كلمة «المولى» بمعنى الصديق والمحبِّ والناصر، لأنَّ هذا أحد المعاني المعروفة لـ «المولى».

ونحن نسلم بأنَّ إحدى معاني «المولى الصديق والمحبِّ والناصر، إلَّا أنَّ ثمة قرائن عديدة تثبت أنَّ المولى في الحديث أعلاه تعني

«الولى والمشرف والقائد» وهى كما يلى بإيجاز:

١- إن قضية محبة على عليه السلام مع جميع المؤمنين لم تكن أمراً خفياً وسرياً ومعقداً، بحيث يحتاج إلى هذا التأكيد والايضاح، وبحاجة إلى إيقاف ذلك الركب العظيم وسط الصحراء القاحلة الساخنة والقاء خطبة عليهم لأخذ الاقرارات من ذلك الجمع.

فالقرآن يقول بصريح القول: «أَتَمَّ الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةً». (الحجرات / ١٠)

وفى موضع آخر يقول: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». (التوبة / ٧١)

والخلاصة: إن الاخوة الإسلامية ومودة المسلمين مع بعضهم من أكثر المسائل الإسلامية بدهاء، حيث كانت موجودة منذ انطلاقة الإسلام، وطالما أكد عليها النبى صلى الله عليه وآله مراراً بالإضافة إلى عدم كونها مسألة تحتاج إلى بيان بهذا الاسلوب الحاد فى الآية، وأن يشعر النبى صلى الله عليه وآله بالخطر من البوح بها (تأملوا جيداً).

٢- إن عبارة: «أَلَسْتُ أُولَىٰ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» الواردة فى الكثير من الروايات لا تناسب أبداً مع بيان مودة عاديه، بل إنه يريد القول إن تلك الأولوية والصلاحيات التى لى تجاهكم وكونى نبيكم وإمامكم وقائدكم، فإن كل ذلك ثابت لعلى عليه السلام وأن أى تفسير لهذه العبارة غير ما قيل فهو بعيد عن الانصاف والواقعية، لاسيما مع الأخذ بنظر الاعتبار جملة «من أنفسكم» (أنا أولى بكم من أنفسكم).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٦

٣- التهانى التى قدمها من حضر فى هذه الواقعة التاريخية لعلى عليه السلام، لاسيما التهانى التى قدمها أبو بكر وعمر، إذ إنها تبرهن على أن القضية لم تكن سوى تعيينه للخلافة التى تستحق التبريك والتهانى، فالاعلان عن المودة الثابتة لدى كل المسلمين بشكل عام لا يحتاج إلى تهنئة.

جاء فى مسند الإمام أحمد أن عمراً، قال لعلى بعد خطبة النبى صلى الله عليه وآله: «هنيئاً لك يا ابن أبى طالب أصبحت وأمست مولى كل مؤمن ومؤمنة» (١).

ونقرأ فى العبارة التى ذكرها الفخر الرازى فى ذيل الآية: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ» إن عمراً قال: «هنيئاً لك أصبحت مولى ومولى كل مؤمن ومومنة، وبهذا فإن عمراً يعده مولاة ومولى المؤمنين جميعاً».

وفى تاريخ بغداد جاءت الرواية بهذا الشكل: «بخ بخ لك يا ابن أبى طالب! أصبحت مولى ومولى كل مسلم» (٢).

وجاء فى «فيض القدير»، و «الصواعق»، أن أبا بكرٍ وعمراً باركا لعلى بالقول: «أمست يا ابن أبى طالب مولى كل مؤمن ومؤمن» (٣).

ومن نافلة القول: إن المودة العادية بين المؤمنين ليست لها مثل هذه المراسيم، وهذا لا ينسجم إلّامع معنى الولاية التى يفيد الخلافة.

٤- إن الشعر الذى نقلناه آنفاً عن «حسان بن ثابت» بذلك المضمون والمحتوى الرفيع، وتلك العبارات الصريحة والجلية شاهد آخر على هذا الادعاء، وتشير إلى هذه القضية بما فيه الكفاية (راجعوا تلك الآيات مرة أخرى).

٢- آيات أخرى فى القرآن تؤيد حديث الغدير

روى كثيرٌ من المفسرين ورواه الحديث فى ذيل الآيات الاولى من سورة المعارج:

(١) مسند أحمد، ج ٤، ص ٢٨١ (على ضوء نقل الفضائل الخمسة، ج ١ ص ٤٣٢).

(٢) تاريخ بغداد، ج ٧، ص ٢٩٠.

(٣) فيض القدير، ج ٦، ص ٢١٧؛ الصواعق، ص ١٠٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٧

«سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ». (المعارج / ١-٣)

سبب النزول وخلاصته:

إن النبي صلى الله عليه وآله عيّن علياً خليفته يوم غدیر خم وقال بحقه: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، فمالبث أن انتشر الخبر، فجاء «النعمان بن الحارث الفهري»- (وكان من المنافقين) «١»- إلى النبي صلى الله عليه وآله وقال: لقد أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنتك محمد رسول الله، فشهدنا، ثم أمرتنا بالجهاد والحج والصلاة والزكاة فقبلنا، فلم ترض بكل ذلك، حتى أقمت هذا الفتى «مشيراً إلى علي عليه السلام خليفته لك، وقلت: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ فَهَلْ هَذَا مِنْكَ أَمْ مِنَ اللَّهِ؟» قال النبي صلى الله عليه وآله: «والله الذي لا معبود سواه إنّه من الله»، فالتفت إليه «النعمان بن الحارث»، وقال: «إلهي إن كان هذا حقاً منك فانزل علينا حجارة من السماء». وفجأة نزلت حجارة من السماء على رأسه وقتلته فنزلت آية «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ».

ما ورد أعلاه يطابق الرواية التي نقلت في مجمع البيان عن أبي القاسم الحسكاني «٢» وقد نقل هذا المضمون الكثير من مفسري أهل السنة ورواه الأحاديث مع شيء من الاختلاف، مثل: القرطبي في تفسيره المعروف «٣»، والآلوسي في تفسير روح المعاني «٤»، وأبو اسحاق الثعلبي في تفسيره «٥».

وينقل العلامة الأميني هذه الرواية في كتاب الغدير عن ثلاثين من علماء السنة (مع ذكر المصدر ونص العبارة)، منها السيرة الحلبية، «فرائد السمطين» للحموي، و«درر السمطين» للشيخ محمد الزرندی، و«السراج المنير» لشمس الدين الشافعي، و«شرح الجامع الصغير» للسيوطي، و«تفسير غريب القرآن» للحافظ أبو عبيد الهروي، و«تفسير

(١) جاء في بعض الروايات أنه «الحارث بن النعمان» وفي بعضها «النضر بن الحارث».

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٩ و ١٠، ص ٣٥٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٠، ص ٦٧٥٧.

(٤) تفسير روح المعاني، ج ٢٩، ص ٥٢.

(٥) وفقاً لنقل نور الابصار للشبلنجي، ص ٧١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٨

شفاء الصدور» لأبي بكر النقاش الموصلي، وكتب اخرى

وقد أورد بعض المفسرين أو المحدثين الذين يُقرّون بفضائل علي عليه السلام على مضمّن إشكالات مختلفة على سبب النزول هذا، أهمها الإشكالات الأربعة التالية التي أوردتها صاحب تفسير المنار وآخرون بعد ذكرهم لهذه الرواية: الإشكال الأول: إن سورة المعارج مكية، ولا تتناسب مع واقعة غدیر خم.

والجواب: إن كون السورة مكية لا يعتبر دليلاً على أنّ جميع آياتها نزلت في مكة، فلدينا العديد من سور القرآن الكريم التي تُدعى بالمكية وكتبت في جميع المصاحف على أنّها مكية، بيد أنّ عدداً من آياتها نزلت في المدينة، وكذا العكس، فعلى سبيل المثال أنّ سورة العنكبوت من السور المكية، والحال أنّ آياتها العشر الأولى نزلت في المدينة، على ضوء قول الطبري في تفسيره المعروف، والقرطبي في تفسيره وآخرين من العلماء «١».

أو سورة الكهف المعروفة بأنّها مكية بينما نزلت آياتها السبع الأولى في المدينة استناداً لتفسير «القرطبي»، و«الاتقان» للسيوطي، وتفسير عديدة «٢».

وهكذا فهناك سورٌ عُدّت بأنّها مدنية بينما نزلت آيات منها في مكة، مثل سورة «المجادلة» فهي مدنية كما هو معروف، إلّا أنّ الآيات

العشر الاولى منها نزلت في مكة، طبقاً لتصريح بعض المفسرين «٣».

وموجز الكلام أنه توجد حالات كثيرة بأن تذكر سورة على أنها مكية أو مدنية، ويكتب عليها في التفاسير والمصاحف هذا الاسم إلا أن جانباً من آياتها قد نزل في موضع آخر.

وعليه فلا مانع أبداً من أن تكون سورة المعارج هكذا أيضاً.

الاشكال الثاني: جاء في هذا الحديث أن الحارث بن النعمان جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله في الأبطح، ونحن نعلم أن الأبطح اسم لوادي مكة، ولا تتلائم مع نزول الآية بعد واقعه الغدير بين مكة والمدينة.

(١) تفسير جامع البيان، ج ٢٠، ص ٨٦؛ وتفسير القرطبي ج ١٣، ص ٣٢٣.

(٢) للمزيد من الاطلاع على الموضوع، راجعوا الغدير، ج ١، ص ٣٥٦، و ٢٥٧.

(٣) تفسير أبي السعود الذي كتب على هامش تفسير الرازي، ج ٨ ص ١٤٨؛ والسراج المنير، ج ٤، ص ٣١٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٤٩

الجواب: أولاً: إن عبارة الأبطح في بعض الروايات فقط لا في جميعها، وثانياً: إن «الأبطح والبطحاء» تعني الأرض الرملية التي يجري فيها السيل، وهنالك مناطق في المدينة وسائر المناطق يطلق عليها اسم الأبطح أو البطحاء أيضاً، واللطيف أنه قد اشير إليها مراراً في الشعر العربي.

منها: الشعر المعروف الذي أنشده «شهاب الدين» المشهور بـ «حيص بيص» في رثائه لأهل البيت عليهم السلام، عن لسانهم في مخاطبة قاتليهم:

ملكنا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وحللتكم قتل الاسارى وطالماغدونا عن الاسرى نعف ونصفح

ومن الواضح أن مقاتل أهل البيت عليهم السلام كانت على الأغلب في العراق وكربلاء والكوفة والمدينة، وما أريق دم في أبطح مكة أبداً، نعم استشهد بعض أهل البيت عليهم السلام في واقعه «الفخ» التي تبعد عن مكة ما يقرب من فرسخين، والحال أن الأبطح يجاور مكة «١».

وشاعر آخر يرثي الإمام الحسين عليه السلام سيد الشهداء قائلاً:

وتأن نفسي للربوع وقد غدابيت النبي مقطع الاطناب

بيت لآل المصطفى في كربلاضربوه بين اباطح وروابي

وثمة أشعار اخرى كثيرة ورد فيها تعبير «الأبطح» أو «الأباطح» لا تعني منطقة خاصة في مكة.

وملخص الكلام، صحيح أن أحد معاني الأبطح هو بقعة في مكة، إلا أن معنى ومفهوم ومصداق الأبطح لا ينحصر بتلك البقعة.

٣- كيفية ارتباط هذه الآية بما قبلها وبعدها

إن بعض المفسرين ومن أجل مجانية الحقيقة الكامنة في هذه الآية توصل بمبرر آخر

(١) الغدير، ج ١، ص ٢٥٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٠

نفحات القرآن ج ٩ ١٩٩

وهو: إن سياق الآيات السابقة واللاحقة بشأن أهل الكتاب لا تنسجم مع قضية الولاية والخلافة والإمامة، ولا تتناسب هذه الاثنية مع بلاغة وفصاحة القرآن (١).

إلما أن كافة المطلعين على كيفية جمع آيات القرآن يعرفون أن آيات القرآن نزلت تدريجياً وبمناسباتٍ مختلفة، من هنا فكثيراً ما تتحدث سورة ما حول قضايا مختلفة، فجانبٌ منها يتحدث عن الغزوة الفلانية، والجانب الآخر حول الحكم والتشريع الإسلامي الفلاني، وجانبٌ يخاطب المنافقين، وآخر يخاطب المؤمنين، فمثلاً لو طالعنا سورة النور لوجدناها تحتوى على جوانب متعددة، كلٌ منها ناظرٌ إلى موضوع، بدءاً من التوحيد والمعاد ومروراً بتنفيذ حدِّ الزنا وقصة «الافك»، والقضايا المتعلقة بالمنافقين، والحجاب، وغيرها، (وكذلك سائر السور الطوال إلى حدِّ ما) بالرغم من وجود ارتباط عام بين مجموعة أجزاء السورة.

والسر وراء هذا التنوع في المحتوى ما قيل: إن القرآن نزل تدريجياً وحسب المتطلبات والضرورات وفي مختلف الأحداث، وليس على هيئة كتاب كلاسيكي أبدأ بحيث يتابع موضوعاً معداً سلفاً، على هذا الأساس لا مانع على الإطلاق من أن تنزل مقاطع من سورة المائدة بشأن أهل الكتاب، ومقاطع منها في واقعة الغدير، بالطبع فمن وجهة النظر العامة أنّهما يرتبطان معاً إذ إن تعيين خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله يترك أثره على قضايا أهل الكتاب أيضاً، لأنه سيؤدى إلى ياسهم من انهيار الإسلام برحيل النبي صلى الله عليه وآله.

٤- لماذا لم يحتج الإمام على عليه السلام بحديث الغدير؟

إن البعض الآخر من اللاهثين وراء التبريرات يقول: إذا كان حديث الغدير يتمتع بهذه العظمة والواقعية فلماذا لم يحتج به على عليه السلام وأهل بيته وأصحابه ومحبوه عند الحاجة؟ ألم يكن من الأفضل أن يستندوا إلى مثل هذه الوثيقة المهمة من أجل إثبات خلافة على عليه السلام؟!

(١) تفسير المنار، ج ٦، ص ٤٦٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥١

إن هذا الإشكال شأنه شأن سائر الإشكالات فهو ناتج عن عدم الاطلاع الكافي على كتب الحديث والتاريخ والتفسير، فلقد رويت أحاديث عديدة في كتب علماء السنّة أنّ علياً عليه السلام أو الأئمة أو أنصارهم قد احتجوا بحديث الغدير، والمدهش هو: كيف غابت عن أنظار المشككين؟.

منها ما ينقله «الخطيب الخوارزمي الحنفي» في كتابه «المناقب» عن «عامر بن وائل» قال: كنت مع على عليه السلام يوم الشورى وسمعتة يقول لهم: «لاحتجن عليكم بما لا يستطيع عربكم ولا عجمكم تغيير ذلك، ثم قال: أنشدكم الله أيها نفر جميعاً أفیکم أحد وخذ الله قبلي؟ فانشدكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره ليلبغ الشاهد الغائب، غيري» (١).

ونقل هذه الرواية الحموي في فرائد السمطين في الباب ٥٨، وابن حاتم في درر النظم، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة.

كما روى ابن حجر في الصواعق هذا المضمون عن الدار قطنى (٢).

وفي كتاب الغدير ذكر بحث شامل وبمصادر واسعة حول «مناشدة» أمير المؤمنين عليه السلام في مواطن عديدة، منها أيام عثمان، وأبان خلفته، يوم الجمل، ومرة أخرى في الكوفة يوم صفين، بالإضافة إلى المواضيع الستة عشر الأخرى المنقولة من احتجاجات فاطمة عليها السلام، والإمام الحسن عليه السلام، والإمام الحسين عليه السلام، وجماعة من الصحابة وغيرهم، التي تحكى عن المعلومات

الواسعة لهذا الكاتب الكبير من ناحية، ومن ناحية أخرى تبرهن على أن الاحتجاج بهذا الحديث كان موضع اهتمام على مدى القرون المختلفة، بالرغم من سعي السياسات الخاصة التي كانت مهيمنة على هذه القضية في التقليل من أهميتها قدر الإمكان. ونظراً إلى أن الغور في هذه البحوث الواسعة يخرجنا عن الهدف الذي نبتغيه، فإننا نكتفي بهذا المقدار ونحيل الراغبين إلى هذا المصدر «٣» وسائر المراجع.

(١) المناقب، ص ٢١٧.

(٢) الغدير، ص ١٦١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٥٩-٢١٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٣

٢- آية الولاية

إشارة

الآية الاخرى التي تعقب قضية الإمامة الخاصة، تقول:

«إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ». (المائدة/ ٥٥)

سبب النزول:

إشارة

روى الكثير من المفسرين والمحدثين في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت بحق علي عليه السلام. فقد نقل السيوطي في «الدر المنثور» عن ابن عباس: إن علياً كان راعياً وإذا سائل فأعطاه خاتمه، فسأله النبي صلى الله عليه وآله من الذي أعطاك هذا الخاتم؟ فأوماً إلى علي عليه السلام وقال: ذلك الراكع، فنزلت آية: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ...» «١».

وفي الكتاب نفسه رويت روايات عديدة بنفس المضمون عن «ابن عباس»، و«سلمة بن كهيل» وعن علي عليه السلام نفسه «٢».

وروى المعنى نفسه في كتاب «أسباب النزول» للواحدى عن «جابر بن عبد الله»، وكذا عن «ابن عباس» «٣».

يقول المفسر الشهير «جار الله الزمخشري» في كتاب «الكشاف»: «إنها نزلت في

(١) تفسير در المنثور، ج ٢، ص ٢٩٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أسباب النزول، ص ١٤٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٤

على عليه السلام حين سأله سائل وهو راعع في صلاته فطرح له خاتمه «١»، وينقل الفخر الرازي في تفسيره عن «عبد الله بن سلام»:

لما نزلت هذه الآية، قلت: يارسول الله أنا رأيت علياً تصدق بخاتمه على محتاج وهو راعع فنحن نتولاه

كما ويروى عن أبي ذر قوله: صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللهم اشهد أنى سألت في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فما أعطاني أحد شيئاً، وعلى عليه السلام كان راکعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى وكان فيها خاتم، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم بمرأى النبي صلى الله عليه وآله فقال: «اللهم إن أخى موسى سألك فقال: رب اشرح لى صدرى- وأشركه فى أمرى فأنزلت قرآنا ناطقاً «سنشُدُّ عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً» فنزلت الآية «٢».

وبطبيعته الحال فإن للفخر الرازى- وكالعادة- شبهات على كيفية دلالة هذه الآية على الإمامة حيث سنشير إليها لاحقاً. ويروى الطبرى أيضاً فى تفسيره روايات عديدة فى ذيل هذه الآية وسبب نزولها، إذ تفيد أكثرها أن هذه الآية نزلت بحق على عليه السلام «٣».

وأوردت طائفة أخرى هذه الرواية بعبارات مختلفة فى حق على عليه السلام، منها فى كنز العمال ج ٦، ص ٣١٩ حيث ينقل هذه الرواية عن ابن عباس.

كما ينقل «الحاكم الحسكاني» الحنفى النيشابورى من علماء القرن الخامس المعروفين فى «شواهد التنزيل» بخمسة طرق عن «ابن عباس»، واثنين عن «انس بن مالك»، ومثلهما عن «محمد بن الحنفية»، وواحد عن «عطاء بن السائب»، ومثله عن «عبد الملك بن جريح المكي» عن النبي صلى الله عليه وآله «إنما آية «إنما وليكم الله» نزلت بحق على عليه السلام عندما تصدق بخاتمه وهو راکع «٤».

(١) تفسير الكشاف، ج ١، ص ٦٤٩.

(٢) تفسير الكبير، ج ١٢، ص ٢٦.

(٣) تفسير جامع البيان، ج ٦، ص ١٨٦.

(٤) للمزيد من الاطلاع على الطرق المذكورة، راجعوا شواهد التنزيل ص ١٦١-١٦٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٥

ونقل المرحوم العلامة الأمينى هذه الرواية ونزول هذه الآية بحق على عليه السلام عن كثير من كتب السنّة فقارب العشرين كتاباً (مع ذكر دقيق لمصادرها ووثائقها)، وبإمكان الراغبين مراجعته ذلك الكتاب للمزيد من الاطلاع «١».

ونقل هذا المعنى فى كتاب احقاق الحق عن كثير من الكتب «٢».

والأمر اللطيف الآخر هو أن شاعر الرسول صلى الله عليه وآله المعروف «حسان بن ثابت» أورد هذه القضية فى شعره على أنها مسألة تاريخية مُسلم بها.

فهو يقول فى شعره مخاطباً علياً عليه السلام:

وأنت الذى أعطيت إذ كنت راکعاً كاهاً فدتك النفس ياخير راکع

فانزل فيك الله خير ولاية وبينها فى محكمات الشرائع «٣»

ونقرأ فى القصيدة الاخرى التى رواها «سبط بن الجوزى» عن «حسان»:

من ذا بخاتمه تصدق راکعاً وأسرها فى نفسه اسراراً! «٤»

وموجز القول: إن نزول هذه الآية بحق على عليه السلام ليس بالأمر الذى يُشكك أو يرتاب فيه حتى أن مؤلف «منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة»، يقول: لقد نقلت روايات «متظافرة» بل متواترة عن طرق أهل السنّة وأتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام بهذا الصدد. والمهم هو تبيين كيفية دلالتها على الولاية وخلافه النبي صلى الله عليه وآله.

كيفية دلالة الآية على الخلافة:

لقد استند في الآية المذكورة على مفهوم كلمة «الولي»، وذكر الإمام علي عليه السلام على أنه

(١) الغدير، ج ٢، ص ٥٢ و ٥٣.

(٢) احقاق الحق، ج ٢، ص ٣٩٩-٤٠٧.

(٣) روى شعر حسان بن ثابت في كثير من الكتب باختلاف بسيط، منها في تفسير روح المعاني، وكفاية الطالب للكنجي الشافعي وكتب اخرى

(٤) تذكرة الخواص، ص ١٠، ونقله الكنجي الشافعي أيضاً في كفاية الطالب ص ١٢٣ وعد قائله بعدة شعراء. نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٦

ولي المسلمين، صحيح أن لكلمة الولي معاني عديدة كما أشرنا إليها آنفاً، فتارة تعني الناصر والصديق، واخرى جاءت بمعنى المتصرف والحاكم المشرف وكما يقول الراغب: إن أصلها بمعنى أن يحصل شيان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما ثم يضيف: «الولاية» بكسر الواو بمعنى «النصرة» و «الولاية» بفتح الواو تعني تولى الأمر «١».

أمّا القرينة الموجودة في الآية فهي تدلّ على أنّ «الولي» هنا تعني المتولى والمشرف وصاحب الخيار لأنها لو كانت تعني الناصر والصديق والمعين لشملت المؤمنين جميعاً، كما نقرأ في الآية: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». (التوبة/ ٧١) بيد أنّ الولاية في آية البحث اعتبرت منحصرة في حالة خاصة بذلك المتصدق في ركوعه، وكلمة «إنما» التي تفيد الحصر جاءت معها (تأملوا جيداً).

إنّ هذا التعبير يجعلنا نتيقن بأنّ «الولاية» في الآية الآتية الذكر لا تعني الصداقة والنصرة (وكذا سائر المعاني المشابهة والقريبة لهذا المعنى، وعلى هذا الأساس فلا مجال إلّا أن تكون بمعنى المتولى وصاحب الأمر المشرف، الذي توازي ولايته ولاية الله والنبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

والآية التالية: «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِيُونَ».

وحقيقته هذه الآية أنّها تنمّ لمضمون الآية المذكورة، وتلاحظ فيها قرينة اخرى على تفسير الولاية بمعنى تولى الأمر والاشراف، لأنّ التعبير بـ «حزب الله» وانتصارهم على الأعداء يتعلق بإقامة حكومة إسلامية لا على أساس الصداقة العادية، وهذا يفيد أنّ كلمة الولي في الآية تعني المشرف والحاكم والماسك بزمام امور الإسلام والمسلمين، لأنّ معنى «الحزب» هو ضربٌ من التنظيم والتضامن الاجتماعي من أجل تأمين اهداف مشتركة.

(١) مفردات الراغب، مادة (ولي) وذكر البعض ٢٧ معنى للمولى (الغدير، ج ١، ص ٣٦٢) إلّا أنّ اصول معانيها ذانك المعنيان والبقية ترجع إليهما.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٧

شبهات واعتراضات:

إنّ دلالة الآية على الإمامة والخلافة - كما رأينا - واضحة، ولو كانت هذه الآية قد نزلت بحق الآخرين ربّما لم يجر حولها أدنى جدال!

ولكن لكونها قد نزلت بحق على عليه السلام ولا تنسجم مع الغاية الناشئة عن الطائفية، فقد أصر البعض على إيراد الشبهات على صدر الآية وذيلها وسبب نزولها ودلالاتها من كل جانب.

ويمكن تصنيف هذه الشبهات إلى صنفين: فبعضها ذات صبغة علمية ظاهراً فيجب الرد عليها بصورة علمية، إلا أن البعض يستند إلى ما يُستشهد به، وكذلك وجود المبررات حسب زعم مثريها فينبغي أيضاً بحثها ونقدها بشكل إجمالي:

١- الشبهة الأولى التي تعتبر من الصنف الأول هي أن الضمائر والأسماء الموصولة التي في الآية جاءت بصيغة ضمير الجمع، مثل «الذين آمنوا» و «الذين يقيمون الصلاة» و «يوتون الزكاة» و «هم راعون» فكيف والحالة هذه تنطبق على فرد واحد.

فلاية تقول: إن أولياءكم هم الذين يتمتعون بهذه المزايا أي على بن أبي طالب عليه السلام.

والجواب: بالنظر إلى أن سبب نزول الآية الذي نقل بشكل مستفيض بل متواتر في كتب الشيعة والسنة لم يبق مجال للشك في أنها ناظرة إلى شخص واحد، وبتعبير آخر: إن الروايات والتاريخ الإسلامي يشهد بأن التصديق على السائل في حال الركوع يختص بعلي عليه السلام لأن القائم بالتصديق واحد، ولم تقم به مجموعة، من هنا لا بد من القول: إن التعبير بصيغة الجمع جاء من أجل احترام وتعظيم منزلة ذلك الشخص.

وكثيراً ما يُشاهد في الأدب العربي أن لفظ الجمع جاء تعبيراً عن المفرد، فمثلاً جاءت كلمة «نساء» في آية المباهلة بصورة الجمع، بينما المقصود منها فاطمة الزهراء عليها السلام فقط طبقاً لصريح سبب النزول، وفي نفس الآية جاءت كلمة «أنفسنا» بصيغة الجمع، والحال أن الجميع يسلمون بأن لا أحد شارك في المباهلة غير النبي صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام، وجاء في القرآن أيضاً في قصة «غزوة حمراء الأسد»: «الَّذِينَ قَالُوا لَهُمْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا نَحْنُ قَوْمٌ مُّؤْمِنُونَ فَاصْبِرُوا لِحُكْمِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» (آل عمران/ ١٧٣)

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٨

وهنا ذكر الناطق بهذا الكلام كلمة «الناس» التي تفيد الجمع بينما جاء في التاريخ أن القائل ليس سوى «نعيم بن مسعود».

وجاء أيضاً بشأن نزول الآية: «فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ...» (المائدة/ ٥٢)

إذ نعلم هنا أنها نزلت بشأن «عبد الله بن أبي»، والحال أن الضمائر هنا جاءت بصيغة الجمع.

كما أن الخطاب في الآية الأولى من سورة الممتحنة عامٌ بينما نزلت بشأن رجل يدعى «حاطب بن أبي بلتعة»، وفي الآية التالية جاء الضمير بصيغة الجمع أيضاً: «يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ...» بينما كان القائل هو «عبد الله بن أبي». (المنافقون/ ٨)

وكذلك في الآية: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...» (البقرة/ ٢٧٤)

التي نزلت في حق على عليه السلام طبقاً للكثير من الروايات، بينما ضمائرهما جميعاً جاءت بصيغة الجمع.

وجاءت الآية ٢١٥ من سورة البقرة المتعلقة بالسؤال عن الأشياء التي يجب أن ينفقوها:

«يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ» بصيغة الجمع بينما كان السائل هو شخص يدعى «عمرو بن الجموح» (١).

ولكن ما السبب في أن يأتي الكلام بصيغة الجمع في هذه الحالات مع أن المراد شخص واحد؟ ربما يكون سببه في بعض الحالات، الاحترام، وفي بعضها إشارة إلى مؤازرة الآخرين لذلك الشخص، وبالتعمّن في الحالات أعلاه يمكن تمييز حالات الاحترام عن حالات المؤازرة.

فضلاً عن كل ذلك فنحن نعلم أن ضمير الجمع «المتكلم مع الغير» قد استخدم في آيات القرآن في حالات لا حصر لها أثناء حديث الله عن نفسه، مع أن ذاته المقدسة لا نظير لها في الوجدانية والتفرد، وهو «أحد واحد» من جميع الجوانب، وهذا مرده إلى أن العظيم يمتلك جنوداً مطيعين وممثلين لأوامره في أداء ما يشاء، وهذا يؤدي إلى استخدام ضمير الجمع مع

(١) للمزيد من الاطلاع على مصادر هذه الروايات، يراجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ٢١٥ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٥٩

كونه مفرداً، وبتعبير آخر أنّ ضمير الجمع هذا دليل على عظمته وسمو مقامه.

٣- الشبهة الثانية هي أنّ من المسلم به أنّ علياً عليه السلام لم تكن له ولاية بمعنى الحكم وقيادة المسلمين في عصر النبي صلى الله عليه وآله، فكيف يتعين تفسير الآية هكذا؟ الجواب عن هذا السؤال واضح، فكثيراً ما شاهدنا خلال التعابير اليومية بأنّ يطلق اسم أو عنوان على أشخاص مرشحين أو منتخبين لذلك المنصب وإن لم يمارسوا العمل به بعد، أو بتعبير آخر: إنهم يتمتعون بذلك المقام بالقوة لا بالفعل.

فمثلاً يقوم إنسان في حياته بتعيين شخص ما «وصياً» له، وبالرغم من كونه حياً فإننا نقول: إنّ فلاناً وصيه أو القيم على أطفاله. فإطلاق الوصي والخليفة على علي عليه السلام في عهد النبي صلى الله عليه وآله كان من هذا القبيل أيضاً، حيث اختاره النبي صلى الله عليه وآله في حياته لهذا الأمر بإذن من الله، وأثبت له الخلافة بعد رحيله.

ويلاحظ هذا المعنى أيضاً في الآية الكريمة إذ يطلب زكريا من الله تعالى «هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا». (مريم / ٥)

واستجاب الله له ووهبه يحيى ومن المسلم به أنّ يحيى لم يكن خليفته ووليه ووارثه في حياته، بل عُيِّنَ لما بعد حياته. ويشاهد نظير هذا الكلام في واقعة «يوم الانذار» (اليوم الذي جمع به النبي صلى الله عليه وآله أقباءه ليدعوهم إلى الإسلام للمرة الأولى، فطبقاً لما ذكره «المؤرخون» الإسلاميون سواء من السنة أو الشيعة، أنّ النبي صلى الله عليه وآله أوماً إلى علي صلى الله عليه وآله في ذلك اليوم وقال:

«إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوه» (١).

فهل يتسبب التعبير أعلاه في خلق مشكلة في عهد النبي صلى الله عليه وآله؟

فلا شك في أنّ الجواب سيكون بالنفي، فالتعبير بالولي في آية البحث هو كما أشرنا إليه.

أمّا شبهات الفريق الثاني (التبريرات) فهي عديدة أيضاً منها:

١- قولهم: أي زكاة واجبة كانت متعلقة بدمه على عليه السلام وهو الذي لم يكن يجمع لنفسه

(١) روى هذا الحديث الكثير من علماء السنة مثل، ابن أبي جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي والثعلبي والطبري، وأورد ابن الأثير هذا الكلام في ج ٢ من كتاب الكامل، وكذلك «أبو الفداء» في الجزء الأول من تاريخه، وجماعة آخرون (للمزيد من الاطلاع انتظروا البحوث الآتية).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٠

من مال الدنيا أي شيء؟ وإذا كان المراد الصدقة المستحبة فلا يقال لها زكاة؟

الجواب: أولاً: إنّ موارد إطلاق الزكاة في القرآن الكريم على الزكاة المستحبة كثيرة، فكثيراً ماورد في العديد من السور المكية اسم «الزكاة» والمراد منها الزكاة المستحبة، إذ إنّ وجوبها كان بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة.

والآيات ٣ من سورة النمل، و ٣٩ من سورة هود، و ٤ من سورة لقمان من جملة الموارد التي جاءت فيها كلمة الزكاة، ونظراً لكون هذه السور مكية فإنّ المراد هو الزكاة المستحبة.

ثانياً: صحيح أنّ علياً عليه السلام لم يدخر من مال الدنيا إلاّ أنّه كانت تأتيه حصّة من بيت المال، ومن المتيقن أنّه كان يمتلك وارداً بسيطاً من مجهوده أيضاً، وأنّ الخاتم المذكور من الفضة والظاهر أنّه كان رخيصاً، على هذا الأساس فإنّ تعلق هذا القدر من الزكاة البسيطة به عليه السلام ليس مستبعداً أبداً، وأنّ المبالغة بما قالوه بشأن قيمة ذلك الخاتم لا أساس لها من الصحة على الاطلاق.

ثالثاً: ألا يتعارض الانتباه إلى السائل مع حضور القلب في الصلاة والاستغراق في مناجاة الخالق جل وعلا مع القول السائد عنه: (حتى عرف بأن نصلاً وقع في رجليه فأخرجوه أثناء الصلاة ولم يُحس) «١» فكيف يتسنى له الانتباه إلى السائل أثناء الصلاة؟!
 الجواب: إن الذي يورد هذا الإشكال غافل عن سماع صوت السائل ومساعدته فما قام به عليٌّ عليه السلام لا يعتبر توجهها إلى غير الله، أو إلى الذات أو الأمور الدنيوية، بل إنه في واقع الأمر توجه إلى الله.
 فقد كان القلب المقدس لعل عليه السلام يشعر بالسائلين، ويستجيب لندائهم فقد مزج عمله العبادي هذا بعبادة أخرى وتصدق أثناء الصلاة، وكلاهما كان لله وفي سبيله.
 ومثل هذا الإشكال في الحقيقة إشكال على القرآن الكريم، لأن الله تعالى قد امتدح في هذه الآية إعطاء الزكاة أثناء الركوع، ولو كان هذا العمل دليلاً على الغفلة عن ذكر الله فلا ينبغي أن يستند إليها كصفه سامية وفائقة الأهمية.

(١) نص الرواية هكذا، روى أنه وقع نصل في رجليه فلم يتمكن من اخراجه فقالت فاطمة عليها السلام أخرجوه في حال صلاته فإنه لا يحس بما يجري عليه حينئذ فأخرج وهو في صلاته (المحجبة البيضاء، ج ١، ص ٣٩٨- احقاق الحق، ج ٢، ص ٤١٤).
 نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦١

فهؤلاء المتعصبون يريدون في الواقع انكار فضل على عليه السلام فيشكلون على الله عز وجل.
 انتهوا هنا إلى كلام الرازي فهو يقول: «وهو أن اللائق بعلي عليه السلام أن يكون مستغرق القلب بذكر الله حال ما يكون في الصلاة، والظاهر أن من كان كذلك فإنه لا يتفرغ لاستماع كلام الغير ولفهمه» «١».
 علينا أن نسأل الفخر الرازي أن إذا كان هذا العمل خلافاً لآداب الصلاة وحضور القلب، فلماذا اتنى عليه البارئ جل وعلا، واعتبر ولاية المؤمنين حقيقة بمثل هذا الشخص؟!
 على أية حال، فلا مجال للشك في أن سماع صوت المحتاج والاستجابة له في حال الصلاة عبادة مضاعفة حصلت في آن واحد، وعلينا أن نعوذ بالله من التعصب الذي يبعدنا عن الحقائق.

٣- ومن جملة التبريرات التي طرحت هنا بصيغة إشكال هو: إن التصديق بالخاتم على السائل فعل كثير ويتعارض مع الصلاة!
 ليس هناك ما يدعو للعجب، فعندما يريد الإنسان أن لا يدعن للواقع فإنه يصطنع التبريرات ليحاجج بها، وهو على يقين بأن تبريراته واهية؟!
 والجواب: أولاً: إن عملية اخراج الخاتم تمت بإشارة بسيطة وعلى ضوء جميع الفتاوى فإن هذا العمل لا يعتبر فعلاً كثيراً ولا يوجب الإشكال في الصلاة، لا سيما إذا أشار الإمام عليه السلام بإشارة بسيطة، والسائل اخرجه بنفسه.
 ثانياً: لقد صرح الفقهاء بأن حتى قتل الحيوان اللادغ مثل «العقرب» أثناء الصلاة، أو رفع الطفل أثناء الصلاة، أو حساب عدد الركعات عن طريق الحصى، بل وحتى غسل جانب من اللباس أو اليد إذا تنجست أثناء الصلاة، لا يضر بالصلاة، بينما يعتبر إعطاء الخاتم للسائل أو اخراجه أبسط من ذلك بكثير.

٤- يقول المبررون: من اين جاء على عليه السلام بذلك الخاتم النفيس؟ وألم يكن التختم به إسرافاً؟

(١) التفسير الكبير، ج ١٢، ص ٣٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٢

الجواب: من الذي قال: إن ذلك الخاتم كان نفيساً، ولماذا نصغي ونصدق بمثل ذلك الهراء الفارغ، ونسير رويداً رويداً نحو إنكار آية قرآنية؟

لقد ورد في رواية واحدة مرسله وضعيفه أن قيمة ذلك الخاتم كانت تعادل خراج الشام! حيث من المسلم به أنها أكثر شياً بالخرافة لا بالحقيقة، ولعلها جعلت من قبل الذين وضعوها بقصد التقليل من قيمة هذه الفضيلة العظيمة.

إن في مثل هذه الحالات ليس المهم أن ينفق فيها بل المهم هو أن الإنسان نفسه محتاج إلى الشيء ويغض الطرف عنه في سبيل الله، ويكون هذا الفعل مقروناً بغاية الاخلاص في التية.

فعندما تنزل سورة كاملة في القرآن وهي (سورة هل أتى بسبب اعطاء بضعة اقراص من الخبز (وفي حالة من الجوع طبعاً) إلى المسكين واليتيم والأسير في سبيل الله، فما العجب في أن تنزل آية بشأن التصديق بخاتم على فقير أثناء الصلاة.

وأمثال هذه الشبهات التي يؤدي التترق إلى ذكرها والرد عليها إلى ضياع الوقت.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٣

٣- آية أولى الأمر

يقول تعالى في الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ». (النساء/ ٥٩)

في بحث الولاية العامة كان لنا كلام مفصل حول معنى هذه الآية ومن هم المقصودون فيها، وكما جرت الإشارة إليه فإن الأمر بالطاعة المطلقة ل «أولى الأمر» إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله دليل على أن «أولى الأمر» تشمل الذين هم في منزلة رسول الله صلى الله عليه وآله وأي أوصياؤه المعصومين، لأنه من المتعذر الطاعة المطلقة لغير المعصومين عليهم السلام.

وبالمناسبة فإن جميع الاحتمالات التي قيلت في تفسير «أولى الأمر» قد بحثت، ورأينا عدم وجود دلالة ومعنى صحيح لها إلا في الإمام المعصوم.

إن ما يجب أن نضيفه على ذلك هنا- في بحث الولاية الخاصة «خلافة على عليه السلام»، وهو بحث أكثر تفصيلاً حول الروايات التي وردت في المصادر الإسلامية المعروفة (لاسيما مصادر أهل السنة المشهورة) في دلالة هذه الآية على عليه السلام.

نقل المفسر المعروف «الحاكم الحسكاني» الحنفى النيشابورى خمس روايات في ذيل هذه الآية حيث دلت فيها جميعاً صفة «أولى الأمر» على عليه السلام (كمصداق جلي).

ففي الرواية الأولى ينقل عنه عليه السلام لما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: شركائى الذين قرنهم الله بنفسه وبى وأنزل فيهم «يأيتها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول» الآية ... قلت: يابى الله من هم؟ قال: أنت أولهم «١».

وفي الرواية الثانية ينقل عن المفسر المعروف «مجاهد» أن هذه الآية نزلت بحق أمير

(١) سنذكر مصادر هذه الروايات عند الانتهاء من الروايات الخمس.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٤

المؤمنين عليه السلام حينما خلفه على المدينة (عندما توجه إلى معركة تبوك).

وفي الرواية الثالثة ينقل هذا المعنى عن أبى جعفر الباقر عليه السلام، وفي الرواية الرابعة ينقل عن «سعد بن أبى وقاص»، قوله: «لما نزل رسول الله صلى الله عليه وآله لحقه على عليه السلام يحمل سلاحاً فقال: يارسول الله خلفتنى عنك ولم اتخلف عن غزوة قبلها وقد أرجف المنافقون بى أنك خلفتنى لما استثقلتنى!!! قال سعد: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يا على أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى فارجع اخلفنى فى أهلى وأهلك».

وروى عنه عليه السلام نفس هذا المعنى فى الرواية الخامسة «١».

وفى تفسير «البحر المحيط» تأليف «أبو حيان الأندلسى المغربى» ومن بين ما نقل حول معنى أولى الأمر، ينقل عن مقاتل وميمون

والكلبي (وثلاثهم من المفسرين): أن المراد منها امراء السرايا أو أئمة أهل البيت عليهم السلام (٢).

ثم آثار الموما إليه شبهتين على نزول الآية بحق على عليه السلام:

الاولى أن علياً عليه السلام كان واحداً، والحال أن «اولى الأمر» صيغة جمع.

والاخرى أن ظاهر هذه الآية هو أن الناس أمروا بأن يطيعوا اولى الأمر أثناء وجود رسول الله صلى الله عليه وآله بينما لم يكن على عليه السلام إماماً في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله (٣).

وكان قد طرح ما يشابه هذه الشبهات والإشكالات في آية الولاية، وقد تطرقنا إلى الاجابة عنها بوضوح هناك، فمن ناحية قلنا، كثيراً ما يعنى أشخاصاً وهم على قيد الحياة، ويقولون أو يكتبون: إن فلاناً وصي، وعليه أن يفعل كذا وكذا، وعلى أولادى اتباعه، ومعنى ذلك هو أن يتعهد القيام بهذه الأعمال بعد ممات الموصى له.

وإن قضية «الجمع» أيضاً كما قلنا لا تتسبب في خلق مشكلة على الإطلاق، فكثيراً ما يطلق الجمع على المفرد في القرآن وغيره من النثر والشعر، وفي الواقع أن «اولى الأمر» هنا تفيد الجمع وتشمل جميع الأئمة المعصومين، وإن كان في كل زمان إمام ومعصوم واحد، إلا أنهم سيكونون جمعاً في النهاية.

(١) هذه الأحاديث الخمسة أوردها صاحب شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٤٨-١٥١.

(٢) البحر المحيط، ج ٣، ص ٢٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٥

للمزيد من التفصيل بصدد الرد على هذين الإشكاليين راجعوا ذيل آية الولاية.

والجدير بالذكر هو أن فريقاً آخر نقل روايات في شأن نزول هذه الآية غير «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» إذ يقولون: إنها ناظرة إلى خلافة على عليه السلام. منهم العالم الشهير «أبو بكر بن المؤمن الشيرازي» الذي ينقل في رسالته الاعتقاد (على ضوء نقل المناقب للكاشي) عن ابن عباس: إن الآية المذكورة نزلت بحق على عليه السلام عندما توجه الرسول الى غزوة تبوك وأبقى علياً في المدينة، فقال له على عليه السلام: «أتخلفني على النساء والصبيان؟»، فقال له الرسول صلى الله عليه وآله: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى حين قال: اخلفني في قومي واصلح، فقال عز وجل واولى الأمر منكم» (١).

يروى صاحب كتاب «ينابيع المودة» الشيخ سليمان الحنفى القندوزي في كتابه عن كتاب «المناقب» عن سليم بن قيس الهلالي: إن رجلاً جاء إلى على عليه السلام وسأله: أرني أدنى ما يكون العبد مؤمناً، وأدنى ما يكون به العبد كافراً، وأدنى ما يكون به العبد ضالاً؟ فقال له عليه السلام: «قد سألت فافهم الجواب وأما أدنى ما يكون العبد به ضالاً أن لا يعرف حجة الله تبارك وتعالى وشاهده على عباده الذي أمر الله عز وجل عباده بطاعته وفرض ولايته»، قلت: يا أمير المؤمنين صفهم لي؟

قال: «الذين قرنهم الله تعالى بنفسه ونبهه فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» (٢).

إن هذه الرواية شاهد على أن اولى الأمر حجج الله ووكلاؤه.

ووردت عشرات الروايات في تفسير البرهان عن مصادر أهل البيت عليهم السلام في ذيل الآية كلها تقول: إن الآية المذكورة نزلت بحق على عليه السلام أو بحقه وسائر أئمة أهل البيت عليهم السلام، بل وفي بعض هذه الروايات جاءت أسماء الأئمة الاثنى عشر واحداً واحداً (٣).

(١) احقاق الحق، ج ٣، ص ٤٢٥.

(٢) ينابيع المودة، ص ١١٦.

(٣) تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٨١-٣٨٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٧

٤- آية الصادقين

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ». (التوبة/ ١١٩)

لقد تحدثنا عن تفسير هذه الآية بالتفصيل في بحث الولاية العامة، وما يحتاج توضيح أكثر هنا هو شرح الروايات الكثيرة التي طبقت الآية على علي عليه السلام أو جميع أهل البيت عليهم السلام فمثلاً:

١- يروي المفسر المعروف «السيوطي» في «الدر المنثور» عن ابن عباس في تفسير الآية: «اتقوا الله وكونوا مع الصادقين...»، أنه قال: «مع علي بن أبي طالب عليه السلام».

ونقل شبيه هذا المعنى كل من «الخوارزمي» في «المناقب»، و «الزرندي» في «درر السمطين»، و «عبد الله الشافعي» في «المناقب»، و «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل»، مع فارق أن بعضها يعبر ب- «هو علي بن أبي طالب»، وبعضها ب «علي بن أبي طالب خاصة»، وبعض رواها «مع علي وأصحاب علي» (١).

٢- يروي «الحافظ سليمان القندوزي الحنفي» في «ينابيع المودة» عن سلمان الفارسي:

لما نزلت آية «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين»، قال سلمان: يارسول الله هذه عامة أم خاصة؟

قال النبي صلى الله عليه وآله: «أما المأمورون فعامة الناس، وأما الصادقون فخاصة، أخى علي وأوصياؤه من بعده إلى يوم القيامة» (٢).

٣- يروي «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» عن عبد الله بن عمر في ذيل عبارة

(١) المناقب، ص ١٨٩؛ درر السمطين، ص ٩١؛ المناقب لعبد الله الشافعي، ص ١٥٤؛ شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٥٩.

(٢) ينابيع المودة، ص ١١٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٨

«وكونوا مع الصادقين» قوله: «يعنى محمداً وأهل بيته عليهم السلام» (١).

٤- روى جماعة من كبار أهل السنة مثل «العلامة الحمويني» في «فرائد السمطين» و «الشيخ أبو الحسن الكازروني» في «شرف النبي» عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في ذيل هذه الآية قوله: «مع آل محمد، أو مع محمد وآله، أو مع محمد وعلي» حيث إن معناها جميعاً متقارب (٢).

ولم يقتصر العظماء الذين نقلوا الرواية على الأشخاص الذين ذكرناهم.

وهذا الأمر يحظى بالأهمية أيضاً حيث يأمر الله تعالى المؤمنين أن يكونوا دوماً مع الصادقين، فهو حكم مطلق بلا قيد أو شرط، وهذا المعنى لا يتحقق أبداً للبشأن المعصومين عليهم السلام، لأن غير المعصوم ربما يخطيء، وفي هذه الحالة فإن الشخص الذي يمكن الوقوف إلى جانبه واتباعه دائماً لن يكون إلّا من المعصومين، وعليه فالمراد من الصادقين في هذه الآية ليس كل صادق، بل الصادقون الذين لا سبيل للكذب إليهم- لا عمداً ولا سهواً- مع هذا فالعجب من بعض مفسري أهل السنة المعروفين كالألوسي في تفسير روح المعاني مثلاً، فبعد ذكره لبعض الأخبار التي تفسر الصادقين في هذه الآية بعلي عليه السلام، يضيف: إن الشيعة قد استدلوا بها على أحقية علي عليه السلام، ثم يقول: إنه استدلالٌ باطل ويمر منها بدون أن يأتي بدليل واحد على مزاعمهم.

إن مثل هذه المواقف تدلّ على أنه إلى أي حد يستطيع حجاب التعصب من الحيلولة دون اشعاع نور الفكر، ويسلب حرية التفكير

حتى من العلماء.

وفى المقابل يبرر اناس متحررو التفكير كالدكتور محمد التيجاني الذى شخص طريقه فى ظل هذه الآيه والآيات المعنوية، وأظهر إيمانه بعلى عليه السلام وسائر ائمة أهل البيت عليهم السلام بشجاعه فائقة، وألف كتاباً ظريفاً ولطيفاً للغاية فى هذا المجال اسماء (لاكون مع الصادقين)، وقد ترك هذا الكتاب أثراً عجبياً فى نفوس الكثير من المسلمين.

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٤٢.

(٢) للمزيد من الاطلاع، راجعوا احقاق الحق، ج ١٤، ص ٢٧٤ و ٢٧٥؛ والغدير، ج ٢، ص ٢٧٧؛ واحقاق الحق، ج ٣، ص ٢٩٦ وما بعدها، وج ١٤، ص ٢٧٠-٢٧٧.
نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٦٩

٥- آية القربى

إشارة

يخاطب تعالى النبى صلى الله عليه و آله قائلاً فى الآيه: «قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ اجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى . (الشورى / ٢٣) إنَّ المراد من «القربى فى هذه الآيه، حسب ما قاله جميع مفسرى الشيعة وطائفة من مفسرى السنّة: هم قرابة النبى صلى الله عليه و آله. وفى قبال هذا التفسير ذكرت احتمالات وتفسير اخرى يبدو أنّ الدافع الحقيقى لها هو التقليل من أهميّة الإمامة وخلافه النبى صلى الله عليه و آله والاقبال من شأن أهل البيت عليهم السلام، منها التفاسير الثلاثة الآتية:

١- المراد من اجر وثواب الرسالة هو حب الامور التى تدعوكم إلى القرب من الله، وعليه فإنَّ «القربى هى الامور التى تؤدى إلى القرب من الله تعالى ومن الواضح أنّ هذا التفسير لا يتلائم وظاهر الآيه على الاطلاق، لأنَّ المهم فيما يتعلق بالصلاة والصوم والجهاد ونحو ذلك من عوامل القرب الإلهى هو العمل بها لا مودتها ومحبتها، فالتعبير بالمودّة لا يتناسب وهذه القضية باى شكل من الأشكال، إلّا أن يكون هنالك شخص بين مخاطبى النبى صلى الله عليه و آله لم يجب هذه الامور حتى الذين كانوا يقصرون فى عملهم منهم مَنْ كانوا يحبون هذه الامور بحكم تعلقهم بالله والقرآن، وإن لم يكونوا يعملون.

فضلاً عن جميع ذلك، ف «القربى تعنى: القرب والدنو لا- «المقرب»، لذا فإنّها جاءت فى جميع الحالات التى استخدمت فيها هذه الكلمة فى القرآن الكريم (١٥ مرة بالاضافة الى هذه الآيه التى هى مورد بحثنا) بمعنى الأشخاص الذين يتمتعون بالقرابة (وأساساً ذوى القربى النسبية).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧٠

فلماذا ولأى سبب تفسر آيه البحث خلافاً لجميع حالات استعمال القرآن والمفهوم اللغوى لهذه الكلمة؟ هل هنالك دافع غير ما أشير إليه آنفاً؟!

الجدير بالاهتمام أنّ الكثير من أرباب اللغة قد صرحوا بأنَّ القربى أو ذى القربى تعنى قرابة النسب، فيقول صاحب مقاييس اللغة: فلان ذو قربتى، هو من يقرب منك رحماً، ثم يضيف: «القربى والقرابة» أى أنّ كلاهما بمعنى واحد وجاء فى لسان العرب، والقرابة والقربى الدنو فى النسب.

٢- وقال البعض الآخر: إنّ المقصود هو ايها المسلمون أحبوا قرباكم كأجر للرسالة، والحال أنّ مودّة قرباهم لا علاقه لها بالرسالة.

عجب، كيف تُترك محبة قربى رسول الله صلى الله عليه و آله التى هى انسب معنى هنا، وتطرح مودّة قرباهم على أنّها أجر الرسالة؟!!

٣- وقال بعض من المفسرين: إن المقصود هو احفظوا قرابتي منكم كأجر للرسالة، وحيث إن لي قرابة سببية أو نسبية مع الكثير من قبائلكم فلا تؤذوني.

إن هذا التفسير هو اسوء تفسير لهذه الآية، لأن أجر الرسالة مطلوب من الذين تقبلوا رسالته فقط، ولا يعنى أولئك الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وآله، وأما إذا كان المراد أعداؤه الذين يؤذونه، فأولئك لم يتقبلوا رسالته أبداً، ناهيك عن أجرهم واحسانهم! فكيف يمكن أن يقول إن أجرى أن لا تؤذوني لقرابتي منكم.

النقطة الأساسية فيما يخص الآية هي أن القرآن الكريم - من ناحية - ينقل عن الكثير من الأنبياء أنهم كانوا يقولون بصريح القول «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِ إِلَّا عَلَيَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (١).

ومن ناحية أخرى تقول آية البحث فيما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وآله: «قُلْ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى . ومن ناحية ثالثة: نقرأ بشأن النبي صلى الله عليه وآله في الآية: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ»

(١) بالتسلسل، الآية ١٠٩ و ١٢٧ و ١٤٥ و ١٦٤ و ١٨٠ من سورة الشعراء.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧١

شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا». (الفرقان / ٥٧)

ومن ناحية رابعة جاء بشأن رسول الله صلى الله عليه وآله في الآية: «قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِ إِلَّا عَلَيَّ اللَّهُ». (سبأ / ٤٧) من خلال جمع هذه الآيات الأربعة مع بعضها يمكن الاستنتاج جيداً أن النبي صلى الله عليه وآله شأنه شأن بقية الأنبياء لم يطلب أجراً لشخصه من الناس، بل إن في مودة قرباه مرضاة الله، وهو امر يصب في صالح هؤلاء تماماً، لأن هذه المودة نافذة في الإمامة وخلافه النبي صلى الله عليه وآله واستمرار خط قيادة رسول الله صلى الله عليه وآله في الأمة، وهدايته الناس في ظلها (تأملوا جيداً).

نعم فحيثما فسرنا هذه الآيات الأربع بهذا الشكل لم تبق فيها نقطة غموض وتعقيد واشكال، وإلا فسيشاهد تضاد فيما بينها من ناحية، ومن ناحية أخرى نضطر إلى تفاسير طويلة وعريضة لا تتلائم وظاهر الآيات بأي شكل من الأشكال.

ولكن بما أن هذا التفسير لا يروق لبعض من المفسرين، لأنه لا يتفق مع حكمهم المسبق فقد تركوه، فتارة قالوا: إن طلب الأجر لا يتلائم ومقام النبي صلى الله عليه وآله، وعلى هذا الأساس فآية «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» يجب اعتبارها استثناءً منقطعاً، وتارة قالوا: إن هذه الآية لا تتفق بالآية: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ». (ص / ٨٦)

وتارة يتورطون في تبريرات معقدة.

إن هذه الحقيقة تتضح أكثر فيما لو رجعنا إلى الروايات الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، في شرح وتفسير هذه الآية ونضعها إلى جانب هذه الآيات.

من مجموع الروايات الواردة في تفسير الآية نستنتج مايلي:

لا شك أن آية البحث ناظرة إلى قضية الإمامة والخلافه حيث يمكن اعتبارها أجراً للرسالة، الأجر الذي يقرب الناس إلى الله، وتعود فائدته إليهم.

ومما قيل آنفاً يتضح الرد على بعض المفسرين الذين طالما يتخذون موقفاً ملؤه العصبية ازاء الآيات المتعلقة بالإمامة.

يقول «الآلوسي» في «روح المعاني» في تفسير هذه الآية:

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧٢

«على كرم الله وجهه واجب المحبة وكل واجب المحبة واجب الطاعة وكل واجب الطاعة صاحب الإمامة وينتج على رضى الله تعالى عنه صاحب الإمامة وجعلوا الآية دليل صغرى «١».

ولكن كما فهم من البحوث الآنفه فنحن لا نريد أبداً استغلال هذه الآية من خلال الصغرى والكبرى الواهيتين، والأمر المهم فى الآية شىء آخر وهو أن مودة ذوى القربى عدت أجراً للرسالة، وفى الآيات الأخرى ذكر الاجر المذكور على أنه وسيلة للتقرب من الله وفى صالح الناس، ومن مجموع ذلك تتضح مسألة الإمامة والخلافة بالتفصيل الذى ورد أعلاه، وأحاديث النبى صلى الله عليه وآله التى يشار إليها سند لهذا الاستدلال.

آية القربى فى الروايات الإسلامية:

نقلت روايات كثيرة فى مصادر السنّة والشيعه فى ذيل هذه الآية: «قُلْ لَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ حَيْث لَهَا تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِي تَفْسِيرٍ وَتَبْيِينِ مَفْهُومِ الْآيَةِ، مِنْ جَمَلَتِهَا الرِّوَايَاتُ الْآتِيَةُ:

ينقل «الحاكم الحسكاني» وهو من مشاهير علماء القرن الخامس الهجرى فى «شواهد التنزيل» عن «سعيد بن جبير» عن «ابن عباس» ما يلى:

«لَمَّا نَزَلَتْ قُلْ لَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقُرْبَى الَّذِينَ أَمَرْنَا اللَّهُ بِمُودَتِهِمْ؟ قَالَ: عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَوَلَدُهُمَا» (٢).

ورويت فى الكتاب نفسه عدّة روايات اخرى بهذا المضمون بطرق مختلفة عن ابن عباس (٣).

٢- وفى رواية اخرى فى الكتاب نفسه يروى عن أبى امامة الباهلى أن النبى صلى الله عليه وآله قال:

(١) تفسير روح المعانى، ج ٢٥، ص ٣٠.

(٢) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١٣٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣١-١٣٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧٣

«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّىٰ وَخَلَقَتْ وَعَلَىٰ مِنْ شَجْرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَنَا أَصْلُهَا وَعَلَىٰ فِرْعَاقُهَا، وَفَاطِمَةُ لِفَاقِهَا وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ ثَمَارُهَا وَأَشْيَاعُنَا أَوْرَاقُهَا فَمَنْ تَعَلَّقَ بِغَضَنِ مِنْ أَغْصَانِهَا نَجَا وَمَنْ زَاغَ هَوَىٰ وَلَوْ أَنَّ عَبْدًا عَبْدَ اللَّهِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ أَلْفَ عَامٍ، ثُمَّ أَلْفَ عَامٍ، ثُمَّ أَلْفَ عَامٍ، حَتَّىٰ يَصِيرَ كَالشَّنِّ الْيَابِسِ، ثُمَّ لَمْ يَدْرِكْ مَحَبَّتَنَا أَكْبَهَ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْخَرِيهِ فِي النَّارِ. ثُمَّ قَرَأَ: «قُلْ لَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ» (١).

٣- يروى «السيوطى» المفسر السنّى الشهير فى الدر المنثور فى ذيل آية البحث عن مجاهد عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وآله قال فى تفسير الآية: «قل لا أسألكم عليه أجراً- أن تحفظونى فى أهل بيتى وتودوهم بى» (٢).

٤- يروى «أحمد بن حنبل فى فضائل الصحابة» عن «سعيد بن جبير»: «لما نزلت آية «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى»، سأل القوم رسول الله: من هم قرباك الذين وجبت مودتهم علينا؟ قال: «على وفاطمة وابناهما وقالها ثلاثاً» (٣).

ونقل القرطبى المعنى نفسه فى تفسير الآية بشىء من الاختلاف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

٥- يروى «الحافظ أبو نعيم الاصفهاني» فى «حلية الأولياء» عن «جابر»: «أن أعرابياً جاء لرسول الله صلى الله عليه وآله وقال: يا محمد أعرض على الإسلام، فقال: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، قال تسألنى عليه أجراً؟ قال: لا، إلا المودة فى القربى قال: قرباى أو قرباك؟ قال: قرباى، قال: هات ابايك، فعلى من لا يحبك ولا يحب قرباك لعنة الله، قال صلى الله عليه وآله و آله: آمين» (٤).

٦- ويروى المفسر المعروف «ابن جرير الطبرى» أيضاً فى ذيل هذه الآية عن ابن جبير أنه قال: «هى قربى رسول الله صلى الله عليه وآله و

عليه و آله مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا وَمَنْ مات على حب آل محمّد صلى الله عليه و آله بَشْرُهُ مَلَكَ الموت بالجنّة ثم مُنكر ونكير، ألا وَمَنْ مات على حب آل محمّد صلى الله عليه و آله يزف إلى الجنّة كما تُزف العروس إلى بيت زوجها، ألا وَمَنْ مات على حب آل محمّد صلى الله عليه و آله فُتِح له في قبره بابان إلى الجنّة، ألا وَمَنْ مات على حب آل محمّد صلى الله عليه و آله جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا وَمَنْ مات على حب آل محمّد صلى الله عليه و آله جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله، ألا وَمَنْ مات على بغض آل محمّد صلى الله عليه و آله مات كافراً، ألا وَمَنْ مات على بغض آل محمّد لم يشم رائحة الجنّة».

والمدهش أنه جاء في بعض حواشي تفسير الكشاف التي دوت من قبل بعض المتعصين بعد نقل هذا الحديث الشريف: وآثار الوضع عليه لائحة!

ولكن ما الدليل على مجعوليته وفي أى موضع من هذا الحديث يلوح أثر هذا الجعل؟ لم يوضّح ذلك، سوى أنّ عظمة شأن آل محمّد صلى الله عليه و آله التي تمّ بيانها في هذا الحديث النبوي الشريف لا-تتفق والحكم المسبق للبعض، ولعلمهم كانوا يرون عظمة آل محمّد صلى الله عليه و آله للمرة الاولى بهذا المستوى الراقى في هذا الحديث النبوي الشريف، وقد نقل ذلك الحديث القديم

(١) يراجع هامش تفسير مجمع البيان، ج ٧ و ٨، ص ٥١٢ مطلع سورة المؤمن.

(٢) تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٢٢٠ و ٢٢١؛ تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ١٦٥ و ١٦٦؛ تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٨٤٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧٦

ثلاثة من كبار المفسرين الذين يعتقدون به وتقبلوه بقبول حسن ولم يوردوا عليه مؤاخذه.

هذا في الوقت الذي يقول الفخر الرازي في ذيل هذا الحديث: وإن كان في معنى «آل» جدل واختلاف، ولكن «لا شك أنّ فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين رسول الله أشدّ التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل». ويقيم «الفخر الرازي» أيضاً شواهد وقرائن كثيرة على هذا المعنى بأنّ علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام داخلون في هذه الآية «١».

يتبين ممّا قيل آنفاً أنّ بعض الروايات التي نقلت في ذيل هذه الآية والتي تقول: «إنّ المخاطب فيها هم كفار قريش، والمراد هو أن لا تنسوا قرابتي منكم ولا تؤذوني لقرابتي منكم» لا-يمكن قبولها، ويحتمل أنّ وُضِع الحديث قد نقلوا مثل هذا الأمر، للتقليل من أهميّة منزلة أهل البيت عليهم السلام، لأنّ مثل هذا الخطاب لكفار قريش يتعارض تماماً مع مفهوم الآية، فمن المستحيل أن يقول النبي صلى الله عليه و آله لهم لا-أسألكم أجراً سوى أن لا تنسوا قرابتي منكم وهم غير موقنين إطلاقاً برسالة النبي صلى الله عليه و آله فضلاً عن رغبتهم في اعطائه الأجر.

خلاصة القول، إنّ أولئك الذين تمسكوا بهذه الرواية ولكنهم يقطعون علاقة الآية بأهل البيت عليهم السلام هم في الحقيقة ينكرون مضمون الآية لأنّ طلب أجر الرسالة من منكريها فارغ عن المعنى تماماً.

ونختتم هذا البحث بأبيات من الشعر حيث ذكرها الفخر الرازي والآلوسى في «التفسير الكبير» و «روح المعاني» في ذيل هذه الآية ليكون ختاماً مباركاً لهذا البحث ويكون «ختامه مسك».

وهذا الشعر صادر عن الإمام الشافعي المعروف باعتقاده الراسخ بأهل البيت عليهم السلام إذ يقول:

يا راكباً قف بالمحصب من منى واهتف بساكن خيفها والناهض

سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى فيضاً كَمَلَّتْ طَمِ الفرات الفاض

(١) للمزيد من الاطلاع راجعوا تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ١٦٦ و ١٦٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧٧ إن كان رفضاً حُبَّ آل محمّدٍ فليشهد الثقلان انى رافضى «١»

جعلنا الله من محبى آل محمّد صلى الله عليه وآله الذين نصلى عليهم فى صلاتنا وبدون ذلك لا تقبل صلاتنا، اللهم اجعل هذه المحبّة مقدّمة لمعرفة «مقام ولايتهم» كى لا نتصور أنّ قضيه بهذه الأهميّة طرحت على أنّها مودة عادية، ثم اجعل هذه المعرفة سبيلاً لاتباع مذهبهم.

(١) تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ١٦٦؛ و تفسير روح المعانى، ج ٢٥، ص ٣٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٧٩

القسم الثانى: آيات الفضائل

تمهيد:

كما أسلفنا سابقاً، أننا فى هذه البحوث لانتقى الآيات القرآنية التى تحدثت، مباشرة عن قضيه الخلافة والولاية، بل نبحت فى الآيات التى ورد فيها ذكر لفضائل على بن أبى طالب عليه السلام والتى بمجموعها توضح زوايا هذه القضية لمن فاتهم الاطلاع عليها، وجميع هذه الآيات تشير إلى أن أمر الإمام على عليه السلام مستثنى عن الآخرين، ومع وجود على بن أبى طالب فى هذه الأمة فإنّ الإمامة والخلافة لا تناط أموراً بغيره.

بعبارة اخرى إنّ من خلال حوار بين الإنسان وعقله يمكن استنتاج مسألة الإمامة والخلافة منها، وهى: إنّ الله الحكيم لا- يجعل «المفضول» حاكماً وقائداً على الأفضل، بل وحتى عقلاء الدنيا فإنهم يوجهون اللوم والتأنيب لمن يقوم بعمل كهذا، ويعتبرون فعله هذا دليلاً على ضعف إدارته وعدم تدبيره لأنّه جعل الأفضل تابعاً لمن هو أدنى منه.

إنّ هذه الآيات من الكثرة بحيث إنّ بعض العلماء ألفوا كتباً مستقلة بهذه المسألة، إلّا أننا اخترنا من بينها آية تضم مفاهيم واضحة، كما أنّها تنسجم واختصار الكتاب.

وهنا نتجه نحو المصادر المعروفة لدى أهل السنة ونختزل الكلام عما ورد فى مصادر أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام لثلا يتصور أحد أن أتباع هذا المذهب قد نطقوا بشيء بدافع التعصب.

وعلى أيّة حال فإنّ هذه الآيات كثيرة، وقد اخترنا منها ٢٤ آية.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨١

١- آية المباهلة

إشارة

«فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ ابْنَاءَنَا وَابْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لُغْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَذِبِينَ». (آل عمران / ٦١)

هنا ينبغى توضيح بعض الامور:

أولاً: مضمون الآية.

ثانياً: من الذين ذكرتهم الروايات التى جاءت فى المصادر الإسلامية المعروفة فى تفسير هذه الآية؟

ثالثاً: كيفية الاستدلال بهذه الآية على أفضلية علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

رابعاً: الرد على بعض الشبهات فيما يتعلق بهذه الآية.

مضمون آية المباهلة:

تدلُّ الآيةُ أعلامه بالإضافة إلى الآيات التي نزلت قبلها وبعدها أن النبي صلى الله عليه وآله يُؤمَّر في مواجهة اصرار النصارى على التمسك بعقائدهم المحرفة كزعمهم بألوهية عيسى عليه السلام مثلاً، وعدم جدوى المنطق والاستدلال ازاء عنادهم، فكان لابد للنبي عليه السلام من التضرع وأن يسلك طريق المباهلة، ويثبت صدق كلامه من خلال هذا الطريق المعنوي، أي يباهلهم ليتبين الصادق من الكاذب!

والمباهلة في الأصل من مادة «بهل» على وزن (أهل) وتعني الترك، من هنا فعندما يتركون الحيوان لحاله ولا يلفون ثناياه في كيس خاص - لمنع وليده من الرضاعة - يقولون

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٢

له: «باهل»، و «الابتهاال» في الدعاء تعني التضرع وايقال الأمر إلى الله تعالى

وتارة فسروا هذه الكلمة بمعنى «الهلاك واللعن والطرده من الله»، وذلك أيضاً بسبب ترك العبد وايقاله إلى نفسه والخروج عن ظل لطف الله سبحانه.

هذا الرأي هو الأصل اللغوي، أما من ناحية «المفهوم المتداول» الذي أشير إليه في الآية، فالمباهلة الملاعنة بين شخصين، من هنا فعندما لا تجدى الاستدلالات المنطقية، ويجتمع الذين يدور بينهم جدول بشأن مسألة دينية مهمة ويتضرعون إلى الله سائلين منه أن يفضح الكاذب ويعاقبه، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وآله في مواجهة نصارى نجران، حيث اشير إليه في الآية.

ومن خلال ما ذكر نلقى نظرة على تفسير هذه الآية:

«فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لُغْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ».

لا- شك أن هذه الواقعة التاريخية قد حصلت ولم يستطع أحد انكارها، ومفادها: أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله اختار نفراً واصطحبهم معه للمباهلة.

جاء في الروايات الإسلامية التي نقلها المفسرون والمحدثون: لما نزلت الآية أعلاه اقترح النبي صلى الله عليه وآله على نصارى نجران المباهلة، فطلب زعماء النصارى من النبي صلى الله عليه وآله مهلة يوم واحد ليتشاوروا في الأمر، فقال لهم حبرهم:

«انظروا محمداً في غد فإن غدا بولده وأهله فاحذروا مباهلتة، وإن غدا بأصحابه فباهلوه فإنه على غير شيء فلما كان الغد جاء النبي صلى الله عليه وآله آخذاً بيد علي والحسن والحسين بين يديه يمشيان وفاطمة تمشي خلفه، وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم، فلما رأى النبي صلى الله عليه وآله قد أقبل بمن معه سأل عنهم فقيل له: هذا ابن عمه وزوج ابنته وأحب الخلق إليه، وهذان ابنا بنته من علي عليه السلام، وهذه الجارية بنته فاطمة أعز الناس عليه وأقربهم إلى قلبه، وتقدم رسول الله فجثا على ركبتيه قال الأسقف جثا والله كما جثا الأنبياء للمباهلة، فرجع ولم

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٣

يقدم على المباهلة، فقال الأسقف: يا أبا القاسم إنا لا نباهلك ولكن نصالحك» «١».

وجاء هذا المضمون أيضاً باختلافات طفيفة لا تضر بأصل القضية في الكثير من التفاسير الأخرى مثل تفسير الفخر الرازي (ج ٨، ص

١٠)؛ والقرطبي (ج ٢، ص ١٣٤٦)؛ وروح البيان (ج ٢، ص ٤٤)؛ وروح المعاني (ج ٣، ص ١٨٨)؛ والبحر المحيط (ج ٢، ص ٤٧٢)؛

وتفسير البيضاوى (ذيل آية البحث) وتفسير أخرى

والآن لنرى كتب الحديث، ماذا تقول:

المباهلة في أقوال المحدثين:

وردت روايات كثيرة تعد موثوقة ومعتبرة في مصادر أهل السنّة ومصادر أهل البيت عليهم السلام حيث تفيد بصريح القول: إن آية المباهلة نزلت بحق علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. منها:

١- روى في صحيح مسلم في كتاب «فضائل الصحابة» في باب فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام عن سعد بن أبي وقاص أنّ معاوية قال لسعد: ما منعك أن تسب أبا تراب؟ قال:

أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله صلى الله عليه وآله فلن أسبّه لئن تكون لى واحدة منها لكانت أحبّ الى من حمر النعم، ثم أخذ يذكر قصة حديث المنزلة في (معركة تبوك) وقصة اعطاء الراية لعلي عليه السلام أبان معركة خيبر، ثم يضيف: ولما نزلت هذه الآية «قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم» دعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم هؤلاء أهلى «٢». روى هذا الحديث جماعة آخرون من عظماء أهل السنّة مثل! الترمذى في صحيحه «٣».

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١ و ٢، ص ٤٥٢ مع شيء من الاختصار.

(٢) صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٧١، ح ٣٢، الباب ٤.

(٣) صحيح الترمذى، ج ٥، ص ٦٣٨، ح ٣٧٣٢ (الباب ٢١ باب مناقب علي عليه السلام).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٤

فبعد نقله يضيف. يقول أبو عيسى إنه حديث حسن وصحيح وغريب (لعل غرابته تكمن في عدم اتفاهه مع حكمه المسبق الملىء بالتعصب).

وأحمد بن حنبل في مسنده «١».

والبيهقى في السنن الكبرى «٢».

والسيوطى في الدر المنثور «٣».

٢- وفي موضع آخر من صحيح الترمذى أيضاً نقل الحديث عن سعد بن أبي وقاص: إنه لما نزلت آية المباهلة دعا النبي صلى الله عليه وآله علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وقال: اللهم هؤلاء أهلى «٤».

والرواية نفسها نقلها الحاكم في «مستدر ك الصحيحين»، وأخيراً يقول: هذا حديث صحيح موافق لمعايير الشيخين «٥».

كما نقله البيهقى أيضاً في السنن الكبرى «٦».

٣- يروى السيوطى في «الدر المنثور» عن «الحاكم»، و «ابن مردويه» و «أبو نعيم» في «الدلائل»، عن «جابر بن عبد الله الأنصارى»: لما عزم النبي صلى الله عليه وآله على مباهلة الأنصارى أخذ في اليوم التالى بيد علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام واتى بهم إلى المباهلة، لكنهم لم يباهلوا، ثم يضيف جابر: إن آية «تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم...» نزلت بحق هؤلاء «٧».

يقول السيوطى: هذا حديث صحيح لدى «الحاكم».

٤- ويروى عن ابن عباس في كتاب الدر المنثور نفسه أن وفد نصارى نجران جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وبعد تفصيله لقصة المباهلة ورجوع نصارى نجران يضيف: كان هذا لما خرج النبي صلى الله عليه وآله وكان معه علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وقال لهم: إن دعوت أنا فأمنوا أنتم، فأبوا أن يلاعوه وصالحوه على الجزية.

- (١) مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ١٨٥.
- (٢) السنن الكبرى طبقاً لنقل الفضائل الخمسة، ح ١، ص ٢٩١.
- (٣) تفسير در المنثور، ذيل الآية ٦١ من سورة آل عمران.
- (٤) صحيح الترمذى، ج ٥، ص ٢٢٥ (الباب ٤، ح ٢٩٩٩).
- (٥) مستدرک الصحيحين، ج ٣، ص ١٥٠.
- (٦) السنن الكبرى ج ٧، ص ٦٣.
- (٧) تفسير در المنثور، ج ٢ ص ٣٨ ذيل آية البحث (مع الاختصار).
- نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٥
- ٥- وفي نفس الكتاب يروى عن «ابن جرير» عن «العباء بن أحمر الشكري»، عندما «١» نزلت آية قل تعالوا ندع أبناءنا ٠٠٠ ودعا النبي صلى الله عليه وآله بعلى وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين عليهم السلام واقترح على المخالفين المباهلة فأبوا «٢».
- ٦- يروى العلامة الطبرى فى تفسيره وبسنده عن «زيد بن على» فى تفسير هذه الآية: كان النبي وعلى وفاطمة والحسن والحسين «٣».
- ٧- ويروى فى نفس الكتاب أيضاً بسنده عن السدى فى ذيل هذه الآية: أخذ النبي بيد الحسن والحسين وفاطمة وقال لعلى اتبعنا «٤».
- ٨- يقول العلامة «أبو بكر الحصاص» وهو من علماء القرن الرابع الهجرى فى كتاب «أحكام القرآن» فى تعبير مفيد بصدد المباهلة: أن رواة السير ونقله الأثر لم يختلفوا فى أن النبي صلى الله عليه وآله أخذ بيد الحسن والحسين وعلى وفاطمة عليهم السلام ودعا النصارى الذين حاجوه إلى المباهلة «٥».
- وعلى ضوء قول الحصاص فإن هذه القضية محل إجماع واتفاق علماء الحديث والتاريخ جميعاً.
- ٩- يقول هذا العالم نفسه فى كتاب آخر تحت عنوان «معرفة علوم الحديث» بعد ذكره لقصة المباهلة: قال الحاكم وقد تواترت الأخبار فى التفاسير عن عبد الله بن عباس وغيره إن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ يوم المباهلة بيد على وحسين وجعلوا فاطمة وراءهم ثم قال:
- هؤلاء أبناؤنا وأنفسنا ونساؤنا «٦».
- هذا جانب فقط من الروايات المتعلقة بقصة المباهلة ونزولها بحق هؤلاء، ومن الطبيعى أن اختلاف هذه الأحاديث فى بعض الجزئيات مثل إن كانت فاطمة مع النبي صلى الله عليه وآله أم أنها

- (١) تفسير در المنثور، ج ٢، ص ٣٩.
- (٢) المصدر السابق.
- (٣) تفسير جامع البيان، ج ٣، ص ١٩٢ (وفقاً لنقل احقاق الحق، ج ٣، ص ٤٧).
- (٤) المصدر السابق.
- (٥) أحكام القرآن للجصاص، ج ٣، ص ١٤.
- (٦) معرفة علوم الحديث، ص ٥٠، (وفقاً لنقل احقاق الحق، ج ٣، ص ٤٨).
- نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٦
- جاءت خلفه، أم أن علياً عليه السلام كان إلى جانب النبي صلى الله عليه وآله أم خلفه، لا- يترك أثراً على أصل القضية، لأن ثمة اختلاف فى نقل جزئيات وفروع ومتعلقات الكثير من الوقائع التاريخية المسلم بها، مثل معركة بدر، وخيبر، والأحزاب، وفتح مكة، ومن

النادر أن نستطيع العثور على واقعة تاريخية مهمة تخلو من هذه الاختلافات في مثل هذه الامور الثانوية.

على أية حال فالروايات المذكورة وبشهادة جماعة من عظماء أهل السنة كثيرة ومشهورة بحيث وصلت إلى حد التواتر، مع هذا فإن من العجب أن يقول صاحب تفسير المنار في ذيل هذه الآية: قال الاستاذ الإمام: الروايات متفقة على أن النبي صلى الله عليه وآله اختار للمباهلة علياً وفاطمةً وولديهما ويحملون كلمة (نساءنا) على فاطمة، وكلمة (أنفسنا) على علي عليه السلام فقط، ومصادر هذه الروايات الشيعة! ومقصدهم منها معروف^(١).

وإنه لمدهش حقاً، فعندما تتركز قاعدة الحكم المسبق والتعصبات الطائفية يتفوه عالم معروف كمؤلف كتاب المنار بكلام لا يخفى خواؤه على أحد، هل أن «صحيح مسلم وصحيح الترمذى ومسند أحمد من مصادر الشيعة؟ وهل أن علماء الشيعة كتبوا سنن البيهقي، والدر المنثور للسيوطي، وأحكام القرآن للجصاص، وتفسير الطبري، ومستدرک الحاكم»؟ إن خطأ بهذا المستوى لا يحصل إلا نتيجة لحجاب التعصب.

فمن ناحية يقول الموما إليه: إن الروايات التي نقلت هذا الحديث «متفق عليها» ومن ناحية أخرى يضعها موضع التشكيك. فإذا كانت كتب مثل صحيح مسلم، والترمذى، ومسند أحمد، وما شابهها بحيث يستطيع الشيعة وضع روايات ودسها فيها بحيث تغدو متواترة، فإي قيمة تبقى لهذه الكتب؟ وكيف يتسنى قبول ولو حديث واحد منها؟ وفي واقع الأمر أن مؤلف المنار بكلامه هذا أفقد اعتبار المصادر المعروفة لأهل السنة، وسلب منها قيمتها بالكامل، نعم فهو أراد التنكر لفضيلة علي وفاطمة وابنيهما عليهم السلام بيد أنه

(١) تفسير المنار، ج ٣، ص ٣٢٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٧

وجه ضربة قاصمة لأصل المذهب السنّي!

والكلام الوحيد الذى يبقى هنا هو الشبهة التي آثارها المنار وآخرون بصدد «ضمائر الجمع» الموجودة في الآية، وستنطرق إليه فيما بعد بشكل مفصل.

أهمية المباهلة:

إن أول أمر يثير الاهتمام في هذه الآية هو إمكانية طرح قضية المباهلة على أنها دليل جلي على حقانية وصدق النبي صلى الله عليه وآله في مسألة ادعائه للرسالة، لأنه من المتعذر على الذى لا يملك إيماناً جازماً بصلته بالبارى عزوجل أن يدخل مثل هذا الميدان، أى ليدعو معارضيه أن تعالوا ندعو الله أن يفضح الكاذب، وأنا اعطى عهداً على أن دعائى على أعدائى سيحصل بشكل عملي، وسترون نتيجة ذلك!

ومن المسلم به أن دخول مثل هذا الميدان خطير للغاية، فلو لم يستجب الدعاء ولا- يظهر أثر من عقاب الخصوم، فلا تكون هناك نتيجة سوى فشل الداعى، وأى إنسان عاقل لا يدخل هذا الميدان مالم يطمئن إلى النتيجة.

من هنا نقرأ في الروايات الإسلامية: لما حضر النبي صلى الله عليه وآله إلى المباهلة استمهله نصارى نجران ليفكروا في الأمر، وعندما رأوا أن النبي صلى الله عليه وآله اصطحب معه الأشخاص الذين يمكن أن تستجاب دعوتهم، وحضر إلى المباهلة بعيداً عن المراسيم والضجيج، اعتبروا ذلك دليلاً آخر على صدق دعوته فانصرفوا عن المباهلة، لئلا يصيبهم العذاب الإلهي.

فعندما رأوا أن النبي صلى الله عليه وآله جاء بنفر قليل من خاصته وحامته وابنائ الصغار وابنته فاطمة عليها السلام، اضطربوا وذعروا وأبوا المباهلة.

ومن جهة أخرى فإن هذه الآية سنَدٌ واضحٌ على المقام الشامخ لآل النبي صلى الله عليه وآله، على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، لأن الآية فيها ثلاث كلمات، «أنفسنا، ونساءنا، وأبناءنا»، ولا شك في أن المراد من «أبنائنا» الإمام الحسن والحسين عليه السلام ولا اعتراض في ذلك أبداً، ولا تنطبق كلمة «نساءنا» على أحد سوى فاطمة عليها السلام، وأما كلمة «أنفسنا» فمن نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٨

المتيقن بأنها ليست إشارة إلى شخص النبي صلى الله عليه وآله، لأن الآية تقول: ندع... وأنفسنا، فإن كان المراد هو النبي صلى الله عليه وآله، فإن دعوة الإنسان لنفسه لا معنى لها، بناء على ذلك فلا يبقى سبيل إلا أن نقول: أن المراد هو على عليه السلام فحسب.

والملفت للنظر هو أن «الفخر الرازي» ينقل في ذيل هذه الآية عن «محمود بن الحسن الحمصي» وهو من علماء الشيعة، أنه يثبت من خلال هذه الآية أن علياً أفضل من الأنبياء والصحابة أجمعين بعد النبي صلى الله عليه وآله. فيقول: ليس المراد بقوله (وأنفسنا) نفس محمد صلى الله عليه وآله لأن الإنسان لا يدعو نفسه بل المراد به غيره، وأجمعوا على أن ذلك الغير كان علياً عليه السلام فدلّت الآية على أن نفس على هي نفس محمد صلى الله عليه وآله، ولا يمكن أن يكون المراد منه أن هذه النفس هي عين تلك النفس، فالمراد أن هذه النفس مثل تلك النفس، وذلك يقتضى الاستواء في جميع الوجوه....

ثم الإجماع دل على أن محمداً صلى الله عليه وآله كان أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فيلزم أن يكون على أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فهذا وجه الاستدلال بظاهر هذه الآية، ثم قال: ويؤيد الاستدلال بهذه الآية الحديث المقبول عند الموافق والمخالف هو قوله عليه السلام: «من أراد أن يرى آدم في علمه، ونوحاً في طاعته، وإبراهيم في خلته، وموسى في هيبته، وعيسى في صفوته، فلينظر إلى على بن أبي طالب عليه السلام».

ثم يضيف قائلاً: (وأما سائر الشيعة فقد كانوا قديماً وحديثاً يستدلون بهذه الآية على أن علياً (رضى الله عنه) أفضل من سائر الصحابة، وذلك لأن الآية لما دلت على أن نفس على (رضى الله عنه) مثل نفس محمد صلى الله عليه وآله وإلّا فيما خصّه الدليل وكان نفس محمد أفضل من الصحابة (رضوان الله عليهم) فوجب أن يكون نفس على أفضل أيضاً من سائر الصحابة) «١».

وبعد إirاده لهذا الدليل يمر الفخر الرازي مر الكرام ويكتفى في الجواب قائلاً: (إنه كما انعقد الإجماع بين المسلمين على أن محمداً صلى الله عليه وآله أفضل من على، فكذلك انعقد الإجماع بينهم قبل ظهور هذا الإنسان، على أن النبي أفضل ممن ليس بنبي واجمعوا على أن علياً

(١) التفسير الكبير، ج ٨، ص ٨١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٨٩

(رضى الله عنه) ما كان نبياً، فلزم القطع بأن ظاهر الآية كما أنه مخصوص في حق محمد صلى الله عليه وآله، فكذلك مخصوص في حق سائر الأنبياء عليهم السلام) «١».

تمعنوا جيداً في كلام «الفخر الرازي» تجدوا بأنه في واقع الأمر لا يمتلك جواباً لذلك الاستدلال القوي والتمتين، وكأنه يريد الكلام لملء الفراغ فحسب، وإلّا فالقول بأفضلية كل نبي من الأنبياء على من هو غير نبي ليس محل جدال، لأن أفضلية جميع أنبياء الله على غيرهم مسلم بها في الوحي فقط، وأما في غير الوحي فرّما يكون هناك عظماء أفضل من الأنبياء جميعاً ما عدا رسول الله صلى الله عليه وآله، ولو غضضنا النظر عن هذا فإن الكلام حول أفضلية على سائر الامة، وهذا الأمر لا يحتاج إلى إثبات أفضليته عليه السلام على سائر الأنبياء (تأملوا جيداً).

على أية حال، فالفضيلة التي تستنتج من هذه الآية والروايات المتواترة التي جاءت تعقيباً عليها تستطيع توضيح قضية خلافة النبي صلى

الله عليه وآله لأنَّ الله تعالى يأبى أن يكون الأفضل مأموماً وغير الأفضل إماماً، وأن يكون الذى هو كنفس النبى صلى الله عليه وآله تابعاً، ومن سواه الذى يليه فى المرتبة متبوعاً!!
وفى هذه القضية لا فرق فى أن نرى الإمامة مشروطة بتعيين إلهى - كما نعتقد نحن أو عن طريق انتخاب الأمة، كما يعتقد أبناء السنَّة، لأنَّه فى الحالة الأولى من المحال أن يقدم الله تعالى «المفضول» على «الأفضل»، وفى الحالة الثانية لا ينبغى للأمة أن تقدم على فعل يخالف الحكمة، ولن يكون مقبولاً ومرضياً فيما أقدمت عليه.

مؤاخذاتهم على آية المبالهة:

المؤاخذة المعروفة التى أثارها صاحب المنار والآخرين بصدد نزول الآية بحق أهل البيت عليهم السلام، وهى: كيف يتسنى أن يكون المراد من «أبناءنا» الحسن والحسين عليهما السلام والحال إن كلمة «أبناء» جمع ولا يطلق الجمع على المثنى؟ وأيضاً: كيف يمكن إطلاق كلمة

(١) تفسير الكبير، ج ٨، ص ٨١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٠

«نساءنا» وهى تفيد الجمع، على السيدة فاطمة عليها السلام فقط؟

وكذا كيف يمكن أن يكون المراد من «أنفسنا» علياً وحده؟ إذ إن «أنفسنا» صيغة جمع أيضاً، وعلى عليه السلام كان واحداً.

الجواب:

فى الرد على هذا السؤال نلفت انتباهكم إلى عدَّة أمور:

١- كما ذكر بالتفصيل فيما سبق فقد وصلتنا روايات كثيرة فى العديد من المصادر الإسلامية المعتبرة والمعروفة سواء من الشيعة أو السنَّة بصدد نزول هذه الآية بشأن أهل البيت، حيث صرَّح فيها أن النبى صلى الله عليه وآله لم يصطحب معه إلى المبالهة غير على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وهذا بذاته سيكون قرينه واضحة لتفسير الآية، فإننا نعلم أن من بين القرائن التى تفسر آيات القرآن هى (السنَّة وسبب النزول القطعى).

على هذا الأساس، فالمؤاخذة المذكورة لا تثير اهتمام الشيعة فحسب، بل يجب على علماء الإسلام جميعاً الرد عليها.

٢- إن إطلاق (صيغة الجمع - على «المفرد» أو «المثنى») ليس أمراً مستجداً، وكثيراً ما يشاهد هذا المعنى فى القرآن وغيره من الأدب العربى وغير العربى.

وتوضيح ذلك هو: كثيراً ما يحصل عند تفصيل قانون ما، أو تنظيم وثيقة ما، إيراد الحكم بصيغة العموم أو الجمع، فمثلاً يدونون فى الوثيقة أن: المسؤول على تنفيذها هم الموقعون عليها وأبناؤهم، بينما ربما يكون لأحد طرفيها ولدٌ واحدٌ أو ولدان، فهذا الموضوع لا يتعارض أبداً مع تنظيم القانون أو الوثيقة بصيغة «الجمع».

خلاصة الأمر لدينا مرحلتان: «مرحلة إبرام العقد»، و «مرحلة التنفيذ».

ففى مرحلة إبرام العقد تذكر الألفاظ بصيغة الجمع لكى تنطبق على كافة المصاديق، أما فى مرحلة التنفيذ فربما ينحصر المصداق بشخص واحد، وهذا الحصر فى المصداق لا يتعارض وعمومية القضية.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩١

وبعبارة اخرى فقد كان النبي صلى الله عليه و آله مكلّفًا على ضوء العهد الذي كان أبرمه مع نصارى نجران أن يصطحب معه أبناءه ونساءه والذين هم بمنزلة نفسه جميعاً إلى المباهلة، ولكن لم يكن مصداقاً لهؤلاء سوى ابنين وامرأة واحدة ورجل واحد.

وفي القرآن الكريم لدينا موارد اخرى عديدة بأن تأتي العبارة بصيغة الجمع إلّا أنّ مصداقها يختص بشخص واحد لسبب ما، مثل الآية: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ». (آل عمران / ١٧٣)

فالمراد في كلمة الناس في هذه الآية وعلى ضوء تصريح فريق من المفسرين هو «نعيم بن مسعود» الذي كان قد أخذ الأموال من «أبي سفيان» ليُرعبَ المسلمين من قوّة المشركين!

كما نقرأ في الآية: «لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ».

(آل عمران / ١٨١)

فالمراد من «الذين» في الآية وبناءً على ما صرّح به بعض المفسرين هو «حي بن اخطب» أو «الفتحاص»، وأحياناً يشاهد اطلاق كلمة الجمع على المفرد أيضاً من باب الإكبار، كما نقرأ بشأن إبراهيم: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ». (النحل / ١٢٠)

فهنا اطلقت كلمة «أمّة» وهي جمع على شخص واحد (وكان لنا بحث مفصّل أيضاً بهذا الصدد).

٣- يُستفاد من آية المباهلة أيضاً أن يقال لأبناء البنت «ابن» على العكس ممّا كان شائعاً في الجاهليّة حيث كانوا يعتبرون أبناء الابن فقط أبناءهم، وكانوا يقولون:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد

فهذا النمط من التفكير كان وليداً لتلك السنّة الخاطئة حيث إنهم لم يكونوا يرون أنّ الانثى عضواً رئيساً في المجتمع البشري، ويعدونهن أوعيةً لحمل الأولاد فقط.

كما يقول شاعرهم:

وإنّما امهات الناس أوعيةٌ مستودعاتٌ وللانساب آباء

بيد أنّ الإسلام قضى على هذا النمط من التفكير قضاءً مبرماً واجرى حكم الابن على

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٢

أبناء الولد والبنت على حدّ سواء.

ونقرأ في القرآن الكريم بشأن أبناء إبراهيم: «وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصّٰلِحِينَ». (الأنعام / ٨٥-٨٤)

ففي هذه الآية عدّ المسيح من أبناء إبراهيم والحال أنّه كان ابن من البنت.

وفي الروايات الواردة عن طرق الشيعة والسنّة بحقّ الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام كثيراً ما يلاحظ تكرار اطلاق كلمة «ابن رسول الله».

ونقرأ في الآيات المتعلقة بالنساء اللواتي يحزّم الزواج منهن: «وحلائل أبنائكم...»، فهذه المسألة من المسلّم بها بين فقهاء الإسلام حيث إنّ زوجات الأبناء والأحفاد أولاداً كانوا أم بنات محرّمات على الشخص ومشمولات بالآية أعلاه.

ومن الامور الجديرة بالاهتمام بشأن آية المباهلة ما ورد في الرواية المشهورة أنّ المأمون العباسي سأل الإمام علياً بن موسى الرضا عليه السلام: ما الدليل على خلافة جدك علي بن أبي طالب؟ قال: «آية أنفسنا»، قال: «لولا نساءنا» قال: «لولا أبنائنا».

يقول العلّامة الطباطبائي في تفسير هذه الجملة القصيرة:

«آية أنفسنا» يريد أن الله جعل نفس علي عليه السلام كنفس نبيّه صلى الله عليه و آله، وقوله: لولا نساءنا.

معناه: أنّ كلمة نساءنا في الآية دليل على أنّ المراد بالأنفس الرجال فلا فضيلة فيه حينئذٍ، وقوله: لولا أبنائنا، معناه: أنّ وجود أبنائنا فيها

يدل على خلافه، فإن المراد بالأنفس لو كان هو الرجال لم يكن مورداً لذكر الأبناء» (١) «تأملوا جيداً).

ونقلت هذه الحادثة في بحار الأنوار بنحو آخر، والظاهر أن السؤال وجواب الإمام الرضا عليه السلام عنه كان في موضع آخر، تقول هذه الرواية: قال المأمون يوماً للرضا عليه السلام: أخبرني بأكبر فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام يدل عليها القرآن، فقال له الرضا عليه السلام: «فضيلة في المباهلة، قال الله تعالى «فمن حاجك فيه...» الآية، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن والحسين عليهم السلام فكانا

(١) تفسير الميزان، ج ٣، ص ٢٣٠- ذيل آية المباهلة.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٣

ابنيه، ودعا فاطمة عليها السلام فكانت في هذا الموضع نساءه، ودعا أمير المؤمنين عليه السلام فكان نفسه بحكم الله عز وجل، فقد ثبت أنه ليس أحد من خلق الله تعالى أجلاً من رسول الله صلى الله عليه وآله وأفضل فوجب أن لا يكون أحد أفضل من نفس رسول الله صلى الله عليه وآله بحكم الله تعالى...».

فقال له المأمون: هل بالإمكان أن يذكر الدعاء لمن هو نفسه، ويكون المراد نفسه في الحقيقة دون غيره فلا يكون لأمير المؤمنين عليه السلام ما ذكرت من الفضل؟ قال عليه السلام: «ليس يصح ما ذكرت، وذلك أن الداعي إنما يكون داعياً لغيره، كما أن الأمر أمر لغيره، لم يدع رسول الله صلى الله عليه وآله رجلاً في المباهلة إلا أمير المؤمنين عليه السلام فقد ثبت أنه نفسه التي عنها الله سبحانه في كتابه وجعل حكمة ذلك في تنزيهه» (١).

(١) بحار الأنوار، ج ١٠، ص ٣٥٠، مع الاختصار.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٥

٢- آية خير البرية

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَأَوْهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ». (البينة/ ٧- ٨)

في هذه الآيات وما قبلها ذكر الله تعالى «خير» و «شر» مخلوقاته، فهو يصف الكفار والمشركين وأهل الكتاب الذين يفكرون بإطفاء نور الله من خلال مختلف الدسائس والمؤامرات، وهم ضالون ويجزون الآخريين نحو الضلالة، بأنهم شر البرية (١)، وفي المقابل وصف المؤمنين الذين اكتشفوا طريق الحق في ظل إيمانهم وكانوا ولا زالوا مصدراً للأعمال الصالحة، فبالإضافة إلى أنهم مهتدون فهم نبراس هداية الآخرين، على أنهم «خير البرية».

صحيح أن مفهوم الآية واسع وشامل، ولا يختص بشخص أو أشخاص معينين، ولكن تمت الإشارة في العديد من الروايات الإسلامية التي جاءت في مصادر الحديث لأهل السنة والشيعة، إلى أشخاص يقفون في طليعة (خير البرية) وأفضل مخلوقات الله.

إن التمعن في مضمون هذه الروايات بإمكانه إيضاح الكثير من الحقائق التي يلفها الغموض لحد الآن بالنسبة للبعض. وأن يكون رداً على الكثير من الأباطيل النابعة عن الجهل.

(١) «البرية» من مادة «برء» وتعني الخلق، لذا يقال لله تعالى «البارئ» بمعنى «الخالق» والمخلوقات بريئة، وقال البعض، إن «البرية» من «البري» وتعني «التراب» وبما أن المخلوقات برئت من التراب فيقال لها «برية»، وقال البعض أيضاً، إن «البرية» أخذت من «بريت القلم»

ونظراً إلى أن المخلوقات تأتي إلى الوجود بأمر الله على أشكال مختلفة من حيث الهيئة والقامة كأنهم يشبهون الأقلام المبراة في مصنع الخلق فيقال لها «برية» (يراجع تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧٢٣٥؛ ومفردات الراغب وسائر كتب اللغة).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٦

وهنا نلفت انتباه القراء إلى جانب من هذه الروايات:

١- يروى المفسر المعروف «السيوطي» في الدر المنثور عن «ابن عساكر» عن «جابر بن عبد الله» في ذيل هذه الآية: كُنَّا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وإذا بعلى قادم نحونا، ولَمَّا وقعت عين رسول الله صلى الله عليه وآله عليه، قال: «والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة»، ونزلت «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية»، فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله إذا أقبل على عليه السلام قالوا: جاء خير البرية «١».

وجاءت هذه الرواية بنفس المضمون، في «شواهد التنزيل» للحاكم الحسكاني «٢».

٢- ونقرأ في رواية أخرى عن ابن عباس: لما نزلت آية: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية»، قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «هو أنت وشيعتك، تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين ويأتي عدوك غضباناً مقمحين» «٣».

٣- جاء في رواية أخرى عن «أبو بريدة»: لَمَّا قرأ النبي صلى الله عليه وآله هذه الآية، التفت إلى علي عليه السلام وقال: «هم أنت وشيعتك يا علي وميعاد ما بيني وبينك الحوض» «٤».

٤- جاء في تفسير الدر المنثور أن ابن مردويه يروى عن علي عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله قال لي:

«ألم تسمع قول الله إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية، أنت وشيعتك وموعدى وموعدكم الحوض إذا جئت الأمم للحساب تدعون غراً محجلين» «٥».

٥- كما ورد في «شواهد التنزيل»: إن «عطية الكوفي» يقول: دخلنا على «جابر بن عبد الله الأنصاري» وقد سقط حاجباه على عينيه من الكبر فقلنا له: اخبرنا عن علي، فرفع حاجبيه بيده ثم قال: «ذاك من خير البرية» «٦».

(١) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٣٧٩.

(٢) شواهد التنزيل، ج ٢، ح ١١٣٩.

(٣) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣٥٧، ح ١١٢٦؛ ونفس المضمون أورده ابن حجر في الصواعق، ص ٩٦؛ والشبلنجي في نور الابصار، ص ٧٠ و ١٠١ أيضاً.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٥٩، ح ١١٣٠.

(٥) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٣٧٩.

(٦) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣٦٤، ح ١١٤٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٧

٦- يروى الكنجي الشافعي في كفاية الطالب عن عطاء: سألت عائشة عن علي عليه السلام فقالت: «ذاك خير البشر لا يشك فيه إلَّا كافر» «١».

ونقل في نفس الكتاب أيضاً عن «حذيفة» أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «علي خير البشر، من أبي فقد كفر» «٢».

بديهى أن هذه التعابير جميعها ناظرة إلى شخص علي عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله، أى أنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

والملفت للانتباه أن الآلوسى المفسر السنّي المعروف الذى يمتاز بتشدد خاص فى الروايات الخاصة بفضائل على عليه السلام (وطالما أشرنا إلى نماذج من ذلك فى هذا الكتاب) وبعد بيانه لجانب مهم من الروايات الواردة عن النبى صلى الله عليه وآله فى ذيل هذه الآية، يقول: «ليس معنى هذه الروايات أن هذه الآية تخص علياً عليه السلام وشيعته، وإن كانوا داخلين فى هذه الآية ويقفون فى الصفوف الأولى بلا ريب.

ثم يقول: إن الإمامية وإن كانوا يعتبرون علياً عليه السلام أفضل من الأنبياء والملائكة، إلا أنهم يفضلون النبى صلى الله عليه وآله عليه». وخلاصة القول: إن جماعة كثيرة نقلت الروايات المتعلقة بـ «خير البرية» فى المصادر الإسلامية المعروفة، وهى من أجلى الأدلة على فضلية على عليه السلام على كافة المسلمين والصحابة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

هذا فى الوقت الذى ركز أعداء على عليه السلام وبسبب عدائهم له أبان عهد بنى امية الأسود على كتمان فضائله، وكتم شيعته فضائله بسبب خوفهم من أولئك المجرمين، إلا أن هذه الفضائل العظمى قد تجاوزت جميع هذه الحقب، وبعد كل هذه القرون والاعصار وصلت إلينا بأعجوبة، وهذا لم يتحقق إلا باللطف الإلهي.

على أى حال، يستفاد من هذه الروايات بالإضافة إلى الآية الشريفة أمران هما:

(١) ١. كفاية الطالب، ص ١١٨، طبعه الغرى (على ضوء نقل احقاق الحق، ج ٣، ص ٢٨٨).

(٢) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٨

١- أفضلية على عليه السلام على جميع أصحاب النبى صلى الله عليه وآله، وحيث إن تقديم غير الأفضل على الأفضل فعل قبيح وغير مقبول، فلا يمكن تقديم غيره عليه، وعليه يجب أن يكون هو أول خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله، سواء كان التنصيب من الله - كما تعتقد الشيعة - أم من قبل الأمة حيث تعتقد به طائفة أخرى

٢- الأمر الآخر الذى نحصل عليه من هذه الروايات العديدة هو أن تسمية اتباع على عليه السلام بـ «الشيعة» أمر ورد على لسان النبى صلى الله عليه وآله مراراً، والذين يعلنون عداءهم لهذه الصفة، ويتنفرون منها، وأحياناً يتخذون «الشين» فيها دليلاً على «الشؤم» و «الشر» هم فى الواقع قد انبروا إلى معارضة رسول الله صلى الله عليه وآله ويعربون عن انزعاجهم لكلامه والعياذ بالله، ومن المسلم به أن فعلهم صعب جداً فيما لو صرحوا بكلامهم هذا علانية، أليس الأفضل أن نقول: «إنهم كانوا يجهلون هذه الروايات الواردة عن النبى صلى الله عليه وآله؟».

نعم، فللقب الشيعة لا يثير الازعاج، إنه تاج فخر وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله على رؤوس أتباع مذهب على عليه السلام، طبقاً للكثير من الروايات، نسأل الله أن نكون أهلاً لهذا الفخر.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ١٩٩

٣- آية ليلة المبيت

نقرأ فى الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ». (البقرة/ ٢٠٧)

وردت روايات كثيرة فى المصادر الإسلامية المعروفة فى شأن نزول هذه الآية منها:

١- ينقل المفسر السنّي المعروف «الثعلبي» فى تفسيره فى شأن نزول هذه الآية ما يلى:

«لما عزم النبى صلى الله عليه وآله على الهجرة إلى المدينة، ترك على بن أبى طالب عليه السلام فى مكة ليؤدى الديون التى عليه والأمانات إلى اهلها، وأمره ليلة خرج إلى الغار وقد احاط المشركون بالدار، أن ينام فى فراشه صلى الله عليه وآله وقال له: اتشح

يبردى الأخضر، ونم على فراشى فأنه لا- يصل منهم إليك مكروه إن شاء الله، ففعل ذلك على عليه السلام فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل إنى آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر، فأيتكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختر كلاهما الحياة فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا- كنتما مثل على؟ آخيت بينه وبين محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، إهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه، فبزلا فكان جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجله وجبرائيل ينادى بخ بخ من مثلك يا على بن أبى طالب يباهى الله تبارك وتعالى بك الملائكة فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله وهو متوجه إلى المدينة فى شأن على عليه السلام: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ».

وقد نقل رواية الثعلبى هذه وبنفس التفصيل كل من الغزالى فى إحياء العلوم (ج ٣، ص ٢٣٨) والكنجى فى كفاية الطالب (ص ١١٤) ... وابن الصباغ المالكى فى «الفصول المهمة» (ص ٣٣) و«السبط بن الجوزى الحنفى» فى «تذكرة الخواص» (ص ٢١) و«الشبلنجى» فى «نور الابصار» (ص ٨٢) «١».

(١) الغدير، ج ٢، ص ٤٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٠

نفحات القرآن ج ٩ ٢٤٩

٢- ويروى الحاكم الحسكافى فى «شواهد التنزيل» عن «أبو سعيد الخدرى» هذا المضمون بشىء من التفاوت «١».

٣- وفى نفس الكتاب «شواهد التنزيل» يروى عن ابن عباس أن علياً عليه السلام كان أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وآله بعد خديجه وارتدى رداءه وبات فى فراشه ... (لكنه لم يشر إلى الآية الشريفة فى هذه الرواية) «٢».

٤- وفى نفس الكتاب أيضاً يروى هذا المعنى عن «عبد الله بن سليمان» (وفى نسخة عن عبد الله بن عباس) قال: «أنام رسول الله صلى الله عليه وآله على فراشه ليله انطلق إلى الغار، فجاء أبو بكر يطلب رسول الله فأخبره على أنه قد انطلق، فأتبعه أبو بكر وباتت قريش تنظر علياً وجعلوا يرمونه، فلما أصبحوا إذا هم بعلى، فقالوا: أين محمد؟ قال: لا علم لى به، فقالوا: قد أنكرنا تزورك كئنا نرمى محمداً فلا يتصور وأنت تتصور، وفيه نزلت هذه الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ» «٣».

٥- يروى الحاكم النيسابورى فى كتابه المعروف «مستدرک الصحيحين» عن ابن عباس أن علياً عليه السلام باع نفسه لله، وارتدى ثوب النبى صلى الله عليه وآله وبات فى فراشه ... وفى نهاية هذه الرواية يقول: هذا الحديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه «٤».

٦- فى نفس الكتاب يروى عن «حكيم بن جبير» عن «على بن الحسين عليه السلام: «إن أول من شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله على بن أبى طالب عليه السلام» «٥».

ثم يضيف: لما أراد على عليه السلام المبيت فى فراش رسول الله صلى الله عليه وآله، كان يردد هذه الأبيات:

وقيتُ بنفسى خير من وطىء الحصى ومن طاف بالبيت العتيق وبالبحر

رسول إله خاف أن يمكروا به فنجاه ذو الطول الإله من المكر

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٩٦، ح ١٣٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٨.

(٣) شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٠٠.

(٤) مستدرک الصحيحين، ج ٣، ص ٤.

(٥) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠١ وبات رسول الله في الغار آمنًا موقى وفي حفظ الإله وفي ستر

وبت أراعيهم ولم يهتمونني وقد وطنت نفسي على القتل والأسر «١»

وجاءت هذه الآيات التي تعبر عن التضحية والإيثار وفخر على عليه السلام بهذا الأمر، في كتب أخرى أيضاً.

٧- يقول «الطبري» المؤرخ المعروف بشأن هجرة النبي صلى الله عليه وآله واحاطة المشركين بداره صلى الله عليه وآله: ثم جعلوا يطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله صلى الله عليه وآله فيقولون:

«والله إن هذا لمحمد نائم عليه برده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام على عن الفراش فقالوا: والله لقد صدقنا الذي حدثنا فكان مدياً نزل في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ...» «٢».

(الانفال / ٣٠)

٨- يروي «ابن الأثير» في «اسد الغابة» في فضائل علي عليه السلام: «لما أراد النبي صلى الله عليه وآله الهجرة، خلف علي بن أبي طالب بمكة لقضاء ديونه ورد الودائع التي كانت عنده، وأمره ليلة خرج من الغار وقد أحاط به المشركون بالدار أن ينام على فراشه وقال: إتشح ببردي الحضرمي - وبعدها نقل قصة ليلة المبيت وما أوحى الله إلى جبرائيل وميكائيل .. ثم قال:

فأنزل الله عز وجل علي رسوله وهو متوجه إلى المدينة في شأن علي: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ» «٣».

٩- يروي «أحمد بن حنبل» أحد أئمة أهل السنة الأربعة في مسنده وهو من المصادر الإسلامية المشهورة، عن ابن عباس في تفسير الآية: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ...» قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأتبوه بالوثائق - يريدون النبي صلى الله عليه وآله وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجه، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وآله في ذلك فبات علي عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله وخرج النبي صلى الله عليه وآله حتى لحق بالغار» «٤».

(١) مستدرک الصحيحین: ج ٣، ص ٤.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٠٠.

(٣) اسد الغابة، ج ٤، ص ٢٥.

(٤) مسند أحمد، ج ١، ص ٣٤٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٢

ولم يشر الإمام أحمد إلى آية: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ...»، إلا أنه يتحدث عن آية: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...» التي وردت في واقعة ليلة المبيت أيضاً.

ولا تنحصر الروايات بما قيل: بل هناك روايات كثيرة أخرى رويت في المصادر المعروفة بهذا الصدد، وللمزيد من الاطلاع بإمكانكم مراجعة كتب: احقاق الحق «١»، وشواهد التنزيل «٢»، وفضائل الخمسة «٣»، والغدير «٤»، وتفسير البرهان «٥».

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٩٦ وما بعدها.

(٢) فضائل الخمسة، ج ٢، ص ٣٤٥ وما بعدها.

(٣) الغدير، ج ٢، ص ٤٩ وما بعدها.

(٤) الغدير، ج ٢، ص ٤٩ وما بعدها.

(٥) تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٠٦-٢٠٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٣

٤- آية الحكمة

«يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا». (البقرة/ ٢٦٩)

يروى الحاكم الحسكاني في «شواهد التنزيل» عن «الربيع بن الخيثم» أنهم ذكروا عنده علياً، فقال: لم أرهم يجدون عليه في حكمه والله تعالى يقول: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» (١).

وفي نفس الكتاب نُقلت عدّة روايات اخرى بهذا المعنى أو ما يدانيه.

بالإضافة إلى أنه يروى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فِي حُلْمِهِ، وَإِلَى نُوحٍ فِي حِكْمَتِهِ، وَإِلَى يُوسُفَ فِي اجْتِمَاعِهِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» (٢).

وفي موضع آخر يروى عن «أبي الحمراء»: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَقَدِمَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَحُونَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى آدَمَ فِي عِلْمِهِ، وَنُوحَ فِي فَهْمِهِ، وَإِبْرَاهِيمَ فِي حُلْمِهِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» (٣).

ويروى عن «ابن عباس» أيضاً، كنت عند رسول الله صلى الله عليه وآله فسئل عن علي عليه السلام فقال:

«قُسِمَتِ الْحِكْمَةُ عَشْرَةَ أَجْزَاءٍ فَأُعْطِيَ عَلَى تِسْعَةِ أَجْزَاءٍ وَأُعْطِيَ النَّاسَ جِزَاءً وَاحِدًا» (٤).

إنّ هذه العبارات تكشف بجلاء أن ليس هنالك من أحد من الامة الإسلامية بعد

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٣٧، ح ١٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٦، ح ١٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٩، ح ١١٦.

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٥، ح ١٤٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٤

النبي صلى الله عليه وآله يضاهاى علياً عليه السلام في العلم والمعرفة والحكمة، وحيث إنّ أهم أركان الإمامة، العلم والحكمة فإنّه كان أجدر الناس للإمامة والخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله.

جاء أيضاً في «صحيح الترمذى» أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «أنا دار الحكمة وعلي بابها» (١).

ومن المسلم به أنّ من أراد دخول البيت، عليه أن يدخل من الباب كما أمر بذلك القرآن الكريم: «وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا». (البقرة/

١٨٩)

وعليه فمن أراد الدخول إلى خزائن علم النبي صلى الله عليه وآله عليه المبادرة إلى علي عليه السلام وطلب مفتاح هذا الكنز منه.

(١) صحيح الترمذى، ج ٥، ص ٦٣٧ (المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب، ح ٣٧٢٣).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٥

٥- آيات سورة هل اتى (الإنسان)

تعتبر سورة «هل أتى سنداً آخر من الأسانيد المهمة لفضيلة على عليه السلام وآل النبي صلى الله عليه وآله، وأن التمعن في مضمون هذه السورة وعباراتها، وكذا شأن النزول الذي ذكر لها يزيل الغموض عن الكثير من القضايا. صحيح أن آيات هذه السورة تعرض بحثاً عاماً، إلا أن سبعة عشر آية منها التي تبدأ من الآية ٥: «إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا» وتستمر حتى الآية ٢٢، تتحدث عن نفر على أنهم «أبرار»، بيد أن شأن النزول والروايات العديدة التي وردت في المصادر الإسلامية المعروفة، تكشف أن أتم وأكمل مصداق للأبرار في هذه الآية هم: علي، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام.

والجدير بالاهتمام أن في هذه الآيات السبعة عشر ذكرت أنواع نعم الجنة، وأفضلها واسماها - سواء المعنوية أو المادية - إذ أنها تتحدث عن بساتين الجنة، وعيون ماء الجنة الطاهر، والملابس، والزينة، والطعام، والأرائك والأسيرة، والولدان، وبالتالي النعم العظيمة والملك العظيم، والنعم الوحيدة التي لم تجر الإشارة إليها في ما بين هذه النعم هي الأزواج وحوار الجنة حيث يقول بعض العارفين بأسرار القرآن: إن هذا الأمر بمثابة الاحترام لسيدة الإسلام فاطمة الزهراء عليها السلام.

وقليلاً ما تجتمع نعم الجنة هذه وفي أقصى درجاتها في سورة من سور القرآن الكريم، وهذا يبرهن على أن المراد من «الأبرار» هنا ليسوا أناساً عاديين، بل أبرار ومطهرون وفي غاية العظمة والقرب من الله.

وهذا الأمر جدري بالذكر أيضاً حيث ذكرت علامات لهؤلاء «الأبرار» إذا أنها تكشف عن

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٦

منزلتهم، يقول تعالى: «يُوقُونَ بِالْأَنْدَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا» وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا* أَلَمْ نَطْعِمْكُمْ لَوْجَهُ اللَّهِ لَأَنْتَرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا* أَنَا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. (الإنسان/ ٧-١٠)

أما شأن نزول هذه الآية: فيروى الزمخشري في تفسيره المعروف «الكشاف» عن ابن عباس: «إن الحسن والحسين عليهما السلام مرضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله في ناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن، لو نذرت علي ولدك، فنذر علي وفاطمة وفضة إن برثا مما بهما: أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما معهم شيء فاستقرض علي عليه السلام ثلاثة أصوع شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبرت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال: «السلام عليكم» «١» أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فأثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء، وأصبحوا صياماً فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم سائل يتيم فأثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة، ففعلوا مثل ذلك؛ فلما أصبحوا أخذ علي عليه السلام بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فلما أبصرهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوءني ما آرى بكم، وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك، فنزل جبريل وقال: خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة» «٢».

ويروى القرطبي هذا المعنى باختلاف قليل في تفسيره في ذيل آيات البحث، وينقل أيضاً شعراً عن السائلين وعن سيدة الإسلام في هذا المجال «٣».

ونقل «الفخر الرازي» أيضاً في تفسيره نفس هذه القصة عن الواحدى في كتاب «الوسيط»، والزمخشري في الكشاف، ولكنه يضيف في ذيلها: إن عبارة «إن الأبرار يشربون...» جاءت بصيغة الجمع، وأنها تشمل الأبرار جميعاً، ولا يمكن حصرها بشخص

(١) جاء نذر الحسن والحسين عليهما السلام في رواية الجعفي طبقاً لنقل تفسير القرطبي (تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٩٢٢).

(٢) تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٦٧٠ (ذيل آيات هذه السورة).

(٣) تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٩٢٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٧

واحد (على بن أبي طالب عليه السلام)، وبالطبع لا يمكن انكار أن علياً عليه السلام داخل في عموم هذه الآيات، لكنها لا تختص به. إلما أن يقال: إن هذه السورة نزلت أثناء أداء على عليه السلام العبادة خاصة، ولكن ثبت في اصول الفقه أن المعيار عموم اللفظ، لا خصوصية السبب (١).

على أن الفخر الرازي كأنه نسي هذا الأمر وهو أن شأن النزول يقول: إن هذه الآيات نزلت بحق على، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام لا في على بن أبي طالب خاصة لتقع مشكلة صيغته الجمع.

أضف إلى ذلك: أن المراد من شأن النزول ليس إلغاء «عمومية مفهوم الآية»، بل المراد هو أن هذه الآيات نزلت للمرة الاولى بعد قيام هذه الاسرة بتلك العبادة والطاعة والايثار، وهذه فضيلة عظيمة ومنحة كبيرة أن تنزل هذه الآيات بعد أداء ذلك العمل.

وبتعبير آخر: إن علياً عليه السلام وأهل بيته المصداق السامى لهذه الآيات، بل يعدون النموذج الكامل لها، لأن علة نزولها هو عملهم الطاهر، ومن أراد انكار هذه الفضيلة العظمى إنما يخادع نفسه.

وينقل «الألوسي» أيضاً هذه القصة بكاملها في «روح المعاني» عن ابن عباس، ومن ثم يضيف: وهذا الخبر مشهور بين القوم.

ثم يسعى وعلى ديدنه إلى التقليل منها أو إضعافها، ومن أجل هذا الغرض يضيف بعد بيانه الامور بشأن اسناد هذه الرواية: فاحتمال أصل النزول في الأمير «كرم الله وجهه» وفاطمة (رض) قائم ولا جزم بنفي ولا إثبات لتعارض الأخبار ولا يكاد يسلم المرجح عن قيل وقال ... إذ دخولهما في الأبرار أمر جلي بل هو دخول أولى فهما هما وماذا عسى يقول امرؤ فيهما سوى أن علياً مولى المؤمنين ووصى النبي صلى الله عليه وآله وفاطمة البضعة الأحمدية والجزء المحمدي وأما الحسنان فالروح والريحان وسيدا شباب الجنان وليس هذا من

(١) تفسير الكبير، ج ٣، ص ٢٤٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٨

الرفض بشيء بل ما سواه عندي هو الغي (١).

إلّا أننا نقول: لو تغافلنا عن منقبة بهذه الشهرة فإن سائر الفضائل يكون مصيرها هكذا، وسيأتي اليوم الذي ستوضح أفضلية على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. فلماذا نتجاهل هذه الرواية المعروفة التي نقلها كبار المحدثين والمفسرين والتي لا معارض لها، ونسد على انفسنا طرق معرفة هؤلاء العظماء!؟

يروى «السيوطي» العالم السني المعروف في تفسير «الدر المنثور» عن ابن مردويه عن ابن عباس: إن الآية «ويطعمون الطعام على حبه» نزلت بحق على وفاطمة عليهما السلام.

وأورد «الشبلنجي» أيضاً في «نور الابصار» قصة شأن النزول بكاملها (٢)، وكذلك فريق آخر من كبار المفسرين والمحدثين.

هل أتى في الشعر:

إن نزول هذه السورة بحق أهل البيت عليهم السلام جلى إلى الحد الذي أشار الكثير من الشعراء المعروفين إلى هذا المعنى في شعرهم، منها هذه الأبيات التي نقلت عن إمام الشافعية «محمد بن ادريس الشافعي» في العديد من الكتب:

إلى م، إلى م، وحتى متى اعاتب في حب هذا الفتى

وهل زوجت فاطم غيرة؟ وفي غيره هل أتى هل أتى (٣)

ينقل «ابن البطريق» وهو من علماء القرن السادس الهجري في كتاب «عمدة عيون صحاح

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٩، ص ١٥٨.

(٢) نور الابصار، ص ٦٢.

(٣) احقاق الحق، ج ٣، ص ١٥٨؛ وعلى في الكتاب والسنة، ج ١، ص ٤٤٧. نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٩

الأخبار» عن تفسير ابن اسحاق الثعلبي، أنه قال:

أنا مولى لفتى انزل فيه هل أتى «١»

ويقول «محمد بن طلحة الشافعي» أيضاً (من علماء القرن السابع) في كتاب «مطالب السؤال» بحق آل النبي صلى الله عليه وآله:

هم العروة الوثقى لمعتصم بهامناقبهم جاءت بوحي وانزال

مناقب في الشورى وسورة هل أتى وفي سورة الاحزاب يعرفها التالي «٢»

المراد من مناقب تلك العترة في الآية: «قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ اجْرًا أَلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى .

(الشورى / ٢٣)

والمراد من الآية «أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ». (الاحزاب / ٣٣) وقصة سورة هل أتى معلومة أيضاً.

كما نقلت أشعار كثيرة أخرى بهذا الصدد عن «طلّاح» ابن رزيك (أبو الغارات) «٣».

المشككون وسورة هل أتى

إنّ كل مطلع على كتب الحديث والتفسير والتاريخ للاخوة أهل السنة يعرف جيداً حيثما يكون الحديث عن منقبة لعل بن أبي طالب عليه السلام وآل النبي صلى الله عليه وآله ينبرى بعض المتعصبين من هنا وهناك ويثيرون الشبهات، ويسعون بشتى الذرائع اثاره المؤاخذات على سند ودلالة ومضمون ذلك الحديث، ويقللون من أهميته، وإن كانت المؤاخذات ضعيفة وواهيّة، وكأنّهم قطعوا عهداً على أنفسهم على أنّ لا يتقبلوا أياً من هذه الفضائل، وإن تقبلوها فإنّها لا تتفق وحكمهم المسبق.

إنّ مطالعة كتب مثل تفسير «روح المعاني»، و«الفخر الرازي»، و«المنار»، ونحو ذلك شاهد على هذا الكلام بأنّ حكمهم العقائدي المسبق يقف حائلاً في جميع الأحوال أمام

(١) عمدة عيون صحاح الاخبار؛ ص ٣٤٩.

(٢) مطالب السؤال، ص ٨ (طبقاً لنقل الغدير، ج ٣، ص ١٠٩).

(٣) يراجع كتاب على في الكتاب والسنة، ج ١، ص ٤٤٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٠

الاذعان لهذه الروايات، إلى الحد الذي يصاب الإنسان بالدهشة أحياناً بسبب المؤاخذات الواهيّة التي أثاروها على هذه الروايات. بينما يتقبلون مناقب الآخرين برحابة صدر، وإن بدت عليها آثار الضعف، ومع هذا فقد افلت الكثير من الحالات من سيف انتقاداتهم وهي تكفي لإدراك الحقيقة.

على أيّة حال من الواجب هنا الإشارة إلى جانب مهم من تلك المؤاخذات:

١- إنّ هذه الفضيلة تصح في حالة نزول هذه السورة في المدينة وبعد ولادة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام (والمشهور أنّ ولادة الإمام الحسن عليه السلام في السنة الثالثة للهجرة، وولادة الإمام الحسين عليه السلام في السنة الرابعة للهجرة)، بينما يعتقد الكثيرون بأنّ هذه السورة مكية، وعليه فإنّها لا تتفق وشأن النزول الأنف الذكر.

ولكن بناءً على قول المفسر السني المعروف القرطبي، فإن المشهور أن العلماء يعتقدون بأن هذه السورة مدنية (وقال الجمهور مدنية) (١).

وانضمت طائفة كثيرة إلى هذا الرأي أيضاً، منهم:

الحاكم الحسكاني إذ عدّ هذه السورة من السور المدنية حيث نزلت بعد سورة «الرحمن» وقبل سورة «الطلاق»، والجدير بالاهتمام أن العالم المذكور نقل ثمانية روايات بهذا الصدد جرى التصريح فيها جميعاً بأن سورة «هل أتى مدنية»، وبعض هذه الروايات عن «ابن عباس»، وبعضها عن «عكرمة»، و«الحسن»، وبعضها عن آخرين.

وقد قال في كلامه: إن بعض أعداء أهل البيت اعترضوا على سبب نزول هذه السورة، فقالوا: لقد اتفق علماء التفسير على أن هذه السورة مكية في حين أن قصتها وقعت في المدينة.

ثم يضيف: كيف يسوغ له دعوى الإجماع مع قول الأكثر أنها مدنية (٢).

ونقل في كتاب «تاريخ القرآن» لأبي عبد الله الزنجاني عن كتاب «نظم الدرر وتناسخ الآيات والسور»، عن جماعة من مشاهير أهل السنة: إن سورة هل أتى مدنية (٣).

(١) تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٩٠٩.

(٢) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣١٠-٣١٥.

(٣) تاريخ القرآن، ص ٥٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١١

ويروي «السيوطي» المفسر السني المعروف أيضاً في «الدر المنثور» المعنى نفسه عن ابن عباس بطرق مختلفة.

وفي «الاتقان للسيوطي» نقل أيضاً عن «البيهقي» في «دلائل النبوة» عن عكرمة: إن سورة هل أتى مدنية (١).

بالإضافة إلى أن كافة الذين يرون أن شأن نزول هذه السورة في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وهم جماعة كثيرة جرت الإشارة إليهم آنفاً- وكلهم يشهدون على كون السورة مدنية.

فضلاً عن جميع ذلك، على فرض أن قسماً من هذه السورة مكى، والقسم المتعلق بنذر علي وأهل بيته مدني، فلا مانع من أن يكون قسم من السورة مكياً والآخر مدنياً.

من هنا، فإن مؤلف تفسير «روح البيان» (البرسوي الحنفي) بعد ذكره عن طائفة من كبار العلماء أن سورة «هل أتى مدنية» إشارة إلى كلام الذين يرون أن بعض آياتها مكى والآخر مدني، فيقول: على هذا الأساس يمكنك القول: (إن هذه السورة مكية وإن شئت قلت إنها مدنية على أن الآيات المدنية في هذه السورة أكثر من الآيات المكية، فالظاهر أنها تسمى مدنية لا مكية ونحن لا نشك في صحة القصة) (٢).

من بين الأمور التي اتخذها هذا المفسر وغيره من الواعين دليلاً على كون هذه السورة مدنية هو مجيء كلمة «أسير» فيها، ونحن نعلم أن لا وجود للأسير في مكة، وأن قضية الأسر والأسير كانت بعد نزول حكم الجهاد في المدينة.

يقول صاحب «روح البيان» في هذا المجال: «دل على ذلك أن الأسير إنما كان في المدينة بعد آية القتال والأمر بالجهاد» (٣).

والمدهش أن المتمزتين الذين ليسوا على استعداد للتخلي عن حكمهم المسبق بصدد الولاية والخلافة خلقوا التبريرات ل «الأسير» هنا، حيث بالإمكان أن تكشف عن الحقائق، فقد قالوا: إن المراد من الأسير أسير زوجة! أو أسير الديون، ونحو ذلك ... (٤).

(١) تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٢٢١.

(٢) تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٢٦٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) نقلت هذه الأقوال في البحر المحيط، ج ٨، ص ٣٩٥ عن بعض المفسرين، إلّا أنّ صاحب هذا الكتاب E (أبو حيان الاندلسي) يرى أنّه يعنى الاسير من الكفار.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٢

وينبغي التساؤل: لماذا نذهب وراء المجازيات، مع إمكانية تفسير الاسير بالمعنى الحقيقي؟

٢- كيف يتسنى حصر اللفظ العام للآية بأشخاص محددين؟

ولكن كما أسلفنا مراراً أنّ عمومية مفهوم الآيات لا يتعارض مع سبب النزول الخاص، وهذا يشاهد أيضاً في الكثير من آيات القرآن الكريم الاخرى حيث يكون مفهوم الآية عاماً وشاملاً، إلّا أنّ سبب نزولها وهو مصداقها الكامل والسامى يكون مورداً خاصاً، والمثير للدهشة أنّ أحداً لم يتخذ عمومية مفهوم الآية في سائر الآيات الواردة في القرآن وسبب نزولها دليلاً على معارضة سبب النزول، إلّا أنّ القضية هنا مختلفة!!

٣- المؤاخذه الاخرى التي يثيرها المشككون هي: كيف يتمكن الإنسان من البقاء طويلاً ثلاثة أيام ويفطر بماء فقط؟

بيد أنّ هذه المؤاخذه عجيبة، لأننا كثيراً ما رأينا- وعلى امتداد حياتنا- أشخاصاً يمسون عن الطعام من أجل العلاج، فبعضهم قد يمسون ثلاثة أيام وهذا يسير، وتارة يمسون لمدة عشرة أيام أو عشرين يوماً بل وحتى أربعين يوماً، أى أنّهم وعلى مدى أربعين يوماً لا يشربون سوى الماء فقط، ولا يتناولون طعاماً أبداً (حتى عصير الفواكه والشاي)، وهذا الأمر- حسب اعتقاد الأطباء الذين يعالجون المرضى عن طريق الصيام أدى إلى علاج الكثير من أمراضهم، حتى أنّ طبيباً مشهوراً غير مسلم يدعى «الكسى سوفورين» ألف كتاباً حول آثار الصيام لمدة أربعين يوماً مع بيان دقيق لطرقه «١».

واعتبر بعض الكتاب الصوم لأكثر من عشرين يوماً علاجاً لبعض الأمراض.

إنّ الاضراب عن الطعام ومنه «الاضراب عن الماء» متداول في عصرنا الراهن وأحياناً يتجاوز الأربعين يوماً.

ولكن لماذا يتعجب هؤلاء المشككون من الصوم لمدة ثلاثة أيام والامساك عن الطعام والافطار بالماء لوحده؟ أليس هدفهم هو تعطيل هذه الفضيلة العظمى بأى وسيلة متاحة؟

(١) ترجم هذا الكتاب إلى العربية واسمه «التطبيب بالصوم».

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٣

٦ و ٧- آيات مقدّمة سورة «البراءة» وآية «سقاية الحاجّ»

إشارة

في سورة التوبة، وفي موضعين منها نزلت آيات تتضمن مناقب عظيمة لأمير المؤمنين عليه السلام بلحاظ سبب نزولها والروايات التي نقلها أغلب المفسرين والمؤرخين والمحدّثين.

الاولى آيات مقدّمة سورة البراءة

إشارة

الآيات التي في مطلع هذه السورة التي نزلت بشأن اعلان الحرب على المشركين الذين ينقضون العهد، وقد اتفق كافة المفسرين والمؤرخين تقريباً على أن النبي صلى الله عليه وآله وأثناء نزول هذه الآيات في السنة التاسعة للهجرة التي تعلن فيها عن نقض العهد مع المشركين، اختار «أبا بكر» لابلغ هذا الأمر إلى عامة الناس في مكة خلال الحج، ولكن لم يمض من الوقت شيء حتى استرجع الآيات منه وأعطاها لعلي عليه السلام وأمره بابلغها إلى أهل مكة في مراسم الحج، وهكذا فعل.

وبالرغم من وجود جدل بين المحدثين والمفسرين والمؤرخين في تفرعاتها، نشير هنا إلى جانب من هذه الروايات:

١- يقول أحمد بن حنبل الإمام السنّي المعروف في مسنده الذي هو أحد كتب الحديث المعروفة لدى السنّة: إن النبي صلى الله عليه وآله بعث بالبراءة إلى أهل مكة مع أبي بكر، لا يحج بالبيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلاّ بنفس مسلمة، من كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله مدّة فأجله إلى مدّته، والله بريء من المشركين ورسوله، قال: فسار بها ثلاثاً، ثم قال

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٤

لعلي عليه السلام: إحققه فردّ عليّ أبا بكر وبلغها أنت، قال: ففعل، قال: فلما قدم على النبي صلى الله عليه وآله أبو بكر بكى وقال: يا رسول الله حدث فيّ شيء؟ قال: «ما حدث فيك إلّاخير ولكن امرت أن لا يبلغه إلّاأنا أو رجل منّي» (١).

وينقل الترمذى في سننه المعروفة وهي من المصادر الرئيسة للحديث لدى أهل السنّة، هذه الرواية بتعبير آخر في بحث تفسير القرآن عن أنس بن مالك، أن النبي صلى الله عليه وآله بعث بالبراءة مع أبي بكر، ثمّ دعاه وقال: «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلّا رجل من أهلي فدعا علياً فأعطاه إيّاها» (٢).

ثمّ نقل الترمذى رواية أخرى عن ابن عباس حول هذا الموضوع، ولكن أكثر تفصيلاً وبياناً (٣)، واللطيف أنّه يقول بعد نهاية الحديثين، سواء عنه أم نقلًا عن الآخرين: هذا حديث حسن غريب، إلّاأنه لم يعبر بهذا بشأن غيره من الروايات سواء قبله أو بعده، وهذا بحد ذاته من الامور الغريبة، وكان كل حديث يروى منقبه استثنائية بحق علي عليه السلام يعتبر غريباً بنظرهم.

٢- ينقل السيوطى في الدر المنثور عن «عبد الله بن أحمد بن حنبل» و«ابن مردويه» عن علي عليه السلام لما نزلت الآيات العشر الاولى من سورة التوبة على النبي صلى الله عليه وآله دعا أبا بكر ليأخذ هذه الآيات ويقرأها على أهل مكة؛ ثمّ دعاني النبي صلى الله عليه وآله فقال لي: أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب به إلى أهل مكة فاقرأه عليهم فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه، فرجع أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله نزل فيّ شيء؟ قال: «لا، ولكن جبرئيل جاءني فقال: لن يؤدّي عنك إلّاأنت أو رجل منك» (٤).

٣- وفي نفس الكتاب يروى عن «أحمد» و«الترمذى» و«ابن مردويه» أيضاً عن «أنس» بأنّه صلى الله عليه وآله بعث بآيات البراءة مع أبي بكر، ثمّ دعاه وقال: «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلّا رجل

(١) مسند أحمد، ج ١، ص ٣.

(٢) سنن الترمذى، ج ٤، ص ٣٣٩، ح ٥٠٨٥.

(٣) المصدر السابق، ح ٣٠٩١.

(٤) تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢٠٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٥

من أهلي، فدعا علياً فأعطاه إيّاها» (١).

٤- ويروى أيضاً في هذا الكتاب عن «سعد بن أبي وقاص»: إن النبي صلى الله عليه وآله بعث بآيات البراءة مع أبي بكر إلى مكة حتى

إذا كان ببعض الطريق أرسل علياً عليه السلام فأخذها منه ثم سار بها، فوجد أبو بكر في نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يؤدّي عنى إلّا أنا أو رجل منى» (٢).

٥- ويروى في الكتاب نفسه عن «أبي سعيد الخدرى» الصحابى المعروف: إنّ النبى صلى الله عليه وآله بعث أبا بكر يؤدّي عنه براءة، فلما أرسله بعث إلى على عليه السلام فقال: يا على أنّه لا يؤدّي عنى إلّا أنا أو أنت فحمله على ناقته العضاء فسار حتى لحق بأبى بكر فأخذ منه براءة، فأتى أبو بكر النبى صلى الله عليه وآله وقد دخله من ذلك مخافة أن يكون قد انزل فيه شىء، فلما أتاه قال: «مالى يا رسول الله؟ (وساق الحديث) إلى أن ذكر قول النبى صلى الله عليه وآله: «لا يبلغ عنى غيرى أو رجل منى» (٣).

٦- وفي هذا الكتاب أيضاً يروى عن «أبى رافع» الصحابى المعروف: إنّ النبى صلى الله عليه وآله بعث أبا بكر بآيات البراءة إلى الحج فنزل عليه جبرئيل وقال: «إنّه لن يؤدّيها عنك إلّا أنت أو رجل منك» (٤).

٧- ٨- روى الحاكم الحسكافى فى «شواهد التنزيل» ما يقارب من اثنتى عشرة رواية بشأن هذا الموضوع عن أنس بن مالك، وابن عباس، وسعد، وأبى سعيد الخدرى، وأبى هريرة، وغيرهم حيث يطول المقام بذكرهم جميعاً، وبمقدور الراغبين الرجوع إلى الكتاب المذكور الذى هو فى متناول الجميع من أجل المزيد من التحقيق (٥).

وروى جماعة كثيرة اخرى أيضاً هذه الرواية بطرق مختلفة، وأنّ رواة هذا الحديث كثيرون إلى الحد الذى يقول المرحوم العلامة الأمينى: «هذا الحديث أخرجه كثير من أئمة

(١) تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢٠٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٣٠ (بشىء من الاختصار).

(٤) المصدر السابق.

(٥) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٣٢-٢٤٣ (الحديث رقم ٣٠٩ و ٣١٠ و ٣١١ و ٣١٢ و ٣١٤ و ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٧ و ٣١٨ و ٣٢٣ و ٣٢٤ و ٣٢٥).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٦

الحديث وحفاظه بعده طرق صحيحة يتأتى التواتر بأقل منها عند جمع من القوم ثم عدد ٧٣ نفرأ منهم (١) ثم يضيف: إنّ رواة هذا الحديث ينتهى أسانيدهم إلى جمع من الصحابة الأولين منهم على عليه السلام، أبو بكر، جابر بن عبد الله الأنصارى، أنس بن مالك، أبو سعيد الخدرى، سعد بن أبى وقاص، أبو هريرة، عبد الله بن عمر، حبش بن جنادة، عمران بن حصين، أبو ذر الغفارى» (٢).

ونختم هذا البحث بشعر ل «شمس الدين المالكى» وهو من شعراء القرن الثامن الهجرى المعروفين، يقول:

وأرسله عنه الرسول مبلّغاً وخصّ بهذا الأمر تخصيص مفرد

وقال هل التبليغ عنى ينبغى لمن ليس من بيتى من القوم فاقتدى

النتيجة:

إنّ هذه الرواية بهذه السعة فى المصادر تعتبر أحد الأدلة الواضحة على أفضلية على عليه السلام على غيره بعد رسول الله صلى الله عليه وآله و آله واعتماده صلى الله عليه وآله عليه و آله عليه، وغاية قربه من الله تعالى، فهو يقول بصريح القول: «أمرنى جبرئيل الامين عن الله بأن يبلغ على هذه الآيات»، وقال صلى الله عليه وآله: «لن يؤدّي هذا الأمر إلّا أنا أو رجل منى، وأنّ علياً وحده المؤهل لأداء هذا العمل».

وبالنظر إلى أن: إلغاء اليهود مع المشركين كان أحد أكثر المراحل حساسية في تاريخ الإسلام ويقتضى اطلاعاً وتدبيراً وشجاعة استثنائية وكان من الممكن أن يواجه ردود فعل قوية من قبل المعارضين أثناء مراسم الحج، فإن اختيار على عليه السلام لهذه المهمة كان أفضل دليل على أنه أعلم الامة وأشجعها وأكثرها تدبيراً، ومن المسلم به أن الذي يُختار لهذا الأمر أكثر أهلية وأجدر لخلافة النبي صلى الله عليه وآله.

والجدير بالاهتمام أن أبا بكر نفسه أدرك هذا الأمر أيضاً، وعند حضوره عند النبي صلى الله عليه وآله

(١) للاطلاع على اسماء هؤلاء ال ٧٣ شخص راجعوا كتاب الغدير، ج ٦، ص ٣٤١-٣٨٨.

(٢) الغدير، ج ٦، ص ٣٤١-٣٤٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٧

استفسر باضطراب: هل نزل شيء بحقي؟ فأجابه النبي صلى الله عليه وآله: «هذا العمل يؤدّيه شخص مني!».

وهنا نلاحظ أن المشككين - بما امتلكوه من حكم مسبق - بذلوا كل ما بوسعهم من أجل التقليل من أهمية هذه المنقبة، وتجاوزوا هذه المسألة بتحليلاتهم الواهية.

فمثلاً يقول «الآلوسي» في «روح المعاني»: هذا الحديث يدل باختصار على افضلية على عليه السلام وقربه من الرسول صلى الله عليه وآله، وهذا ما لا ينكره مؤمن، لكنه لا يدل أبداً على أن علياً أليق بامر الخلافة من أبي بكر، ثم يضيف قائلاً: وقد ذكر بعض أهل السنة نكتة في نصب أبي بكر أميراً للناس في حجه ونصب الأمير «كرم الله وجهه» مبلغاً نقض العهد في ذلك المحفل، وهي أن أبا بكر كان مظهراً لصفة الرحمة والجمال، وعلى عليه السلام هو أسد الله ومظهر جلاله ففوض إليه نقض عهد الكافرين الذي هو من آثار الجلال وصفات القهر فكانا عينين فوارتين يفور من إحداهما صفة الجمال، ومن الاخرى صفة الجلال في ذلك الجمع العظيم الذي كان أنموذجاً للحشر ومورداً للمسلم والكافر.

يقول الآلوسي بعد ذكره لهذا الكلام: «ولا يخفى حسنه لو لم يكن في البين تعليل النبي صلى الله عليه وآله» (١).

وكما قال «الآلوسي» في كلامه الأخير فإن هذا التحليل «الشاعري» لا يتفق وقول النبي صلى الله عليه وآله، فهو يقول بصراحة: لقد أمرني جبرئيل عن الله أن هذا الأمر لا يؤدّيه إلا أنا أو رجل مني، أي رجل نظير للنبي صلى الله عليه وآله ويمتلك مواصفات خاصة وأقرب الناس إليه، ونحن نعلم أن النبي صلى الله عليه وآله كان جامعاً لصفات الجمال والجلال.

لماذا يصير هؤلاء الاخوة على إغفال منقبة بهذه العظمة أو يحرفونها عن منحها الحقيقي بتبريرات شاعرية، مخافة أن يستند إليها الشيعة ويشتبوا حقانية مذهبهم؟!

ونهي كلامنا هذا بالحديث الذي روى عن أبي ذر الغفاري في كتاب «مطالب السؤال»، فهو يقول: قال النبي صلى الله عليه وآله: «علي مني وأنا من علي ولا يؤدّي إلا أنا أو علي» (٢).

(١) تفسير روح المعاني، ج ١٠، ص ٤٧.

(٢) مطالب السؤال، ص ١٨ (على ضوء نقل الغدير، ج ٦، ص ٣٤٨).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٨

الثانية: آية سقاية الحاج

نقرأ في قوله تعالى «أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَشِجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَأَيْسَرُونَ عِنْدَ اللَّهِ

وَاللَّهُ لَآيَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

(التوبة/ ١٩)

لقد أورد الحاكم الحسكاني الحنفى فى «شواهد التنزيل» ما يربو على عشر روايات من طرق مختلفة فى ذيل هذه الآية، تثبت أنها نزلت بحق على عليه السلام.

فى احدى هذه الروايات ينقل عن أنس بن مالك: إن «العباس بن عبد المطلب» و «شيبه» قعدا يفتخران، فقال له العباس: أنا أشرف منك، أنا عم رسول الله صلى الله عليه وآله ووصى أبيه وساقى الحجيج، فقال شيبه: أنا أشرف منك، أنا أمين الله على بيته وخازنه، أفلا- أئتمنتك كما أئتمنتى؟ فأطلع عليهما على عليه السلام فأخبراه بما قالا، فقال على عليه السلام: أنا أشرف منكما، أنا أول من آمن وهاجر، فانطلقوا ثلاثتهم إلى النبى صلى الله عليه وآله فأخبروه بما أجابهم بشىء، فانصرفوا فنزل عليه الوحي بعد أيام فأرسل إليهم فقرأ: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ...» إلى آخر العشر «١».

وورد هذا المضمون أيضاً بشىء من الاختلاف فى بقیة الروايات.

وجاء فى بعضها: لما سمع العباس بنزول الآية قال ثلاثاً: «إنا قد رضينا».

وبالإضافة إلى «الحاكم الحسكاني» فقد نقل هذه الروايات أيضاً جمع غفير- بعضهم بشكل مفصل وبعضهم على نحو الاختصار- فى كتبهم، منهم:

«الطبرى» فى تفسيره عن «أنس بن مالك» «٢».

«الواحدى» فى «أسباب النزول» «٣».

«القرطبي» فى تفسيره «٤».

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٤٩.

(٢) تفسير جامع البيان، ج ١٠، ص ٥٩.

(٣) أسباب النزول، ص ١٨٢.

(٤) تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٩١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢١٩

«الفخر الرازى» فى «التفسير الكبير» «١».

«الخازن» فى تفسير «الخازن» «٢».

«أبو البركات النسفى» فى تفسيره «٣».

«ابن الصباغ المالكي» فى «الفصول المهمة» «٤».

وفى تفسير «الدر المنثور» وهو تفسير يستند إلى أحاديث أهل السنة نقل روايات كثيرة بشأن نزول هذه الآية بحق على عليه السلام، والقصة الآنفه «٥».

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال هو: أليس التفاخر أمر منبوذ فى الإسلام؟ فلم يُقدّم أمير المؤمنين عليه السلام على هذا الأمر؟ تتضح الاجابة عن هذا السؤال من خلال الالتفات إلى قضية واحدة وهى: إن الناس ربّما يقعون بالخطأ فى تشخيص القيم، فيتركون القيمة الحقيقية ويتبعون الامور المتأخرة من ناحية القيمة، ففى مثل هذه الحالات لا- مانع من الافتخار والتباهى من أجل توضيح الحقيقة، بل تعتبر واجباً فى بعض الحالات، فمثلاً ربّما يفخر شخص بنفسه فى احدى المجالس قائلاً: إننى امتلك الثروة الفلانية، وآخر يقول: إن القصر الفلانى يعود لى، ويقول ثالث: كفانى فخراً إننى أمير بلدى!

وينبرى شخص قد جلس هناك فيقول من أجل ابراز القيم الحقيقية:
بالرغم من افتقاري للمال والثروة والمقام والجاه إلّا أننى افتخر بكونى حافظاً للقرآن.
فهذا الفعل لا يعد قبيحاً بل هو درس بليغ.

- (١) تفسير الكبير، ج ٤، ص ٤٢٢.
(٢) تفسير الخازن، ج ٢، ص ٢٢١.
(٣) تفسير أبو البركات، ج ٢، ص ٢٢١.
(٤) الفصول المهمة، ص ١٢٣.
(٥) تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢١٨ و ٢١٩.
نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢١

٨- آية «صالح المؤمنين»

نقرأ فى القرآن الكريم، أنّ البارى جل وعلا- خاطب بعض نساء النبى صلى الله عليه و آله اللواتى ارتكبن مخالفة، قائلاً: «وَأَنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ». (التحریم / ٤)
إنّ عبارة «صالح المؤمنين» تشمل المؤمنين والصالحين والصادقين من أصحاب النبى صلى الله عليه و آله، وليس الصحابة والأنصار الذين عاصروه فحسب، بل هى تشمل المؤمنين والصالحين فى سائر الدهور والأعصار أيضاً، أولئك الذين يتصدون لنصرة الإسلام والنبى صلى الله عليه و آله ورسالته بمختلف السبل.

بيد أنّ المهم هنا أنّ «صالح المؤمنين» فسرت فى روايات عديدة بعلى عليه السلام، وتؤكد على أنّه أفضل واكمل مصداق لهذه الآية، ونظراً لمجيئه جنباً إلى جنب جبرئيل تتجلى عظمته منزلته وأهميته هذه الفضيلة جيداً.
نعم فقد كان على عليه السلام أفضل نصير لرسول الله صلى الله عليه و آله مدى حياته بعد الله وجبرئيل الأمين، وعليه فمن يستحق أن يخلف النبى صلى الله عليه و آله غيره؟ ألا تدل هذه الروايات على أنّه كان أفضل الأمة، وأفضل الخلق بعد النبى صلى الله عليه و آله؟
والآن لننظر فى اسناد هذه الروايات ونتطرق إلى جانب منها الذى اقتطف بشكل عام من مصادر أهل السنة:

ينقل «الحاكم الحسكاني» ثمانية عشر حديثاً فى ذيل هذه الآية من مختلف الطرق، بأنّ المراد من «صالح المؤمنين» على بن أبى طالب عليه السلام، منها: إنه يروى عن «أسماء بنت
نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٢

عميس» تقول: سمعت النبى صلى الله عليه و آله يقول: «صالح المؤمنين على بن أبى طالب» (١).
وروى فى الكتاب نفسه عن «ابن عباس» أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال بحق على بن أبى طالب عليه السلام: «هو صالح المؤمنين» (٢).

ويروى عن «عمار بن ياسر» قوله: سمعت علياً عليه السلام يقول: دعانى رسول الله صلى الله عليه و آله وقال:
«ألا- أبشرك: قلت: بلى يا رسول الله ومازلت مبشراً بالخير، قال: قد أنزل الله فيك قرآناً، قلت: وما هو يا رسول الله؟ قال: قرنت بجبرئيل، ثم قرأ: وجبريل وصالح المؤمنين» (٣).
وينقل هذا المعنى أيضاً فى رواية أخرى عن «حذيفة».

وفى رواية ينقل عن «ابن سيرين»، وفى اخرى عن «على بن أبى طالب» نفسه، أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال: «صالح المؤمنين، على

بن أبي طالب» (٤).

كما نقل الكثير من المفسرين هذا الحديث في تفاسيرهم، منهم السيوطي في «الدر المنثور» في ذيل الآية عن «ابن عباس» و «أسماء بنت عميس».

ويقول «البرسوي» في تفسير «روح البيان» بعد نقله لهذه الأقوال في ذيل هذه الآية:

منها قول مجاهد في أن المراد من صالح المؤمنين، على عليه السلام ويؤيده قوله صلى الله عليه وآله: «يا على أنت متى بمنزلة هارون من موسى، ثم ينقل آيات عديدة حيث اطلق البارئ تعالى كلمة الصالحين في القرآن الكريم على كبار الأنبياء، ويستنتج بأنه لما كان على عليه السلام بمنزلة نبي الله «هارون»، فهو جدير بصفة الصالحين» (٥).

بالإضافة إلى أن هذه الرواية نقلت من قبل جماعة آخرين مثل «العسقلاني» في «فتح الباري»، و «ابن حجر» في «الصواعق»، و «علاء الدين المتقي» في «كنز العمال».

و خلاصة القول: إنها منقبة عظيمة لا نظير لها إذ قرن الله تعالى صالح المؤمنين بجبرئيل،

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٥٦، ح ٩٨٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٨، ح ٩٨٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥٩، ح ٩٨٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٥٥-٢٦٣.

(٥) تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٥٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٣

ومصادقها التام والكامل على ضوء هذه الروايات على بن أبي طالب عليه السلام.

نعم، فقد كان جنباً إلى جنب النبي صلى الله عليه وآله في جميع مراحل حياته، وكان يعد نصيراً وظهريراً له في الأحوال جميعاً، وهو اجدر الجميع بخلافته صلى الله عليه وآله.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٥

٩- آية الوزارة

إشارة

نقرأ في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام: «وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي».

(طه / ٢٩-٣٢)

فهذه الآيات تبين طلبات موسى عليه السلام في بداية بعثته.

في ذيل هذه الآيات نشاهد روايات عديدة أيضاً في مصادر أهل السنة، مفادها أن النبي صلى الله عليه وآله قد سأل الله ذلك من أجل تحقيق أهداف رسالته، مع فارق أنه جعل اسم على عليه السلام بدل اسم هارون، وفيما يلي تطالعون بعضاً من هذه الروايات:

١- روى في «شواهد التنزيل» عن «حذيفة بن اسيد» أن النبي صلى الله عليه وآله أمسك بيد على بن أبي طالب عليه السلام وقال: «ابشر، وأبشر، أن موسى دعا ربه أن يجعل له وزيراً من أهله هارون، وإنني أدعو ربي أن يجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي، أشدُّ به ظهري واشركه في أمري» (١).

٢- في رواية اخرى يروى عن «أسماء بنت عميس» تقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «اللهم إني أقول كما قال أخي موسى اللهم اجعل لي وزيراً من أهلي، علياً أخي، أشدد به أزرى، واشركه في أمري، كي نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيراً، إنك كنت بنا بصيراً» (٢).

بديهي أن المراد من الاشتراك في عمل النبي صلى الله عليه وآله لا تعني الشركة في النبوة، بل الشركة في أمر قيادة الأمة.

٣- وفي رواية اخرى ينقل حديثاً عن «أنس بن مالك» ليس فيه إشارة إلى قصة

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٣٦٨، ح ٥١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٧٠، ح ٥١١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٦

موسى عليه السلام، بل مطروح فيه مسألة الخلافة والوزارة، فيقول: قال رسول الله عليه السلام: «إن خليلي ووزيرى وخليفتي في أهلي، وخير من أترك بعدى، ينجز موعدي ويقضى ديني، على بن أبي طالب» (١).

٤- روى هذا الحديث باختلاف بسيط أيضاً عن سلمان الفارسي (٢).

٥- ويروى الحافظ أبو نعيم الاصفهاني وهو من علماء القرن الخامس الهجري في كتاب «مازل من القرآن في علي» ماتضمنه حديث «أسماء بنت عميس» عن «ابن عباس»، وفي نهايته يقول ابن عباس: بعد دعاء النبي صلى الله عليه وآله هذا سمعت منادياً ينادي: «يا أحمد قد اوتيت ما سألت» (٣).

٦- وينقل «الفخر الرازي» في تفسيره الكبير هذه الرواية بمزيد من التفصيل عن «أبي ذر الغفاري» عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن يقول: لما تصدق على عليه السلام بخاتمه ... فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم بمراءى النبي صلى الله عليه وآله فقال: «اللهم إن أخي موسى عليه السلام سألك فقال: رب اشرح لي صدري (إلى قوله) وأشركه في أمري فانزلت قرآناً ناطقاً، سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً، اللهم وأنا محمد نبيك وظيفك فاشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري»، قال أبو ذر: فوالله ما أتم رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الكلمة حتى نزل جبرئيل فقال: يا محمد اقرأ: «أَنَّمَا وَثِّقُكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ...» إلى آخرها (٤).

إن إسناده وطرق هذه الرواية والكتب التي رويت فيها من الكثرة بحيث لا يستوعبها هذا الموجز وقد أُشير إلى جانب منها فقط.

مضمون آية وروايات «الوزارة»:

تقول هذه الروايات بجلاء: إن النبي صلى الله عليه وآله دعا واستجاب له الله تعالى كما استجاب

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٣٧٤، ح ٥١٦.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٧٧، ح ١١٥.

(٣) ملحقات احقاق الحق، ج ٢٠، ص ١٢٨.

(٤) تفسير الكبير، ج ١٢، ص ٢٦ (ذيل الآية ٥٥ من سورة المائدة).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٧

لموسى وكان دعاؤه أن يجعل له وزيراً من أهله يشاركه في أمره، ويشد به أزره، كما هو هارون لموسى عليه السلام تماماً. وكما جرت الإشارة فإن من المسلم به ليس المراد من الشركة الاشتراك في أمر النبوة، إذ لا نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله

الذي كان خاتم النبيين، ومعلوم أيضاً ليس المراد المشاركة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإرشاد، وتبليغ الرسالة فحسب، لأنها تكليف المسلمين جميعاً، فيجب على الجميع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى الجميع كل حسب وسعه نشر الإسلام وهداية الآخرين.

على هذه الأساس، فالمراد مقام خاص غير النبوة والتكليف العام بالأمر بالمعروف، وهل يمكن أن تكون هذه القضية سوى القيادة والوزارة من قبل الباري عز وجل؟ والنتيجة المباشرة لهذا الأمر هي أنه عليه السلام سيكون خليفة النبي صلى الله عليه وآله. وبعبارة أخرى، ثمة تكاليف لا تمثل واجب جميع الناس، وهي صيانة الرسالة الإلهية من كل تحريف وانحراف، وكذلك توضيح ما ليس يدركه الناس في مضمون الدين، وقيادة الأمة أثناء غياب النبي صلى الله عليه وآله وبعد رحيله، والمساعدة المؤثرة في تحقيق أهدافه، حيث تختصر جميعها في كلمة وزير «١».

وهذا ما سأله النبي صلى الله عليه وآله من الله بحق على عليه السلام، واستجاب الله دعاءه.

وهنا يتضح الرد على وساوس بعض المفسرين الذين لا يطبقون الاذعان لمثل هذه المناقب بحق على عليه السلام. فهم يحاولون تفسير «الشركة في أمر النبي صلى الله عليه وآله» بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «٢»، والحال أننا نعلم أنها واجب المسلمين جميعاً، ولا تحتاج إلى تعيين وزير من قبل الله تعالى.

(١) «الوزير» من مادة «وزر»، حيث إن الوزير يتحمل ثقل المسؤوليات المختلفة على عاتقه، فقد اطلقت هذه الكلمة عليه.

(٢) تفسير روح المعاني، ج ١٦، ص ١٨٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٩

١٠ و ١١- آيات سورة الاحزاب

إشارة

هنالك آيات في سورة الأحزاب نزلت بحق على عليه السلام على ضوء قول طائفة من المفسرين، أو أنها ناظرة إلى تضحياته الفريدة من نوعها.

فنقرأ في قوله تعالى «مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا». (الأحزاب/ ٢٣)

ويقول تعالى (أى بعد آيتين): «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا». (الأحزاب/ ٢٥)

نحن نعلم أن معركة الأحزاب كانت من أهم الغزوات في الإسلام، فهي كما يتضح من اسمها تعتبر صراع جميع أعداء الإسلام ضد المسلمين، وتضافرت كافة الفرق التي تعرضت مصالحتها للخطر نتيجة لانتشار الدين الإسلامي، من أجل القضاء على الإسلام ورسول الله صلى الله عليه وآله، ولتطمئن قلوبهم إلى الأبد!

فهناك سبع عشرة آية من سورة الأحزاب شرحت أحوال هذه المعركة، وقد توضحت فيها دقائق الامور وخفاياها، وقد فصلت أحوال مختلف فرق المسلمين في هذا المضمون بدقة وظرافة.

لقد مرت على المسلمين لحظات حرجة وخطيرة للغاية في هذه المعركة، فحشود العدو، وقلّة الجيش الإسلامي في مقابلهم (ذكر المؤرخون عدد جيش الأحزاب بعشرة الآف رجل، والجيش الإسلامي بثلاثة الآف رجل) بالإضافة إلى استعداد العدو من حيث

المعدات الحربية وقله عدّة المسلمين.

فالآيتان من ضمن هذه الآيات السبع عشرة.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٠

ويروى صاحب «شواهد التنزيل» في ذيل الآية الاولى بسنده عن علي عليه السلام قوله: «فينا نزلت رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ثم قال: فأنا والله المنتظر» (١).

ويروى عن «عبد الله بن عباس» أيضاً: «إن الآية «مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» ناظرة إلى علي عليه السلام والحمزة وجعفر، وعبارة «وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ» إشارة إلى علي عليه السلام الذي كان ينتظر الشهادة في سبيل الله، «فوالله لقد رُزق الشهادة» (٢). وروى هذا المعنى أيضاً في كل من «الصواعق المحرقة» لابن حجر، و «الفصول المهمة» لابن الصباغ المالكي، و «الكشف والبيان» للنيسابوري (٣).

البحث فيما يتعلق بالآية الثانية أكثر اتساعاً من هذا، فقد قال الكثير من المحدثين والمفسرين: إن «كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ...» إشارة إلى علي عليه السلام وضربته المؤثرة التي وجهها لعمر بن عبد ود وكفى المؤمنين قتال الكفار.

ومن بين الذين رووا هذا المعنى هو «عبد الله بن مسعود»، فعندما كان يقرأ هذه الآية كان يقول في تفسيرها: «و كفى الله المؤمنين القتال، بعلي بن أبي طالب» (٤).

ويروى «الحاكم الحسكاني» عدّة أحاديث بهذا المضمون عن عبد الله بن مسعود (٥).

ويروى عن ابن عباس أيضاً أنه لما قرأ آية «و كفى الله المؤمنين القتال» قال: «كفاهم الله القتال يوم الخندق بعلي بن أبي طالب، حين قتل عمرو بن عبد ود» (٦).

كما روى عن حذيفة الصحابي المعروف حديثاً مفصّلاً حول نزال علي عليه السلام لعمر وبن عبد ود وقتله، ثم يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أبشر يا علي! فلو وزن اليوم عملك بعمل أمة

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١ و ٢، ح ٦٢٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) علي في الكتاب والسنة، ص ٢١٨.

(٤) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣، ح ٦٢٩.

(٥) المصدر السابق، ح ٦٣٠ و ٦٣١ و ٦٣٢.

(٦) المصدر السابق، ص ٥، ح ٦٣٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣١

محمد لرجح عملك بعملهم وذلك أنه لم يبق بيت من بيوت المسلمين إلا وقد دخله عز بقتل عمرو» (١).

وينقل نفس المعنى عن «ابن حكيم» عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

ينقل «السيوطي» في الدر المنثور عن «ابن أبي حاتم»، و «ابن مردويه»، و «ابن عساكر» عن «ابن مسعود» أنه لما كان يقرأ هذه الآية، يقول (في شرحها): «و كفى الله المؤمنين القتال بعلي بن أبي طالب» (٢).

ونقل هذا المعنى العلامة «الشيخ سليمان القندوزي» في «ينابيع المودة» (٣).

ونقل فريق آخر يطول المقام بذكر أسمائهم، هذا الحديث أيضاً.

والجدير بالاهتمام أن مضمون هذه الآيات ومن خلال الشرح المذكور هو أن علياً عليه السلام كان السبب في انتصار المسلمين بإذن

اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْمِيدَانِ الْخَطِيرِ لِلْغَايَةِ، حَيْثُ كَانَتْ مَعْرَكَةُ الْأَحْزَابِ السَّهْمَ الْأَخِيرَ بِيَدِ الْعَدُوِّ، وَهِيَ أَصْعَبُ مَوَامِرَاتِ الْمُشْرِكِينَ ضِدَّ الْإِسْلَامِ، نَعَمْ، فَقَدْ كَانَ مَجْرِيًا لِلْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَاحِدَ الْأَسْبَابِ الْمَهْمَةِ لِانْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ، فَلَا تَشَاهِدُ هَذِهِ الْمُنْقَبَةَ لِأَيِّ أَحَدٍ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سِوَى عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أَلَا يَسْتَحِقُّ مَنْ يَفُوقُ عَمَلَهُ هَذَا عَمَلَ كَافَّةِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، خِلَافَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؟!!

سؤال:

رَبِّمَا يُقَالُ هُنَا: إِنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْآيَةِ الَّتِي تُشِيرُ بِالْإِجْمَالِ إِلَى قِصَّةِ مَعْرَكَةِ الْأَحْزَابِ:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا».

(الأحزاب / ٩)

طبقاً لهذه الآية، فأحد أسباب هزيمة الأحزاب كانت الريح العاصفة التي هبت عليهم، والسبب الآخر الجنود غير المرئيين (الملائكة)، وعليه فكيف يمكن القول: إنَّ علياً عليه السلام كان سبب الانتصار؟

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٧، ح ٦٣٤.

(٢) تفسير در المنثور، ج ٥، ص ١٩٢.

(٣) ينابيع المودة، ص ٩٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٢

الجواب: هو أنَّ الانتصار في معركة ما، ربِّمَا تكون له عوامل متعددة كالعامل العسكري، والطبيعي، والمعنوي، وغيرها، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ ثلاثة عوامل قد تضافرت في هذه المعركة بحيث لا يتسنى انكار أي منها أبداً، وهي: مصرع عمر بن عبد ود فارس الأحزاب على يد علي عليه السلام، وهبوب الرياح، وجيش الملائكة، ففي جميع الحالات التي تتضافر فيها عوامل عديدة في صنع حادث ما، يمكن نسبة ذلك الحادث إلى واحد منها أو إليها جميعاً.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٣

١٢- آية البينة والشاهد

«أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» (هود/ ١٧)

لقد أورد «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» روايات عديدة تناهز ال ١٦ رواية في ذيل هذه الآية تشهد بأنَّ المراد من الشاهد في الآية أعلاه على عليه السلام «١»، من ضمنها ما نقله عن «أنس بن مالك» في أنَّ المراد من عبارة «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ...»، محمد صلى الله عليه وآله، والمراد من عبارة «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ...»، علي بن أبي طالب. فهو كان لسان حال النبي صلى الله عليه وآله لأهل مكة في نقض العهد معهم.

وينقل في رواية أخرى عن «ابن عباس» أنَّه قال في تفسير: «(وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ...): هو علي خاصة» «٢».

وينقل عن زاذان (أحد أصحاب علي عليه السلام) عن علي عليه السلام أنَّه قال: «لو نثيت لى الوسادة فجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الانجيل بانجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم بقضاء يزهر يصعد إلى الله، والله ما نزلت آية في ليل أو نهار ولا سهل ولا جبل ولا بر ولا بحر إلا ووقد عرفت أى ساعة نزلت وفيمن نزلت، وما من قريش رجل جرى عليه المواسى إلا قد نزلت فيه آية من كتاب الله تسوقه إلى جنة أو تقوده إلى نار، فقال قائل: فما نزل فيك يا أمير المؤمنين؟ قال: «أَفَمَنْ

كَانَ عَلِيٌّ بَيْنَهُ مِّنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ» محمد صلى الله عليه و آله على بينة من ربه وأنا الشاهد منه أتلو آثاره» (٣).

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٨٠، ح ٣٨٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٦٩، ح ٣٨٧.

(٣) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٨٠، ح ٣٨٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٤

وأورد السيوطي في تفسير «الدر المنثور» أيضاً روايات عديدة في هذا الصدد، منها أنه ينقل عن «ابن أبي حاتم»، و «ابن مردويه»، و «أبي نعيم» عن علي بن أبي طالب، أنه قال: «ما من رجل من قريش إلّا نزل فيه طائفة من القرآن».

فسأله رجل: ما نزل فيك؟ قال عليه السلام: أما تقرأ سورة هود: «أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه» رسول الله صلى الله عليه و آله على بينة من ربه، وأنا شاهد منه (١).

ثم أورد عدة أحاديث بهذا المعنى (٢).

وفي تفسير «روح المعاني» وبعد نقله لرواية «ابن أبي حاتم»، و «ابن مردويه»، عن علي عليه السلام في أن نزول هذه الآية بحقه عليه السلام، ويروي هذا المعنى أيضاً في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنه قال: «أفمن كان على بينة من ربه»، أنا، «ويتلوه شاهد منه» علي يقول:

لقد استدلت بعض الشيعة أنّ علياً (كرم الله وجهه) هو خليفة رسول الله صلى الله عليه و آله لأنّ الله تعالى سمّاه شاهداً في قوله: «أنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً». (الفتح / ٨)

فينبغي أن يكون مقام علي ك مقامه صلى الله عليه و آله، وحيث أخبر أنه يتلوه أي يعقبه ويكون بعده دلّ علي أنه خليفته.

ثم يقول: هذا الخبر لا يكاد يصح، وبعد ذلك ينقل رواية تفيد أن المراد من «الشاهد» زمان رسول الله صلى الله عليه و آله (٣).

وقد توسل مفسّر المنار الذي لا يقل تعصباً عن الألوسي في روح المعاني ازاء الشيعة والقضايا المتعلقة بإمامة علي عليه السلام بكل ما لديه في تفسير الآية وأوقع نفسه في عناء عجيب، فمن جملة ما يقول: ويجوز أن تكون البينة على هذا علمه اليقيني الضروري بنبوته كما تقدم، ويكون الشاهد الذي يتلوه منه القرآن وهو الأظهر عندي وروى عن (سعيد بن جبير): إن البينة القرآن والشاهد جبريل عليه السلام ... ويتلوه من تلاوة القرآن لا من التلو والتبعية

(١) تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٣٢٤، (ذيل آية مورد البحث).

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير روح المعاني، ج ١٢، ص ٢٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٥

فهو الذي كان يقرأه علي النبي صلى الله عليه و آله عند نزوله به وفي الشاهد روايات اخرى ضعيفة ومنها أنه علي عليه السلام يرويهِ الشيعة ويفسرونه بالإمامة. (١).

ويالأسف، فقد كانت الأحكام والفرضيات المسبقة أهم حائل دون فهم آيات القرآن والروايات الإسلامية المشهورة، وهنا ثمة مسائل تحظى بالأهمية، منها:

١- المدهش أن يقال حول الرواية التي تتمتع بهذه الطرق المختلفة في الكتب المشهورة لدى أهل السنة إنها رواية ينقلها الشيعة، ألم يشاهد مفسّر المنار هذه الروايات الواردة في «الدر المنثور» و «شواهد التنزيل» بل حتى «روح المعاني» بشأن تفسير الشاهد بعلي عليه

السلام، ويدعى: إن هذه الرواية نقلها الشيعة فقط، أم يجب القول أن كل رواية تصب في صالح مذهب التشيع هي رواية شيعية، وإن رواها العشرات من رواة أهل السنة؟!

٢- هناك طائفة من مفسري السنة يؤمنون بأن المراد من الشاهد «لسان» النبي صلى الله عليه وآله (المعنى الذى لا يشاهد فى أى موضع من القرآن).

بينما يعتبر صاحب المنار أنها رواية ضعيفة، لعله التفت إلى هذه الحقيقة وهى أن تفسير «الشاهد» ب «لسان» النبي صلى الله عليه وآله، وكذا «يتلوه» ب «تلاوة القرآن» ملىء بالتكلف.

فيصبح المعنى الإجمالى للآية: «أفمن كان يمتلك الدليل الواضح من ربه وهو القرآن، ويتلوه لسانه ويشهد على ذلك ... كمن ليس كذلك»، فمفهوم هذا القول هو: إن النبي صلى الله عليه وآله شاهد على نفسه، فهل يمكن للمدعى أن يكون شاهداً على نفسه؟ أم يجب أن يكون الشاهد شخصاً آخر؟ ألم يأت النبي صلى الله عليه وآله بالقرآن، فكيف يكون لسان النبي صلى الله عليه وآله شاهد على القرآن؟

وهل أن لسان النبي صلى الله عليه وآله ليس منه؟ فكيف نجعل جزءاً منه شاهداً عليه؟ إن الذى لا يريد الاعتراف بهذه الحقائق سيقع فى هذه المتاهات.

٣- ما قيل من أن المراد من «الشاهد» هو «جبرئيل»، والحال أن أياً من الناس لم يره ويجهل وجوده، فكيف يتفق ومفهوم الشهادة؟

فهل نحن مجبورون على إنشاد شعر نتورط فى قافيته؟

٤- الأعبج ما يقوله الألوسى فى روح المعانى: المراد من «البينة» القرآن و «الشاهد» صفته الاعجازية.

(١) تفسير المنار، ج ١٢، ص ٥٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٦

والحال أن كون القرآن «بينة» يكون من خلال اعجازه فحسب، ولا يعد القرآن «بينة» بدون صفاته الاعجازية، على هذا الأساس ستكون «البينة» و «الشاهد» واحداً، وهذا لا يتفق ومضمون الآية.

٥- إن تفسير «البينة» ب «العلم اليقيني الباطنى لرسول الله صلى الله عليه وآله» بنبوته، ومن ثم تفسير «الشاهد» بالقرآن الكريم من الغرائب أيضاً، فلابد أولاً من البحث عن معنى «البينة» فى القرآن نفسه، فقد استعملت «البينة» فى القرآن الكريم ١٩ مرة، و «البيئات» وهى جمعها ٥٢ مرة، وعادة ما جاءت بمعنى «المعجزة» أو «الكتب السماوية والقرآن الكريم» لا بمعنى العلم الباطنى الفطرى اللازم.

وعليه فلو أردنا تجاوز التكلفات، فالبينة فى الآية المذكورة تعنى القرآن الذى هو المعجزة الخالدة لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله، والشاهد شخص غير النبي صلى الله عليه وآله حيث يشهد على حقانيته صلى الله عليه وآله، أما الذين لا يرغبون فى أن يفضى هذا التفسير إلى حقانية مذهب التشيع فهم على استعداد للخوض فى كل أشكال التكلف من أجل نبذ هذا التفسير، لئلا يعاكس حكمهم المسبق الخط الصحيح.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٧

١٣- آية الصديقون

«وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ». (الحديد / ١٩)

نقل فى «شواهد التنزيل» عن «ابن أبى ليلى عن أبيه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصاديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل ياسين، وحزبيل (حزقيل) مؤمن آل فرعون، وعلى بن أبى طالب الثالث وهو أفضلهم» «١».

وورد هذا الحديث أيضاً في كتاب «الفضائل» لأحمد بن حنبل، و «معرفة الصحابة» لأبي نعيم، و «المناقب» لابن المغازلي «٢».

وفي نفس كتاب «شواهد التنزيل» نقل أربعة أحاديث أخرى بهذا المعنى عن طرق أخرى «٣».

ونقل الحديث الآنف الذكر في كتاب «ينابيع المودة» للشيخ سليمان القندوزي عن مسند أحمد، وأبي نعيم، وابن المغازلي، والموفق الخوارزمي، عن «أبي ليلى» و «أبي ايوب الأنصاري»، أنهما قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصديقون ثلاثة، حبيب النجار، وحزقيل مؤمن آل فرعون ... وعلى بن أبي طالب وهو أفضلهم» «٤».

ونقل هذا المعنى أيضاً في «كنز العمال» عن ابن عباس «٥».

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٢٣، ح ٩٣٨.

(٢) تعليقات- وحواشي- المحمودي على شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٢٤.

(٣) المصدر السابق، ح ٩٣٩ و ٩٤٠ و ٩٤١ و ٩٤٢.

(٤) ينابيع المودة، ص ١٢٤، الباب ٤٢.

(٥) كنز العمال، ج ١١، ص ٦٠١، ح ٣٢٨٩٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٨

كما نقل «احقاق الحق» هذا الحديث عن كتب وطرق مختلفة «١».

وبالرغم من أن هذه الروايات لا تتناول قضية الخلافة بصورة مباشرة، إلا أن إثبات صفة صديق الأمة لعل عليه السلام ترجح كفه ميزانه فيما لو قيس مع غيره، حيث تكشف عن أهليته للخلافة أكثر ممن سواه.

والمدهش أنه واستناداً إلى هذه الروايات الكثيرة أن علياً عليه السلام صديق هذه الأمة، إلا أن البعض منحوا هذا اللقب إلى الآخرين، حيث نقلوا في ذيل هذه الآية أن الصديقين ثمانية، منهم أبو بكر وعلى عليه السلام، بيد أن هذه الرواية ليست عن النبي صلى الله عليه وآله، فالروايات التي نقلت عن رسول الله صلى الله عليه وآله تصف علياً عليه السلام بأنه صديق هذه الأمة.

ويجدر ذكر هذا الأمر وهو أن عمومية مفهوم الآية لا تتعارض وهذه الروايات، فقد قلنا مراراً: إن مثل هذه الروايات ناظرة إلى الأكمل، أي أنها تقول: إن أكمل مصداق ل «الصديق» في الأمة الإسلامية، هو على عليه السلام الذي كان صادقاً إلى أبعد الحدود، وقد سبق رجال هذه الأمة إيماناً، وصدق برسول الله صلى الله عليه وآله، واطلق عليه النبي صلى الله عليه وآله لقب «الصديق».

وستطالعون اموراً كثيرة في هذا المضمار أيضاً في تفسير الآية اللاحقة.

(١) احقاق الحق، ج ٣، ص ٢٤٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٩

١٤- آية النور

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرِسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

(الحديد/ ٢٨)

يروى في «شواهد التنزيل» عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، أن المراد من عبارة «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ»، الحسن والحسين عليهما السلام الذين وهبهما الله تعالى لعل عليه السلام، والمراد من «وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ»، على بن أبي طالب عليه السلام (حيث إنه نبراس الأمة الإسلامية ووسيلة هدايتها) «١».

إن «ابن عباس» لم يقل هذا اجتهداً منه، ففي رواية أخرى يروى في الكتاب نفسه بسنده عن «جابر بن عبد الله» عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال في تفسير «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ...»: «الحسن والحسين عليهما السلام»، وقال في تفسير «وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ...»: «علي بن أبي طالب عليه السلام» (٢).

ويروى في الكتاب نفسه عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال في تفسير هذه الآية: «من تمسك بولاية علي فله نور» (٣). (تأملوا جيداً).

وفي تأييده لهذا المعنى يروى عن «أبي سعيد الخدرى» أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أما والله لا يحب أهل بيتي عبد إلا أعطاه الله عز وجل نوراً حتى يرد علي الحوض» (٤).

ونقل في «كنز العمال» عن علي عليه السلام أنه قال: «أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٢٧، ح ٩٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٨، ح ٩٤٤.

(٣) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٢٨، ح ٩٤٦.

(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٨، ح ٩٤٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٠

الأكبر لا يقولها بعدى إلا كذاب مفتر، ولقد صليت قبل الناس سبع سنين» (١).

مشيراً إلى أنه أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وآله من الرجال، وعليه فإنه الجدير بحمل لقب «الصديق الأكبر».

وفي نفس الكتاب، نقل عن «معاذ بن عدوية» قوله: سمع علياً عليه السلام يقول على المنبر في البصرة: «أنا الصديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر وأسلمت قبل أن يسلم» (٢).

على أية حال، فهذه منقبة من أفضل المناقب، وصاحبها أجدر من غيره بخلافة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

لقد أورد العلامة الأميني رحمه الله في الجزء الثالث من الغدير بحثاً مطولاً بشأن إيمان علي عليه السلام بالنبي صلى الله عليه وآله على أنه أول من آمن من الرجال، وذكر مصادر كثيرة عن أشهر كتب علماء أهل السنة، حتى أنه ذكر كثيراً من الشعراء لشعراء الإسلام أيضاً كشاهد على ذلك (٣).

وسنخصص فصلاً كاملاً تحت عنوان «المسلم الأول»، وسيجرى البحث عن الكثير من القضايا هناك «إن شاء الله».

(١) كنز العمال، ج ١٣، ص ١٢٢، ح ٣٦٣٨٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٤، ح ٣٦٤٩٧.

(٣) الغدير، ج ٣، ص ٢١١-٢٤١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤١

١٥- آية الانذار

«وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

(الشعراء / ٢١٤-٢١٥)

إن هذه الآيات لها قصة معروفة حيث ذكرها جميع مؤرخي الإسلام تقريباً.

وفى تفسير هذه الآية، تشهد رواية معروفة لدى الخاص والعام كما يقول «الطبرسي» فى «مجمع البيان»، وكذا قول «الحاكم الحسكاني» فى «شواهد التنزيل»، يقول «البراء بن عازب»: لما نزلت آية «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» جمع رسول الله صلى الله عليه وآله بنى عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً، الرجل منهم يأكل المسنة، ويشرب العس، فأمر علياً عليه السلام برجل شاة فأدمها ثم قال: ادنوا بسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا، ثم دعا بقعب من لبن فجرع، منه جرعة ثم قال لهم: اشربوا بسم الله فشربوا حتى رووا، فبدرهم أبو لهب فقال: هذا ما سحركم به الرجل. فسكت صلى الله عليه وآله يومئذ ولم يتكلم، ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ثم أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا بنى عبد المطلب إننى أنا النذير إليكم من الله عز وجل والبشير فأسلموا وأطيعونى تهتدوا، ثم قال: من يؤاخينى (منكم) ويؤازرنى ويكون ولىي ووصيى بعدى وخليفتى فى اهلى ويقضى دينى. فسكت القوم.

فأعادها ثلاثاً، كل ذلك يسكت القوم ويقول على عليه السلام: أنا، فقال فى المرة الثالثة: أنت، فقام القوم وهم يقولون لأبى طالب: أطع ابنك فقد أمر عليك «١»، نقل هذا الحديث فى هوامش شواهد التنزيل عن «عبد الله بن عباس» وكذلك عن «أبى رافع». وينقل عن «خصائص النسائي» أن «ربيعة بن ناجذ» يقول: إن رجلاً قال لعلى عليه السلام:

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٤٢٠ (مع الاختصار)؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٧ و ٨، ص ٢٠٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٢

يا أمير المؤمنين بم ورثت ابن عمك دون أعمامك؟ قال: جمع رسول الله صلى الله عليه وآله بنى عبدالمطلب فصنع لهم مداً من الطعام فأكلوا حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس، ثم دعا بغمر فشربوا حتى رووا، وبقي الشراب كأنه لم يمس، أو لم يشرب، فقال: «يا بنى عبد المطلب إننى بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة وقد رأيت من هذه الآية ما قد رأيتم، أيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ووارثى؟» فلم يقم إليه أحد فقامت إليه وكنت أصغر القوم فقال: اجلس، حتى كان فى الثالثة ضرب بيده على يدى، ثم قال على عليه السلام: بذلك ورثت ابن عمى دون عمى «١».

وقد نقل «الطبرى» المؤرخ الشهير هذا الحديث أيضاً بالتفصيل، ويقول تعقيباً عليه: إن النبى صلى الله عليه وآله، أو ما إلى على عليه السلام وقال: «إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا». فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع «٢».

ثم نقل الطبرى هذا المعنى بطرق اخرى

من الامور الظريفة أن الطبرى المؤرخ والمفسر السننى الكبير، الذى نقل قصة يوم الانذار فى «تاريخه» بهذا النحو، عندما يأتى إلى «التفسير» (التفتوا إلى أن للطبرى تفسيراً مفصلاً فى ٣٠ جزء، عدا التاريخ) ويصل إلى هذه الآية ويروى الحادثة المذكورة، يقول: إن النبى عليه السلام قال: «أيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى وكذا وكذا... قال على عليه السلام: أنا يا نبى الله أكون وزيرك ... فقال النبى صلى الله عليه وآله: إن هذا أخى وكذا وكذا» «٣».

فكما تلاحظون فإن هذا المفسر المعروف يعبر «بكذا وكذا» بدلاً عن وصيى وخليفتى فيكم، وكرر هذا الأمر مرتين لثلايق تعبير «الوصى والخليفة» بأيدي اتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام ويقدمونه وثيقة على خلافة على عليه السلام، ويصاب حكم الطبرى وأمثاله المسبق المليء بالتعصب!

فهل هذا هو معنى المحافظة على الأمانة فى تدوين ونقل أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله؟ ألم

(٢) تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٦٣.

(٣) تفسير جامع البيان، ج ١٩، ص ٧٥، ذيل الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٣

يكن يفكر بأن تعبيره التاريخى سيوضع يوماً أمام تعبيره التفسيري ويقام القياس بينهما، وتجري محاكمتها؟ ويجدر الانتباه إلى أن الطبرى ليس فريداً فى القيام بهذا الفعل، فهناك الكثير ممن مارسوا ويمارسون هذه الأفعال.

فقد نقل الآلوسى هذه الرواية أيضاً فى روح البيان بشكل ناقص ومعيب، ثم يضيف:

«ومن الروايات ما يتمسك به الشيعة فيما يدعون من أمر الخلافة وهو مؤول أو ضعيف أو موضوع» (١).

إن الأحكام المسبقة لهذا المفسر المعروف عجيبة حقاً، فهو يقول: بما إن هذه الرواية تصب فى صالح الشيعة فأما يجب أن توجه، أو تضعف، أو تعتبر مزورة، أى أن أساس الحكم لا يستند إلى الحقائق التاريخية والقرآن والسنة، بل إلى الأحكام المسبقة وكل ما يخالفها يجب غض الطرف عنه وتبريره وتضعيفه.

ومن البديهي أنه لو اجتمع جميع الأنبياء والكتب السماوية لعجزوا عن النفوذ إلى عقليته من يمتلك مثل هذا النمط من التفكير، وتغييره.

لقد ذكر «أحمد بن حنبل» أحد أئمة مذاهب السنة فى كتابه المعروف ب «مسند أحمد» قصة يوم الانذار إلى أن يقول: قال على عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لما نزلت هذه الآية «وانذر عشيرتكم الاقربين ...» قال: جمع النبي صلى الله عليه وآله من أهل بيته فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا فقال صلى الله عليه وآله: من يضمن عنى دينى ومواعيدى ويكون معى فى الجنة ويكون خليفتى فى أهلى ... فقلت: أنا (٢).

يقول ابن أبى الحديد المعتزلى: أما خبر الوزارة (إشارة إلى الحديث الذى يثبت وزارة على عليه السلام) فقد نقله الطبرى فى تاريخه عن عبد الله بن عباس عن على بن أبى طالب عليه السلام قال:

لما انزلت هذه الآية «وانذر عشيرتكم الاقربين ...» على رسول الله صلى الله عليه وآله دعانى ... ثم نقل القصة إلى أن ذكر قول الرسول صلى الله عليه وآله «وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه، فأتيكم يؤازرنى على

(١) تفسير روح المعانى، ج ١٩، ص ١٣٥ ذيل آية البحث.

(٢) مسند أحمد، ج ١، ص ١١١ (مع شيء من الاختصار).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٤

هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟ فقال على عليه السلام: أنا يارسلو الله أكون وزيرك عليه، فقال الرسول صلى الله عليه وآله: هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم» (١).

انتبهوا إلى أنه قد جاء فى هذه الرواية وبعض الروايات المتقدمة التعبير بخليفتى فيكم، ويتضح من ذلك أن التعبير بالاهل فى الروايات الاخرى يفيد هذا المعنى أيضاً (تأملوا جيداً).

ذكر «ابن الاثير» (٢) هذه الحادثة أيضاً بالتفصيل فى كتابه «الكامل» - بل وأكثر تفصيلاً من أغلب المحدثين والمؤرخين إلى أن يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أتيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟ فأحجم القوم عنها جميعاً»، فقال على عليه السلام: «أنا يارسلو الله أكون وزيرك عليه ... فقال الرسول صلى الله عليه وآله: إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا» (٣).

واللطيف أنه قد عبر ب «خليفتى فيكم» فى هذا الحديث أيضاً، وفى الحقيقة أنها احدى معجزات النبي صلى الله عليه وآله إذ أنه قال

هذه العبارة بحزم لعلى عليه السلام فى ذلك الحين، ولم يكن له من العمر سوى ثلاثة عشر سنة، فمن يستطيع التنبؤ بأن هذا الصبى ذا الثلاث عشر عاماً سيصبح من أعظم رجال البشرية فى المستقبل، ويستحق خلافة النبى صلى الله عليه وآله، والكل يسمعون له ويطيعونه؟

واللطيف أيضاً: إن النبى صلى الله عليه وآله قال هذا فى الأيام الأولى لدعوته، يوم الانذار، وكذلك فى الأشهر الأخيرة من حياته المباركة، أليس هذا الكلام أفضل دليل على إمامة على عليه السلام؟

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٣، ص ٢١٠.

(٢) «ابن الاثير» من أشهر المؤرخين حيث عاش فى القرن السابع، و تاريخه يقع فى ١٣ جزء.

(٣) الكامل، ج ٢، ص ٦٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٥

١٦- آية مرج البحرين

«مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ». (الرحمن / ١٩-٢٢)

لقد وردت أقوال كثيرة فى تفسير هذه الآية، وقد ذكرنا أبحاثاً كثيرة بهذا المضمرة فى التفسير الأمثل، فتارة قيل: المراد من البحرين بحران ذواتا ماء عذب ومالح، حيث يتجاوران فى الكثير من المناطق دون أن يختلطا مع بعضهما، ويلاحظ هذا المشهد جيداً فى جميع المناطق التى تصب فيها الأنهار بالبحار.

والتفسير الآخر اللطيف لهذين البحرين، تيار «غولف استريم» والأنهار البحرية العملاقة التى تتحرك فى الكثير من محيطات العالم وتأخذ المياه الدافئة من المناطق الاستوائية نحو المناطق القطبية، وربما يختلف لونها عن لون المياه المحيطة بها، والمدهش أن عرضها يبلغ أحياناً مائة وخمسين كيلو متراً وعمقها عدة مئات من الأمتار، وقد تصل سرعتها إلى ١٦٠ كم فى اليوم! وتختلف درجة حرارتها عن المياه المجاورة ب ١٠-١٥ درجة!

إنّ هذا التيار من المياه الدافئة يخلق رياراً دافئاً ويمنح قسماً من حرارته إلى المناطق المجاورة، ويعمل على تلطيف الجو فى المناطق الشمالية للكورة الأرضية التى يمر بها، ويجعلها ملائمة، ولولا هذه التيارات البحرية لتعسرت الحياة فى تلك البلدان، وربما لا يمكن تجرّعها.

وطبعاً فإنّ «غولف استريم» اسم لأحد التيارات والأنهار البحرية، ويشاهد شبيه ذلك فى مياه القارات الخمس، وأنّ السبب الرئيس لهذه الحركة هو الاختلاف بين درجة حرارة مياه المناطق الاستوائية ومياه المناطق القطبية. «١»

(١) للمزيد من التفصيل فى هذا الصدد وبشأن هذه الآيات راجعوا الى التفسير الأمثل ذيل الآيات مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٦

وحيث إنّ آيات القرآن ذوات ظاهر وباطن، فقد تفسر تفسيراً مادياً ومعنوياً، وفى الروايات الإسلامية فسر هذان البحرين بعلى وفاطمة عليهما السلام، وفسر اللؤلؤ والمرجان معنوياً بالحسن والحسين عليهما السلام.

فقد روى فى «شواهد التنزيل» عن «سلمان الفارسي» فى تفسير آية «مرج البحرين يلتقيان» أن «المراد هو على وفاطمة عليهما السلام» ثمّ يضيف: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، يعنى الحسن والحسين» «١»، ونقل هذا المعنى بطريق آخر عن «ابن عباس» و «الضحّاك» «٢».

وجاء في رواية اخرى عن «سعيد بن جبير» عن «ابن عباس» أن المراد من «مرج البحرين يلتقيان» على وفاطمة عليهما السلام، والمراد من «بينهما برزخ لا يبيغان» حب دائم لا ينقطع ولا ينفد، والمراد من «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» الحسن والحسين عليهما السلام (٣).

وورد في رواية اخرى تعبير أكثر وضوحاً عن «ابن عباس» بشأن «بينهما برزخ لا يبيغان» وهو أن المراد «ود لا يتباغضان» (٤). وفي الحقيقة أن البرزخ يعنى «الحائل بين شيئين» فالمحبة هنا تحول دون البغى والتجاوز.

وبعد أن يذكر «السيوطى» أيضاً فى تفسيره الروائى «الدر المنثور» الروايات المتعلقة بالتفسير الظاهرى لهذه الآية، نقل مضمون الأحاديث المتقدمة عن «ابن عباس» وعن النبى صلى الله عليه وآله، فيقول: روى «ابن مردويه» عن «ابن عباس» فى تفسير آية «مرج البحرين يلتقيان»، أن المراد على وفاطمة عليهما السلام.

ثم يضيف: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، يعنى الحسن والحسين عليهما السلام» (٥).

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٠٩ (ح ٩١٩).

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٨.

(٣) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢١٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(٥) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ١٤٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٧

وروى هذا المعنى عن «انس بن مالك» أيضاً (١).

واللطيف أن المفسر المعروف «الآلوسى» بعد أن ينقل الرواية الآنفه فى تفسير «روح المعانى» عن «ابن عباس» و «انس بن مالك»، وكذا عن طريق الطبرسى عن «سلمان الفارسى» و «سعيد بن جبير» و «سفيان الثورى» يضيف قائلاً: «والذى اراه أن هذا إن صح ليس من التفسير فى شىء بل هو تأويل كتأويل المتصوفة لكثير من الآيات، وكل من على وفاطمة رضى الله تعالى عنهما عندى أعظم من البحر المحيط علماً وفضلاً وكذا كل من الحسين رضى الله تعالى عنهما أبهى وأبهج من اللؤلؤ والمرجان بمراتب جاوزت حد الحساب» (٢).

إن اعترافه الصادق بمنزلة هؤلاء العظماء امر حسن فى ذاته، على شرط أن لا يكون غرضه سلب قيمة هذه الروايات!

ولعل الآلوسى تناسى أن هذا الحديث روى عن النبى صلى الله عليه وآله، بطرق عديدة، وأن النبى صلى الله عليه وآله له كامل الصلاحية فى تأويل الآيات، وأن مقارنته بتأويلات الصوفيين الموضوعه والمنحرفة التى تفتقد للسند مقارنه مجحفة لا تتناسب وشأن العالم.

على أية حال، فهذه الآية من الآيات التى تدلل على الفضل العظيم والمقام الرفيع لعلى وزوجته وولديهما الحسن والحسين عليهم السلام، لأنها شبت علياً وفاطمة عليها السلام ببحرين عظيمين، البحر الذى يكشف عن عظمة البارى جلّ وعلا، والذى يعتبر مصدراً للبركات، ومنطلقاً للعلوم والمعارف الزاخرة، ومظهراً بارزاً لفضائل الأخلاق كالجود والسخاء والطهارة والعصمة، وتشبه ولديهما باللؤلؤ النفيس الذى لانظير له، الذى ينمو فى أعماق البحر، ثم يبرز إلى الخارج، تكامل فيه الحسن والجمال، ظاهرياً وباطنيّاً، والعلم والتقوى والفضيلة والطهارة والعصمة.

فأى شخص تشاهد فيه كل هذه المناقب؟ ومن أكثر جدارة بخلافة النبى صلى الله عليه وآله غير على وأولاده عليهم السلام، وكم مروا من هذه المناقب مرور الكرام!

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير روح المعاني، ج ٣٧، ص ٩٣ (ذيل آيات البحث).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٩

١٧- آية النجوى

إشارة

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ*
ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صِدَقَاتٍ فَمَاذ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ
خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». (المجادلة/ ١٢-١٣)

من القرائن المتوفرة في هاتين الآيتين، وكذلك من شأن النزول الذي أورده الكثير من المفسرين من بينهم المرحوم «الطبرسي» في «مجمع البيان»، و«الفخر الرازي» في «التفسير الكبير»، و«القرطبي» في تفسير «الجامع لأحكام القرآن»، و«الآلوسي» في «روح المعاني»، وغيرهم يستفاد أن نفرًا من المسلمين وكما يقول بعض المفسرين أنهم جماعة من الأغنياء والأثرياء كانوا يناجون رسول الله صلى الله عليه وآله في أبسط الأمور من أجل الحصول على مكانة لهم لدى الناس، غافلين عن حقيقة أن وقت النبي صلى الله عليه وآله ائتمن من أن يضيعها شخص من أجل قضايا بسيطة أو لا أهميتها لها، اضم إلى ذلك أن هذا الأمر كان يؤدي إلى انزعاج المستضعفين، وتميز الأغنياء، وأحياناً كان يبعث على التشاؤم.

فزلت أول آية من الآيتين أعلاه تأمر المسلمين أن: «إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ»، فخلق هذا الإيعاز اختباراً لطيفاً، وكان محكاً للذين يزعمون قربهم من النبي صلى الله عليه وآله، فقد أبى الجميع اعطاء الصدقة والنجوى سوى شخص واحد وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، هنا تبين ما كان يجب أن يوضح ويفهمه المسلمون ويعتبروا به، وأخذوا منه الدرس البليغ.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٠

نفحات القرآن ج ٩، ص: ٣٠٢

وبعد مدة وجيزة نزلت الآية الثانية، ونقضت هذا الحكم واصبح معلوماً استحكام حب المال في قلوب البعض من الرغبة في نجوى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وان هذه النجوى غالباً ما كانت بشأن الأمور غير الضرورية، وكان القصد منها الحصول على الوجهة الاجتماعية.

وقد وردت هنا روايات عديدة مفادها أن علياً هو الرجل الوحيد الذي عمل بهذه الآية.

روى في شواهد التنزيل عن مجاهد، عن علي عليه السلام أنه قال: «انَّ فِي الْقُرْآنِ لَأَيَّةَ مَا عَمِلَ بِهَا أَحَدٌ قَبْلِي وَلَا بَعْدِي وَهِيَ آيَةُ النُّجْوَى قَالَ: كَانَ لِي دِينَارٌ فَبَعْتُهُ بِعَشْرَةِ دَرَاهِمٍ فَكَلِمَا أَرَدْتُ أَنْ أُنَاجِيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَصَدَّقْتُ بِدَرَاهِمٍ مِنْهُ ثُمَّ نُسَخْتُ» (١). ونقل في رواية أخرى عن أبي أيوب الأنصاري قال: نزلت هذه الآية في علي: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ... صدقة»، أن علياً ناجى النبي صلى الله عليه وآله و آله عشر نجوات، يتصدق في كل نجوة بدينار (٢).

وجاء في نفس الكتاب أيضاً في رواية أخرى عن مجاهد أن في القرآن آية لم يعمل بها أحد غير علي بن أبي طالب عليه السلام حتى نسخت، وهي: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ...»، فهو قد ناجى رسول الله صلى الله عليه وآله و آله وتصدق بدينار (٣).

ونُقلت في هذا الكتاب روايات اخرى عديدة بهذا الصدد تُناهز عشر روايات!

وذكر السيوطي في تفسيره الروائي «الدر المنثور» هذه الرواية أيضاً بطرق عديدة (أكثر من سبع طرق)، لا سيما أنه ينقل عن «الحاكم النيشابوري» باقراره أن هذا الحديث صحيح، عن علي عليه السلام: «إنَّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا أحد بعدي»، ثم ذكر بقية الحديث كما ذكرنا أعلاه عن شواهد التنزيل «٤».

وفي الكتاب نفسه ينقل عن الكثير من الرواة عن علي عليه السلام: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله استشار علياً بشأن تحديد مقدار هذه الصدقة قائلاً: ما ترى ديناراً، قلت: لا يطيقونه، قال: فنصف دينار قلت: لا يطيقونه، قال: فكم، قلت: قلت: شعيرة قال: إنَّك لزهيد، قال: فنزلت

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٣١، ح ٩٥١.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٠، ح ٩٤٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ١٨٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥١

ءأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات، قال: في خفف الله عن هذه الائمة» (١).

وهناك رواية لطيفة بهذا الصدد ينقلها «البرسوني» في تفسير «روح البيان» عن «عبد الله بن عمر» حيث كان يقول: «كان لعلي عليه السلام ثلاث لو كانت لي واحدة منهن كان أحب إلي من حمر النعم، تزويجه فاطمة عليها السلام، واعطائه الراية يوم خيبر، وآية النجوى» (٢).

وأورد الزمخشري ذلك أيضاً في «الكشاف» (٣).

وكذلك القرطبي في تفسير «الجامع لأحكام القرآن» (٤).

والطبرسي في «مجمع البيان» (٥).

وفي الحقيقة أن «عبد الله بن عمر» أشار إلى ثلاث قضايا مهمّة وهي: إنَّ فاطمة عليها السلام وكما يعبر النبي صلى الله عليه وآله «سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين»، لم يكن لها كفؤ سوى علي عليه السلام إذ كان رجل التاريخ بعد النبي صلى الله عليه وآله.

وقضية اعطائه الراية يوم خيبر، وحراره للقب «كرار غير فرار»، بعد أن تقدم الآخرون وقفلوا خائبين، والظفر الذي تحقق من خلال ذلك يعدُّ منقبة اخرى لا نظير لها، وكذلك وجود آية في القرآن ما عمل بها إلأعلى عليه السلام.

والمدهش أن البعض يصرون على التقليل من أهميّة هذه المنقبة، بل انكار كونها منقبة بشكل تام! وكالمعتاد فإنهم يتوسلون بمختلف المبررات والعلل الواهية، والتي لا أساس لها.

فتارة يدعون أن كبار الصحابة لما لم يقوموا بهذا العمل فلائهم لم يروا حاجة إليها! واخرى يقولون: لم يكن لديهم متسع من الوقت لأن الآيه سرعان ما نُسخت! وحيناً يقولون: إنَّ الآخرين كانوا يظنون أن اعطاء الصدقة والنجوى يؤدي إلى انزعاج الفقراء وذعر

(١) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ١٨٥.

(٢) تفسير روح البيان، ج ٩، ص ٤٠٦.

(٣) الكشاف، ج ٤، ص ٤٩٤ (ذيل آيات البحث).

(٤) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٤٧٢.

(٥) تفسير مجمع البيان، ج ٩ و ١٠، ص ٢٥٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٢

الأغنياء، والفقراء عاجزون عن القيام بمثل ذلك، والأغنياء القادرون على ذلك يخشون التعرض للتأنيب إذا تركوه، وعلى هذا الأساس فإن عدم عمل الآخرين بهذه الآية لا يسلب الفضل عنهم «١».

ولكن، يبدو أن هؤلاء المفسرين الكبار! قد نسوا الآية الثانية خلال اختلافتهم لهذه المبررات، إذ وجه القرآن الكريم اللوم لمن تناجوا آنفاً وتركوا ذلك بعد نزول حكم الصدقة، فيقول تعالى «ءِشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ».

ثم يعدد القرآن هذا الفعل وكأنه معصية، ويعتبرهم إجمالاً مشمولين بالتوبة «وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ»، ومن أجل تلافى هذا العمل القبيح أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة واطاعة الله ورسوله.

فلو كان الوقت ضيقاً لما كان هناك ما يدعو للتأنيب واللوم، ولا- حاجة للتوبة، وإذا كان هدفهم استقطاب قلوب الفقراء وإزالة الاضطراب عن قلوب الأغنياء فهو عمل يستحق التشجيع والتكريم، فلماذا يوجه الباري تعالى اللوم لهم ويتحدث عن التوبة؟ إذن من خلال التأمل في هذه الآية يتبين جيداً أن عملهم كان قبيحاً.

فالواقع أن القضايا الواقعة لا تتفق والحكم المسبق لهؤلاء الاخوة، فإن كل شيء وحتى آيات القرآن الكريم يلفها النسيان، والحال أنها شاخصه أمامهم.

وهنا يقول البعض من أجل التقليل من أهمية هذه الفضيلة: لقد كان الفاصل الزمني بين نزول آية النجوى ونسخها ساعة واحدة فقط، لهذا لم يفلح كبار الصحابة بالعمل بها، فهؤلاء من الناسين أيضاً، حيث لم ينتبهوا إلى لحن آية النسخ، الآية التي توجهت إلى بعض الصحابة باللوم لتركهم الصدقة خشية الاملاق، وتغاضوا عن النجوى والآن فإن الله تعالى يقبل توبتهم.

فاذا كان الفاصل الزمني بينهما ساعة واحدة فقط لن يبق مجال لهذه الجدالات، وعليه فمن المناسب أن تكون هناك رواية تقول: إن الفاصل الزمني بينهما كان عشرة أيام «٢».

(١) التفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢٧٢؛ وتفسير روح المعاني، ج ٢٨، ص ٢٨.

(٢) في تفسير روح المعاني، نقل هذا القول عن مقاتل الذي كان معاصراً للمنصور الدوانيقي، ومن تلامذة التابعين.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٣

سؤال:

السؤال الوحيد الذي يبقى ههنا هو: كيف يعد هذا العمل فضيلة؟ وهل الأمر كما يقول بعض المتعصبين من المفسرين: أن لا العمل بها يعد فضيلة ولا تركها منقصة؟

أم أن الأمر كما جاء في الروايات الإسلامية من أن علياً عليه السلام كان يعتبرها منقبة عظيمة بالنسبة له، وأن عبد الله بن عمر كان يعدد الزواج من فاطمة عليها السلام سيده النساء وفتح خبير منقبة؟

لقد تبين الجواب عن هذا السؤال خلال البحوث المتقدمة، ونضيف: إن أفضل طريق للحصول على جواب هذا السؤال هو الرجوع إلى القرآن الكريم والتعمق في الآية الناسخة (الثانية)، فهذه الآية تثبت أن الله تعالى كان يريد بهذا الحكم اختبار المسلمين، هل أنهم على استعداد لدفع شيء ما من أجل النجوى مع النبي صلى الله عليه وآله- حيث كانوا يزعمون أنها تجري من أجل مصالح المسلمين، وأن يتصدقوا في سبيل الله؟

وهنا يخرج شخص واحد ظافراً من هذا الاختبار، وهو على بن أبي طالب عليه السلام، أليس هذا هو الفخر بعينه؟
وبعبارة اخرى فإن جميع الناس شملهم التأنيب والتوبيخ والتوبة الواردة في هذه الآية، والوحيد الذي لم يشمله هذا التوبيخ هو على عليه
السلام، فلماذا ياترى يُنكر بعض العلماء حقائق بهذا الجلاء والوضوح؟ اجيبوا أتم؟!
نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٥

١٨- آية السابقون

إشارة

«وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَى * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ». (الواقعة/ ١٠-١٤)
روى في تفسير «شواهد التنزيل» ل «الحاكم الحسكاني» عن «ابن عباس»: «السُّبِقُ ثلاثة: سَبَقَ يوشع بن نون إلى موسى وسَبَقَ صاحب
ياسين إلى عيسى وسَبَقَ على إلى النبي صلى الله عليه وآله» (١).
وروى في الكتاب نفسه عن «ابن عباس» قوله: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن تفسير هذه الآية، فقال: «حدثني جبرئيل
بتفسيرها، قال ذاك على وشيعته إلى الجنة» (٢).
هذان التفسيران لا يتعارضان مع بعضهما، لأنَّ علياً عليه السلام كان سَبَقاً إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله وكذلك فهو سَبَقاً
إلى الجنة، وفي الحقيقة أنَّ بينهما ارتباط والتحام لا ينفك أبداً.
وفي الكتاب نفسه نُقلت عدَّة أحاديث اخرى في هذا الصدد.
وفي تفسير «الدر المنثور» أيضاً نُقلت روايتان عن «ابن عباس» في هذا المجال، في احدهما ينقل «ابن أبي حاتم»، و «ابن مردويه» عن
«ابن عباس» في تفسير هذه الآية، قال:
«يوشع بن نون سبق إلى موسى ومؤمن آل ياسين سبق إلى عيسى وعلى بن أبي طالب سبق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله» (٣).
وفي الكتاب نفسه ينقل حديثاً آخر بنفس المضمون (٤).

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢١٣، ح ٩٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٥ و ٢١٦، ح ٩٢٧.

(٣) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ١٥٤.

(٤) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٦

ومن الذين نقلوا هذه الرواية هو «ابن المغازلي» (على ضوء نقل ابن البطريق) في كتاب «العمدة»، و «سبط ابن الجوزي» في «التذكرة»،
و «ابن كثير» في «تفسيره»، و «ابن حجر» في «الصواعق»، و «العلامة الشوكاني» في «فتح القدير»، و «الشيخ سليمان القندوزي» في «ينابيع
المودة» (١).

والمسألة الجديرة بالاهتمام أيضاً هي أنَّ «القاضي روز بهان» الذي يتَّصف بتعصب خاص في القضايا المتعلقة بالإمامة والخلافة،
وكتابه المسمى «ابطال نهج الحق» شاهد على هذا المعنى يقول في معرض اجابته للعلامة الحلِّي بشأن هذه الآية (حيث ينقل العلامة
الحلِّي في كتابه، عن طريق أهل السنَّة عن ابن عباس سابق هذه الامَّة على بن أبي طالب) في كتابه «ابطال نهج الحق»: هذا الحديث
جاء في روايات أهل السنَّة ولكن بهذه العبارة:

«سَبَّاقِ الْأُمَّةِ ثَلَاثَةٌ: مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَحَبِيبِ النَّجَارِ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» ثم يضيف: «ولا شك أن علياً عليه السلام سابق في الإسلام، وصاحب السابقة والفضائل التي لا تحصى ولكن لا تدل الآية على نص بإمامته (٢)».

ولكن ينبغي الالتفات إلى عدم قول أي أحد بأن هذه الأحاديث لو حدها تعني النص على إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام، بل الغرض أننا عندما نستجمع هذه الآيات والروايات مع بعضها نرى أن علياً عليه السلام ابرز شخص في الأمة الإسلامية كان لائقاً لهذا المقام، ولا يلحقه أحد في هذا المجال.

فهل من المناسب أن نقدّم غيره عليه مع كل هذه المناقب التي لا تقبل الإنكار، ونتبع غيره مع وجوده؟!

(١) احقاق الحق، ج ٣، ص ١١٤ - ١٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٧

نستأنف هذا البحث بذكر أمرين:

١- مَنْ الْمَقْصُودُ مِنْ: «قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ»؟

في سياق الآيات المتقدمة، وبعد ذكر القرآن الكريم لمنزلة السابقين الرفيعة على أنهم المقربون لدى الله تعالى وأن منزلتهم في جنات النعيم، يضيف: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ».

ينقل الحاكم الحسكاني في «شواهد التنزيل» عدّة روايات عن «محمد بن فرات»، و «محمد بن سهل»، و «علي بن عباس» عن «جعفر بن محمد عليه السلام» أنه قال في تفسير آية:

«وقليل من الآخرين» هو علي بن أبي طالب عليه السلام (١).

ومن البديهي أن ليس مفهوم الآية أن جنّة هذه الامّة مختصّة به، بل إنّ مقام السبق في الإيمان يستدعي مقامات سامية في الجنّة والقرب من الله تعالى حيث يختص بعلي بن أبي طالب عليه السلام (بعد النبي صلى الله عليه وآله).

من هنا ففي الآيات اللاحقة من هذه السورة التي توضّح منازل ومزايا طائفة اخرى من أهل الجنّة (أصحاب اليمين)، يقول تعالى في آخر المطاف: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ». (الواقعة / ٣٩ - ٤٠)

واضح أن أصحاب اليمين وإن كانوا من أهل الجنّة إلّا أنّهم يُدانون «المقربين من السابقين».

٢- مَنْ هُوَ أَوَّلُ مُسْلِمٍ؟

إشارة

هذا بحث مهم «مَنْ هُوَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ»؟ والبحث حوله لا تخفى أهميته؟

فقد اتفقت الامّة الإسلامية جميعها على أن خديجة الكبرى عليها السلام كانت أول مَنْ آمَنَ من النساء، أمّا من الرجال فبالرغم من اصرار البعض على تعقيد المسألة وتعريضها للبحث

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٩٨ - ٢٩٩، الأحاديث ٩٣٢ - ٩٣٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٨

والجدال، فمن خلال تفحص الأحاديث والتواريخ لا يبقى شك لكل مراقب محايد، بأنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان أول مؤمن، فهو كان أول مصدق برسول الله صلى الله عليه وآله وأول من بايعه، وأول من صلى معه.

إنّ القرائن والأدلة على هذه القضية متوفرة في جميع المصادر الإسلامية حيث نشير فيما يأتي إلى جانب منها:

لقد روى ما لا يقل عن ثمانية عشر من الصحابة وبطرق مختلفة- هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله بأنّ علياً عليه السلام كان أول من آمن من الرجال وصلى مع النبي صلى الله عليه وآله:

١- يقول أبو سعيد الخدرى وهو من كبار الصحابة: أن رسول الله صلى الله عليه وآله ضرب على كتف علي عليه السلام وقال: «يا على لك سبع خصال لا يحاجك فيهن أحد يوم القيامة أنت أول المؤمنين إيماناً بالله...» (١).

٢- تقول عائشة: نقلت فاطمة عليها السلام هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لها: «رَوَّجْتُكَ أَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ عِلْمًا وَأَقْدَمَهُمْ سَلَمًا وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا» (٢).

٣- يقول ابن عباس: سمعت «عمر بن الخطاب» يقول:

كفوا عن ذكر علي بن أبي طالب فقد رأيت من رسول الله صلى الله عليه وآله فيه خصالاً لئن تكون لى واحدة فهى فى آل الخطاب أحب لى مما طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبو بكر وأبو عبيدة فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فأنتهيت إلى باب أم سلمة، وعلى قائم على الباب فقلنا:

أردنا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يخرج إليكم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله فصرنا إليه فاتكأ على علي بن أبي طالب ثم ضرب بيده منكبه، ثم قال: «إِنَّكَ مَخَاصِمُ تَخَاصِمُ، أَنْتَ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ، وَأَوْفَاهُمْ بَعْدَهُ، وَأَقْسَمُهُمْ بِالسُّوْيَةِ، وَأَرْأَفُهُمْ بِالرَّعِيَةِ وَأَعْظَمُهُمْ رِزِيَّةً» (٣).

إنّ هذا الحديث يكشف عن قضايا كثيرة لا يستوعبها هذا البحث.

(١) أورد هذا الحديث «أبو نعيم الاصفهاني» فى «حلية الاولياء»، ج ١، ص ٦٦.

(٢) ينقل هذا الحديث «ابن عساكر» فى «تاريخ دمشق» فى ترجمة الإمام على عليه السلام ج ١، ص ٢٤٤.

(٣) كنز العمال، ج ١٣، ص ١١٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٩

٤- يروى «معاذ بن جبل» عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لعلى عليه السلام: «تخصم الناس بسبع لا يحاجك فيه أحد من قريش أنت أولهم إيماناً بالله» (١).

٥- تروى «أسماء بنت عميس» زوجة جعفر بن أبي طالب، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لفاطمة: «زوجتك أقدمهم سلماً وأعظمهم حلماً وأكثرهم علماً» (٢).

٦- يقول «سلمان الفارسي»: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أولكم وروداً على الحوض، أولكم إسلاماً على بن أبي طالب» (٣).

٧- يقول «أبو سخيلة» حججت مع سلمان فنزلنا بأبي ذر فكنا عنده ما شاء الله، فلما حان منا خوف قلت: يا أبا ذر انى ارى أموراً قد حدثت وانى خائف أن يكون فى الناس اختلاف فإن كان ذلك فما تأمرنى؟ قال: «إلزم كتاب الله عزّ وجلّ وعلى بن أبي طالب فأشهد أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: على أول من آمن بى، وأول من يضافحنى يوم القيامة، وهو الصديق الأكبر وهو الفاروق يفرق بين الحق والباطل» (٤).

- ٨- يقول «عبد الرحمن بن عوف» في حديث في ذيل آية «السابقون الاولون»، كانوا عشرة انفار من قريش: «كان أولهم إسلاماً على بن أبي طالب» «٥».
- ٩- ينقل جمال الدين أبو الحجاج في كتاب «تهذيب الكمال» عن «أبو رافع» من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: «أول من أسلم من الرجال على» «٦».
- ١٠- يروي أنس بن مالك خادم رسول الله أنه صلى الله عليه وآله قال: «أول هذه الامة وروداً على

(١) أورد هذا الحديث شهاب الدين الحسيني الشافعي في كتاب «توضيح الدلائل»، ص ١٧١ (حسب نقل احقاق الحق، ج ٢٠، ص ٤٥٥).

(٢) تاريخ ابن عساكر، ج ١، ص ٢٤٥.

(٣) أورد هذه الرواية محمد بن أبي بكر في كتاب «الجوهرة»، ص ٨، ونقلها صاحب كتاب كنز العمال أيضاً دون ذكر سندها، ج ١١ ص ٦١٦.

(٤) مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٣٠٦، حسب نقل احقاق الحق، ج ٢٠، ص ٤٧٢، وأورد هذا الحديث كنز العمال من عبارة (إنّ هذا أول من آمن بي إلى الأخير) في ج ١١، ص ٦١٦، ح ٣٢٩٩٠.

(٥) مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٣٠٧، تأليف الإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور).

(٦) تهذيب الكمال، ج ٣، ص ٨٥، (طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ٢٠، ص ٣٦٧).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٠

الحوض أولها إسلاماً، على بن أبي طالب» «١».

١١- يقول ابن عباس يمتاز على عليه السلام بأربع خصائص لشأن في احد غيره: هو اول عربى وعجمى صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله «٢».

ويقول في موضع آخر: «أول من أسلم بعد خديجة، على بن أبي طالب» «٣».

١٢- ينقل المحدث المعروف النسائي في كتاب «السنن» عن زيد بن أرقم أنه قال: «اول من أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وآله على بن أبي طالب» «٤».

١٣- ينقل أبو أحمد الجرجاني الشافعي في كتاب «الكامل في الرجال» عن مالك بن الحوريث أنه قال: «كان على أول من اسلم من الرجال وخديجة أول من أسلم من النساء» «٥».

١٤- تقول ليلي الغفارية، وهي امرأة كانت تداوى جرحى الحرب في عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: خرجت مع على عليه السلام بالبصرة فلما رأيت عائشة واقفة دخلني شيء من الشك فأتيتها، فقلت: هل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله فضيلة في علي؟ قالت: نعم، دخل علي علي رسول الله صلى الله عليه وآله وهو علي فراش لي وعليه جرد قطيفة فجلس بينهما فقلت له: أما وجدت مكاناً هو أوسع لك من هذا؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: «يا عائشة دعى لي أخى فإنه أول الناس بى إسلاماً وآخر الناس بى عهداً عند الموت وأولى الناس بى يوم القيامة» «٦».

١٥- ينقل أحمد بن حنبل أحد الأئمة الأربعة لأهل السنة في مسنده- حديثاً عن الصحابي المعروف «معقل بن يسار»: «إني كنت ذات يوم جالساً عند الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله

(١) أورد هذا الحديث ابن عديم الحلبي وهو من علماء القرن السابع الهجري، في كتابه تاريخ حلب ص ٢٩٥.

(٢) المختار في مناقب الأبرار، ص ١٦، طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ٢٠ ص ٤٥٧).

(٣) ورد هذا الحديث في كتاب آل محمد، ص ١٧٤، عن حسام الدين الحنفى.

(٤) احقاق الحق، ج ٢٠، ص ٤٧٥.

(٥) الكامل في الرجال، ج ٦، ص ٢٣٧٨.

(٦) نقل هذا الحديث محمد بن مكرم الأنصارى في كتاب مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٣٠٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦١

فقال: هل لك في فاطمة عليها السلام تعودها؟ فقلت: نعم، فقام متوكئاً عليّ، فقال: أما أنّه سيحمل ثقلها غيرك ويكون أجرها لك، قال: فكأنّه لم يكن على شيء حتى دخلنا على فاطمة عليها السلام، فقال لها: كيف تجدينك؟ قالت: واللّه لقد اشتد حزني، واشتدت فاقتي وطال سقمي قال:

«أوما ترضين أنّي زوجتُك أقدم امتي سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً» (١).

تجدد الإشارة إلى أنّ هذا الحديث أورده ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» ج ٣ ص ٢٥٧، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ج ١، ص ٢٣٢، والهيثمي في «مجمع الزوائد» ج ٩، ص ١٠١، والتمتقي الهندي في «كنز العمال» ج ١٢، ص ٢٠٥، وأورده جمع آخر من علماء السنّة في كتبهم.

١٦- يقول «عبد الله بن صامت» (ثابت) وهو من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله: دخلنا يوماً على رسول الله فقلنا: «من أحب أصحابك إليك؟ فإن كان أمر كُنّا معه، وإن كان ناسته كُنّا دونه، قال هذا على أقدمكم سلماً وإسلاماً» (٢).

ويظهر جلياً من هذا الحديث بأنّ «عبد الله بن ثابت» وأصحابه كانوا يبحثون عن رجل أفضل الناس جميعاً بعد النبي صلى الله عليه وآله للإمامة والولاية، فأشار النبي صلى الله عليه وآله إلى الإمام على عليه السلام معزفاً إياه لتحمل هذا الأمر.

١٧- وينقل «بريدة» وهو صحابي من صحابة النبي صلى الله عليه وآله قصةً مشابهةً لقصة «معقل بن يسار»، حيث نقرأ في نهاية تلك القصة أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأسى فاطمة الزهراء عليها السلام وقال: «أما ترضين أنّ الله زوجك من أقدم امتي إسلاماً وأغزهم علماً وأفضلهم حلماً؟» ثم يضيف: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: واللّه «إنّ أبنيك سيدا شباب أهل الجنّة» (٣).

١٨- الإمام على بن أبي طالب عليه السلام نقل بنفسه هذا المعنى في حديثه المقبول من قبل الجميع، وقد ورد في كتاب «الجوهرة» تأليف محمد بن أبي بكر الأنصارى: إنّ الإمام

(١) مسند أحمد، ج ٥، ص ٢٦.

(٢) نقل هذا الحديث أحمد بن مردويه في كتاب المناقب، احقاق الحق، ج ١٥، ص ٣٣٦.

(٣) أورد هذا الحديث «ابن عساكر» في «تاريخ دمشق» في كتاب «ارجح المطالب» تأليف العلامة التستري، ص ١٠٧ و ٣٩٦ فقط.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٢

على عليه السلام قال على منبر البصرة: «أنا الصديق الأكبر، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم» (١).

كذلك ينقل «الشيخ محمد بن مكرم الأنصارى» في كتابه «مختصر تاريخ دمشق» عن الإمام أنّه قال: «أنا أوّل مَنْ أسلم» (٢).

وهناك موارد متعددة في «نهج البلاغة» تستند على هذا المعنى منها أنّ الإمام يقول في الجملة رقم ١٣١: «اللهم إني أول من أناب وسمع وأجاب، لم يسبقني إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة» (٣).

تجدد الإشارة إلى أننا خرجنا بعض الشيء في هذا البحث عن أسلوبنا في هذا التفسير واسهبنا في الحديث، إلّا أنّ أهميّة المسألة أوجبت علينا التوسّع في البحث أكثر مما ينبغي.

على أية حال نختم هذه الروايات والروايات التي أوردها «ابن هشام» في تاريخه المعروف «السيرة النبوية» مع الاعتراف بهذه الحقيقة، أن المواضيع غير المطروقة كثيرة في هذا الباب.

إنه ينقل أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في أوائل أيام الإسلام كان يذهب إلى بعض مفاوز مكة عند دخول وقت الصلاة لأداء الصلاة، ويرافقه على بن أبي طالب - خفيئ - فقط ... وذات يوم قال له أبوه أبو طالب: يا ولدي ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ قال: يا أبت! آمنت بالله وبرسول الله، وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله واتبعته، فقال له: أما أنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه «٤».

(١) الجوهره، ص ٨، وقد نقل هذا المعنى طائفة اخرى مثل «أبو أحمد الجرجاني» في كتاب الكامل في الرجال، ج ٣، ص ١١٢٣، وتوضيح الدلائل، ص ١٧١، ومختصر تاريخ دمشق وغيرها.

(٢) مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ١١٨.

(٣) ورد هذا المعنى في الخطبتين ٧١ و ١٩٢ أيضاً.

(٤) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٤٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٣

إن أسبقية إيمان على عليه السلام من الوضوح والجلء بحيث إن جمعاً من الشعراء المعروفين ذكروه في أشعارهم كواحدٍ من مناقب الإمام على عليه السلام ومفاخره.

يقول أحدهم في هذا المجال:

ليس أول من صلي لقبلتكم وأعلم الناس بالقرآن والسنن؟

ويقول آخر:

فهذا وفي الإسلام أول مسلم وأول من صلي وصام وهللاً

وينقل المرحوم «العلامة الأميني» في «الغدير» بعد ذكره لعشرة شعراء أنهم انشدوا هذا المعنى في طيات أشعارهم «١».

وجدير بالذكر أيضاً أن العلامة الأميني ينقل في ذلك الكتاب أكثر من مائة حديث آخر عن «الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله»، و «أمير المؤمنين عليه السلام»، و «الصحابه»، و «التابعين»، و «المؤرخين»، و «المحدثين»، كلها تنص على أن علياً عليه السلام أول من آمن برسول الإسلام صلى الله عليه وآله من الرجال.

سؤال واحد فقط!

بقي هنا سؤال معروف كان مطروحاً بين بعض «المرجفين» منذ القرون الاولى لظهور الإسلام، وهو «صحيح أن علياً عليه السلام أول من اسلم من الرجال، ولكن: هل يصح إسلام غلام في العاشرة من عمره؟» ولو سلمنا بجعل زمان بلوغه معياراً فإن جمعاً آخر آمنوا بالإسلام قبله على هذا الأساس.

الجواب:

من المناسب أن نورد هنا المحاججة التي جرت بين «المأمون» الخليفة العباسي، مع أحد علماء أهل السنة المعروفين في عصره ويُدعى «اسحاق»، وقد أورد هذا الحديث «ابن عبد ربه»، في «العقد الفريد».

(١) الغدير، ج ٣، ص ٢٣١-٢٣٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٤

إذ قال له «المأمون»: يا اسحاق أى الأعمال كان أفضل يوم بعث الله رسوله؟

قال اسحاق: الإخلاص بالشهادة، قال المأمون: أليس السبق إلى الإسلام؟ قال اسحاق: نعم، قال المأمون: فهل علمت أحداً سبق علياً إلى الإسلام؟ قال اسحاق: إن علياً أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم، وأبو بكر أسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم... فقال المأمون: أخبرني عن إسلام علي حين أسلم؟ فهل يخلو رسول الله صلى الله عليه وآله حين دعاه إلى الإسلام من أن يكون دعاه بأمر الله أو تكلف ذلك من نفسه؟ ثم قال: يا اسحاق لا- تنسب رسول الله إلى التكلف فإن الله يقول: «وما أنا من المتكلفين»، قال اسحاق:

دعاه بأمر الله، قال المأمون: فهل من صفه الجبار جل ذكره أن يكلف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم قد تكلف رسول الله صلى الله عليه وآله من دعاء الصبيان ما لا يطيقون... أترى هذا جائزاً عندك أن تنسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال اسحاق: أعود بالله «١».

ويضيف المرحوم العلامة الأميني رحمه الله) بعد نقله هذا الحديث من «العقد الفريد»: قال أبو جعفر الاسكافي المعتزلى المتوفى سنة ٢٤٠ في رسالته: قد روى الناس كافة افتخار على عليه السلام بالسبق إلى الإسلام وأن النبي صلى الله عليه وآله استنئى يوم الاثنين وأسلم على يوم الثلاثاء، وأنه كان يقول: صليت قبل الناس سبع سنين وأنه ما زال يقول: أنا أول من أسلم ويفتخر بذلك ويفتخر له به أولياؤه، وما دحوه، وشيعته فى عصره، وبعد وفاته، والأمر فى ذلك أشهر من كل شهير، وقد قدمنا منه طرفاً وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا استخف بإسلام على عليه السلام، ولا تهاون به، ولا زعم أنه أسلم إسلام حدث غرير وطفل صغير، ومن العجب أن يكون مثل العباس وحمزة ينتظران أبا طالب وفعله ليصدوا عن رأيه، ثم يخالفه على ابنه لغير رغبة ولا رهبة يؤثر القلة على الكثرة «٢».

وخلاصة الحديث توضح من خلال النقاط التالية:

أولاً: إن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله قبل إسلام على عليه السلام، ومن لم يقرّ بإسلامه فى ذلك السن،

(١) العقد الفريد، ج ٣، ص ٤٣، بشكل مختصر.

(٢) الغدير، ج ٣، ص ٢٣٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٥

فانه فى الواقع إنما يُشكل على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثانياً: من خلال الروايات المشهورة التى تمت الإشارة إليها آنفاً ورد فى قصة يوم الدار أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أعدّ طعاماً ودعا عشيرته الأقربين من قريش لتناول الطعام ودعاهم للإسلام وأن: أول من يلبي دعوته صلى الله عليه وآله فى الدفاع عن الإسلام سيكون أخاه ووصيه، فلم يلب أحد دعوته صلى الله عليه وآله سوى على بن أبى طالب، حيث قال عليه السلام: «أنا أعينك وابعك» فقال صلى الله عليه وآله: «أنت أخى ووصى وخليفتى من بعدى» «١».

فهل يصدق احد أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يتخذ- من لم يبلغ فى ذلك اليوم سن البلوغ، ولم يكن إسلامه مقبولاً أيضاً حسب قول المرجفين- أخاً ووصياً وخليفة له من بعده ويدعو الآخرين لمؤازرته إلى أن يصل الأمر ليقول رؤوس الشرك لابي طالب مستهزئين: يجب أن تسمع لابنك وتؤازره.

إن سن البلوغ ليس شرطاً فى صحة الإسلام بدون أدنى شك، فكل صبى مميز عاقل بما فيه الكفاية يؤمن بالإسلام على فرض عدم

إسلام أبيه، يفصل عن أبيه ويحتسب في زمرة المسلمين.

ثالثاً: يستفاد من القرآن الكريم أن البلوغ ليس شرطاً حتى في النبوة، وأن بعض الأنبياء بلغوا هذا المقام في سن الطفولة، كما يقول تعالى بخصوص النبي يحيى «وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا». (مريم/ ١٢)

وقد جاء كذلك في قصة عيسى عليه السلام أنه قال بصريح الكلام حين طفولته: «أَتَى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا». (مريم/ ٣٠)

وأكثر من هذه الامور جميعاً أن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله قَبِلَ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى أَنَّهُ اتَّخَذَهُ فِي يَوْمِ الدَّارِ أَخًا وَوَصِيًّا وَوَزِيرًا وَخَلِيفَةً لَهُ مِنْ بَعْدِهِ.

وعلى أئمة حال فإن الروايات التي تقول إن علياً عليه السلام هو أول مَنْ قَبِلَ دَعْوَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تُعَدُّ فَضِيلَةً لَا مِثِيلَ لَهَا لِلْإِمَامِ لَا يَسَاوِيهِ فِيهَا أَحَدٌ، ولهذا السبب فإنه أفضل الأمة لخلافته الرسول صلى الله عليه وآله.

(١) تفسير در المنتور، ج ٦، ص ٢٦٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٧

١٩- آية «أُذُنٌ وَاعِيَةٌ»

إشارة

«لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذَكُّرًا وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ». (الحاقة/ ١٢)

لقد كان الهدف هو أن نجعل من نجاه المؤمنين بواسطة سفينة نوح واغراق الكافرين بواسطة الطوفان تذكرةً لكم لتعيها (والحوادث المشابهة لها) أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (كي تنقلوها للآخرين فيتعظوا).

ينقل «السيوطي» في «الدر المنتور» من سته طرق عن «بريدة» الصحابي المعروف، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَدْنِيكَ وَلَا أَقْصِيكَ، وَأَنْ أَعْلَمَكَ وَأَنْ تَعِيَ، وَحَقُّ لَكَ أَنْ تَعِيَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ» (١).

وينقل في نفس ذلك الكتاب عن «أبو نعيم الاصفهاني» في «حلية الاولياء» عن علي عليه السلام أن الرسول صلى الله عليه وآله قال له ... ثم يذكر نفس مضمون حديث «بريدة»، ويضيف في النهاية: «فَأَنْتَ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ لِعَلْمِي» (٢).

وينقل أيضاً في نفس ذلك الكتاب من خمسة طرق عن «مكحول» وهو احد خدام النبي صلى الله عليه وآله، عندما نزلت آية «وتعيها أُذُنٌ وَاعِيَةٌ» قال الرسول صلى الله عليه وآله: «سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَ أُذُنَ عَلِيٍّ، قَالَ مَحْكَوْلٌ: فَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شَيْئًا فَنَسِيْتَهُ» (٣).

(١) تفسير در المنتور، ج ٦، ص ٢٦٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٨

ونقل «الزمخشري» الحديث الأخير في «الكشاف» أيضاً دون أن يشكل عليه (١).

ونقل جمع آخر من المفسرين مثل «الفخر الرازي» في «التفسير الكبير» (٢)، و«الألوسي» في «روح المعاني» (٣)، و«البرسوني» في

«روح البيان» (٤)، و«القرطبي» في «التفسير الجامع» (٥)، نقلوا جميعاً نهاية الآية بخصوص الحديث الأخير.

وأورد «الطبري» أيضاً في تفسيره هذا الحديث وطائفة أخرى من الأحاديث بصددها هذا الموضوع. (٦)

وقد ذكر «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» ثلاثة عشر حديثاً في نهاية هذه الآية حيث نقلها من عدة رواة، وتنتهي سلسلة سندها إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وبعض هذه الأحاديث مروية عن «مكحول» خادم النبي صلى الله عليه وآله، وبعض منها عن «بريدة»، وبعضها عن شخص «علي بن أبي طالب عليه السلام»، والبعض الآخر عن «جابر بن عبد الله الأنصاري»، حيث ستطالعون نماذج من تلك الأحاديث أدناه:

نقرأ في حديث عن «أبو الدنيا» عن علي عليه السلام أنه عندما نزلت الآية «وَتَعِيهَا أذُنٌ وَاعِيَةٌ»، قال لى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي» (٧).

ونقرأ في حديث آخر عن «مكحول» أنه عندما تلا الرسول صلى الله عليه وآله آية «وَتَعِيهَا أذُنٌ وَاعِيَةٌ»، التفت إلى علي عليه السلام وقال: «سألت الله أن يجعلها أذنك» (٨).

وفي حديث آخر عن «بريدة» أورد مضمون الحديث الذي نقلناه باديء الأمر نصاً «٩» واخيراً ينقل عن «جابر بن عبد الله الأنصاري» أنه عندما نزلت الآية الآنف الذكر، سأل

(١) تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٦٠٠.

(٢) تفسير الكبير، ج ٣٠، ص ١٠٧.

(٣) تفسير روح المعاني، ج ٢٩، ص ٤٣.

(٤) تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ١٣٦.

(٥) تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٧٤٣.

(٦) تفسير جامع البيان، ج ٢٩، ص ٣٥.

(٧) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٧١.

(٨) المصدر السابق، ص ٢٧٧ ح ١٠١٥.

(٩) المصدر السابق، ص ٢٨٢، ح ١٠٢٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٩

الرسول الله تعالى أن يجعل أذن علي عليه السلام (مصدقها الأتم) وتحقق مراد النبي هذا (١).

ونقل مؤلف كتاب «الفضائل الخمسة» هذا الحديث أيضاً، إضافة لما ذكر من «كنز العمال»، و«نور الأبصار»، و«مجمع الزوائد» للهيتمي، و«أسباب النزول» للواحدى (٢).

النتيجة:

مع الأخذ بنظر الاعتبار ما نقلناه سابقاً بخصوص شروط الإمامة والولاية وخلافة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والتي تنص على ضرورة تمتع الأئمة الإلهيين بالمقدار الكافي والسهم الأعظم من العلم والمعرفة لكي يتمكنوا تحمّل مسؤولية قيادة الأمة، وهداية الخلق في أمر الدين والدنيا، ويحفظوا تعاليم الإسلام وقوانين الله تعالى ويحرسوا القرآن والسنة، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أن علياً عليه السلام كان الشخص الوحيد من الأمة الذي يمتاز بمثل هذه المكانة والموهبة بما يطابق الروايات الآنف الواردة في تفسير الآية المذكورة، فقد ثبت لنا دون أدنى شك بأنه لم يكن اليق منه لاحراز مقام الإمامة والخلافة أحد.

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٨٠، ح ١٠١٩.

(٢) الفضائل الخمسة، ج ١، ص ٣٢٠ و ٣٢١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧١

٢٠- آية المحبة

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا». (مريم/ ٩٦)

لهذه الآية دلالة واضحة على أن الإيمان والعمل الصالح هما مصدر المحبة بين فئات المجتمع.

أجل، للإيمان والعمل الصالح جاذبية عجيبة، ذلك أنها تجذب القلوب نحو بعضها كما يجذب المغناطيس الحديد نحو، وحتى الأفراد الملوثون والنجسون يستأنسون بالطاهرين والصالحين من الأفراد.

ونقلت روايات كثيرة في تفسير هذه الآية الشريفة في المصادر المعروفة لأهل السنّة بواسطة عدّة رواة عن شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله تنص على أنّ هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد قلنا مراراً بأنّ نزول الآية في أحد الأفراد، يراد منه بأنّ ذلك الشخص هو المصداق الأتم لتلك الآية، ولا يتنافى مع شمولية معنى الآية.

ونتوجه هنا نحو المنابع الإسلامية متناولين جوانب من هذه الروايات بالبحث والدراسة:

في «شواهد التنزيل» ينقل روايات متعددة عن «البراء بن عازب»، و «أبو رافع»، و «جابر بن عبد الله الأنصاري»، و «ابن عباس»، و «أبو سعيد الخدري»، و «محمد بن الحنفية»، و بطرق متعددة على أنّ هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام بأنّ جعل الله محبته في قلب كل مؤمن.

وجاء في حديث عن أبي سعيد الخدري أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام «يا أبا

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٢

الحسن! قل اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودة» (١).

فنزلت الآية الكريمة: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا»، ثم أردف قائلاً: «لا تلقى مؤمناً إلأى قلبه حبّ لعلي بن أبي طالب» (٢).

ويلاحظ هذا المعنى في حديث آخر عن «جابر بن عبد الله الأنصاري» باختلاف قليل جداً (٣).

ونقل هذا المضمون أيضاً عن «البراء بن عازب» عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله (٤).

وكذلك نقل هذا المعنى عن «محمد بن الحنفية» (بعده طرق) مع هذا الفارق أنّه في هذه الروايات وردت محبة ذرية وأهل بيت علي عليه السلام إلى جانب محبته (٥).

وقد وردت في هذا الكتاب عشرون رواية تقريباً وكلها تتناول هذا المعنى بطرق متعددة.

ونقل «السيوطي» هذا الحديث أيضاً في «الدر المنثور» بطرقه المختلفة عن «البراء بن عازب»، وعن «ابن عباس» (٦).

ونقل «الزمخشري» في تفسير «الكشاف» هذه الرواية في نهاية الآية الشريفة أنّ الرسول صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام:

«يا علي قل اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودة فأنزل الله هذه الآية» (٧).

وأورد المفسر المعروف «القرطبي» عين هذا المضمون في تفسيره، ولم يشكل عليه أيضاً مثل الكشاف (٨).

(١) هذا التعبير إشارة للآية ٨٧ من هذه السورة التي تقول حول مسألة الشفاعة أنّهم لا يملكون الشفاعة إلأمن اتخذ عند الرحمن عهداً.

- (٢) شواهد التنزيل، ج ١ ص ٣٦٥، ح ٥٠٤.
- (٣) المصدر السابق.
- (٤) المصدر السابق، ص ٣٥٩، ح ٤٨٩ و ٤٩٠.
- (٥) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٣٦٦ و ٣٦٧ الأحاديث ٥٠٥ و ٥٠٦ و ٥٠٧ و ٥٠٨ و ٥٠٩.
- (٦) تفسير در المنثور، ج ٤، ص ٢٨٧.
- (٧) تفسير الكشاف، ج ٣، ص ٤٧.
- (٨) تفسير القرطبي، ج ٦ ص ٤٢٠ (ذيل آية مورد البحث).
- نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٣
- ومن الشخصيات المعروفة التي نقلت هذا الحديث في نهاية الآية «سبط ابن الجوزي» في «التذكرة» (١)، و «محب الدين الطبري» (٢)، و «ابن الصباغ المالكي» في «الفصول المهمة»، (٣) و «الهيثمي» في «الصواعق» (٤)، و «ابن صبان» في «اسعاف الراغبين» (٥)، وقد وردت اسماؤهم في الكتب المبسوطة حول الإمامة والولاية.
- والمفسر الوحيد الذي اتخذ موقفاً سلبياً ازاء هذا الحديث بين المفسرين المعروفين «هو الالوسي» في «روح المعاني»، حيث إنه ينقل الحديث طبقاً لما هو معمول به ثم يسعى إلى التقليل من شأنه أو اهماله بالكامل.
- إنه وبعد أن ينقل الحديث عن «البراء بن عازب» ويؤيده مع حديث «محمد بن الحنفية» يقول: «المعيار في تفسير الآية عموم اللفظ دون خصوص سبب النزول» (٦).
- قلنا مراراً ونعود فنقول مرة أخرى لا يدعى أحد أن سبب النزول يحدد المفهوم الشامل للآيات، بل إن سبب النزول هو الاتم والاكمل للآية.
- وبتعبير آخر: إن ما جاء في هذه الروايات بشأن علي عليه السلام على أن الله تعالى جعل محبته في قلوب المؤمنين جميعاً، لم يأت بشأن أي فرد آخر من امة محمد صلى الله عليه وآله، وهذه فضيلة كبرى لأمر المؤمنين على عليه السلام حيث لا يجاريه احد في هذه الفضيلة.
- يا ترى أليس من جعل الله تعالى قلوب المؤمنين جميعاً تطفح بمودته ومحبته، أجدر من الجميع لمنصب الإمامة الإلهي، وخلافة الرسول صلى الله عليه وآله؟

(١) التذكرة، ص ٢٠.

(٢) ذخائر اعقبي، ص ٨٩.

(٣) الفصول المهمة، ص ١٠٦.

(٤) الصواعق المحرقة، ص ١٧٠.

(٥) اسعاف الراغبين المدون في حاشية نور الابصار، ص ١١٨.

(٦) تفسير روح المعاني، ج ١٦، ص ١٣٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٥

٢١- آية المنافقين

«وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلاَ تَعْرِفْتُهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ». (محمد / ٣٠)

تعدُّ هذه الآية- في الحقيقة- نقطهً مقابل شيء ما ورد في الآية السابقة.

فقد نزلت هذه الآية بشأن المنافقين وصفاتهم، يقول تعالى ولو نشاء لأريناكم بل ونضع العلامات في وجوههم لتعرفهم بها. ثم يضيف بعد ذلك: ولتعرفنهم أيضاً في طريقة حديثهم، لاسيما وأنه كلما ورد الحديث عن الجهاد، تراهم يسعون للتوصل واضعاف معنويات الناس، وعندما يدور الحديث عن الصالحين والظاهرين والسابقين في الإسلام، يسعون لخدش سمعتهم ومكانتهم. ومن هنا حيث نقرأ في حديث مشهور عن «أبي سعيد الخدرى» أنه يقوله في تفسير جملة «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ»: «ببغضهم على بن أبى طالب!» نقل هذا الحديث «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» من ثلاثة طرق «١». ونقل «السيوطى» أيضاً في تفسير «الدر المنثور» هذا الحديث عن «ابن مردويه» و «ابن عساكر» عن «أبي سعيد الخدرى» «٢». وينقل في رواية أخرى عن «ابن مسعود» أنه كان يقول: «ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ببغضهم على بن أبى طالب عليه السلام» «٣».

ولا يقتصر رواة هذا الحديث والكتب التي نقل فيها على ما ذكره فقط، ذلك أن «جابر بن

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١٧٨ (ح ٨٨٣ إلى ٨٨٥).

(٢) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٦٦.

(٣) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٦

عبد الله الأنصارى»، و «أبوذر الغفارى» نقلوا هذا الحديث أيضاً.

ومنهم أن «ابن عبد البر» ينقل هذا الحديث عن جابر في «الاستيعاب» «١»، وأن «محب الدين الطبرى» ينقل عن «أبو ذر» في «الرياض النضرة» بهذا النحو: «ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا بثلاث: بتكذيبهم الله ورسوله والتخلف عن الصلاة وبغضهم على بن أبى طالب» عليه السلام «٢».

ونقل هذا الحديث أيضاً في «صحيح الترمذى» وهو من المصادر الرئيسة لدى أهل السنة من طريقتين عن «أبي سعيد الخدرى» و «أم سلمة»، وهناك فارق بسيط في حديث «أم سلمة» عن الحديث السابق «٣».

ونقل ابن عساكر أيضاً في تاريخ دمشق، نفس هذا المضمون أو نظيره مرة عن «أبي سعيد الخدرى»، ومرة عن «جابر بن عبد الله»، واخرى عن «عبادة بن الصامت»، ومرة عن «محبوب بن أبى الزناد» «٤».

جاء في حديث «عبادة بن الصامت» أنه قال «كنا نبور أولادنا بحب على بن أبى طالب عليه السلام، فاذا رأينا أحداً لا يحب على بن أبى طالب علمنا أنه ليس منا، وأنه لغير رُشده»، وفي حديث «محبوب بن أبى الزناد»، أنه ورد على لسان طائفة من الأنصار قولهم: «إن كنا نعرف الرجل إلى غير أبيه ببغضه على بن أبى طالب عليه السلام» «٥».

ونتهى حديثنا بنقل هذه الرواية التي تمتاز بسعة مفهومها وشموليتها مع حديث منقول عن شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

تحدث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يوم خيبر بحديث مفصل بشأن على عليه السلام، ومن جملة ما قاله:

«يا أيها الناس امتحنوا أولادكم بحبه، فإن علياً لا يدعو إلى ضلاله ولا يبعد عن هدى فمن

(١) الاستيعاب، ج ٢، ص ٤٦٤.

(٢) الرياض النضرة، ص ٢١٤.

(٣) صحيح الترمذى، ج ٥، ص ٦٣٥، ح ٣٧١٧.

(٤) تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٢، ص ٢٨٧.

(٥) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٧

أحبه فهو منكم ومن أبغضه فليس منكم! (١).

يتضح لنا بشكل جلي أن الإنسان عندما يتأمل بشكل دقيق في هذه الروايات والرواية السابقة المذكورة في نهاية الآيتين الشريفتين من القرآن بانه يواجه شخصيه يعد حبه ومودته علامة الإيمان، ومخالفته ومعاداته علامة الكفر والنفاق، هذا في الوقت الذي تمكنت فيه هذه الروايات أن تمر عبر الممرات الزمنية السابقة، حيث قامت الحكومات السابقة مثل حكومة بنى امية بمضايقة ومحاصرة أصحاب ومحبى على عليه السلام باشد ما يكون، وحيث كان أعداؤه يمسكون زمام الامور في كل مكان، بل وحتى أن سب ولعن على في المجالس العامة كان ممّا يتقرب به للحكومة ومراكز السلطة، حقاً أن الإنسان ليتعجب من أن كل هذه الفضائل الفريدة والنادرة التي ملأت الآفاق شرقاً وغرباً، وملأت صفحات كتب الرواية والتفسير والتاريخ، كيف تمكنت أن تفلت من قبضة هؤلاء الأعداء الألداء وتصل اليوم إلى أيدينا.

لا- يمكن أن ننظر إلى هذا الأمر سوى أنه من مشيئة الله وامداده من أجل بقاء نور الحق مضيئاً على مر القرون والأعصار، ولإتمام الحجة في خلافة وولاية على عليه السلام على جميع الاجيال.

(١) مختصر تاريخ ابن عساکر، ج ١٧، ص ٣٧١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٩

٢٢- آية الإيذاء

«أَنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا».

(الأحزاب / ٥٧)

من البديهي أنه ليس بوسع احد أن يلحق الاذى والضرر بالذات المقدسة لله تعالى وبناءً على ذلك فإن المراد من ايذاء الله- كما أكد على ذلك المفسرون أيضاً- أن الكفر والالحاد هما اللذان يغضبان الله تعالى وقد أكدت الآية على معاقبة الذين يؤذون الرسول والمؤمنين، ذلك أن ايذائهم يعد بمنزلة ايذاء الله تعالى

ونقرأ هنا في الروايات المتعددة التي وصلت عن طرق الاخوة من أهل السنّة، وعن طرق أهل البيت عليهم السلام أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «ياعلى! من آذاك فقد آذاني»، وعلى هذا النحو فإن ايذائه يعد ايذاءً للرسول صلى الله عليه وآله. ينقل «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» عن «جابر بن عبد الله الأنصاري» أنه قال: سمعت من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله و آله، أنه قال لعلي «من آذاك فقد آذاني» (١).

وينقل في حديث آخر عن «ابن أبي سلمة» عن أم سلمة زوج الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «أنت أخي وحيبي، من آذاك فقد آذاني» (٢).

ثم يضيف قائلاً: ونقل نفس هذا المعنى عن طائفة اخرى مثل «عمر»، و «سعد بن أبي وقاص»، و «أبو هريرة»، و «ابن عباس»، و «أبو سعيد الخدري» (٣).

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٨٩ ح ٧٧٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٨، ح ٧٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٩.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٠

ونقل في حديث آخر عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال وقد أشار إلى شعره ومسكه بيده: حدثني رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أشار إلى شعره وقبض عليه بيده ثم قال: «من آذى شعره منك فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فعليه لعنة الله» (١).

إن الأحاديث التي ذكرت تشير فقط إلى أن إيذاء علي عليه السلام يعد إيذاءً للرسول صلى الله عليه وآله، إلا أنه لم يستند فيها إلى الآية السابقة، بينما ورد هذا الاستناد بشكل صريح في بعض الروايات، منها ما قاله الحاكم النيسابوري في «مستدرک الصحيحين» في حديث صحيح معتبر عن «ابن عباس» أنه قال: إن رجلاً من أهل الشام سب علياً عليه السلام أمامه، فقال ابن عباس: «ياعدو الله آذيت رسول الله صلى الله عليه وآله «انَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً» لو كان رسول الله صلى الله عليه وآله حياً لآذيته» (٢).

ونقل «الذهبي» هذا الحديث أيضاً في «تلخيص المستدرک» ويصرح أنه حديث صحيح (٣).

ونقل السيوطي في «الدر المنثور» رواية ابن عباس واستناده إلى الآية الشريفة السابقة أيضاً (٤).

وينقل أيضاً في كتاب «مستدرک الصحيحين» عن «عمرو بن شاس» حديثاً مفصلاً جاء في آخره: «يقول عمرو بن شاس الاسلمى وكان من أصحاب الحديبية قال: خرجنا مع علي عليه السلام إلى اليمن فجفاني في سفره ذلك حتى وجدت في نفسي، فلما قدمت اظهرت شكايته في المسجد حتى بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله قال: فدخلت المسجد ذات غداة، ورسول الله صلى الله عليه وآله في ناس من أصحابه فلما رأني أبدني عينيه، قال: يقول حدد إلي النظر حتى إذا جلست قال: يا عمرو أما والله لقد آذيتني، فقلت: أعود بالله أن أؤذيك يا رسول الله، قال: بلى من آذى علياً فقد آذاني».

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٩٧، ح ٧٧٦.

(٢) مستدرک الصحيحين، ج ٣، ص ١٢١.

(٣) تلخيص المستدرک المطبوع نهاية مستدرک الصحيحين، ج ٣، ص ١٢٢.

(٤) تفسير در المنثور، ج ٥، ص ٢٢٠.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨١

ويقول الحاكم النيسابوري بعد ذكره هذا الحديث: إنه حديث صحيح معتبر (١).

تجدد الإشارة إلى أن: مؤلف «مختصر تاريخ دمشق» أورد هذا الحديث في كتابه مع عدّة أحاديث أخرى عن «جابر»، و«سعد بن أبي وقاص»، و«عمرو بن شاس»، وكلها تجمع على أن إيذاء علي عليه السلام يعد إيذاءً للرسول صلى الله عليه وآله (٢).

إن هذه الأحاديث «متظافرة» وكثيرة، وأن الكثير منها يعدّ من الأحاديث التي قال بصحة سندها علماء أهل السنة، وهي تدل بشكل واضح على أن علياً عليه السلام هو نفس الرسول صلى الله عليه وآله، ومودته مودة للرسول صلى الله عليه وآله ومحبه محبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وايدأؤه ايذاء لرسول الله صلى الله عليه وآله.

وبناءً على ما تقدم، هل من شك في أن علياً عليه السلام أفضل الامية بعد رسول الله، وأنه أليق فرد في الامية لتولي منصب الإمامة والولاية وخلافه رسول الله صلى الله عليه وآله؟

(١) مستدرک الصحیحین، ج ٣، ص ١٢٢، وقد ورد هذا ورد هذا الحديث نصاً في تلخیص الذهبی.

(٢) مختصر تاریخ دمشق، ج ١٧، ص ٣٤٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٣

٢٣- آية الانفاق

«الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». (البقرة/ ٢٧٤)

لاشك أن مفهوم الآية مفهوم عام وشامل، إذ إن الترخيب بالانفاق في سبيل الله يتخذ اشكالاً مختلفاً، في السر والعلن وفي الليل والنهار، وتبشر المنفقين بشاره عظيمه: «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» مما قد سلف أو مما هو آت، ولكن يستفاد من الروايات الإسلامية أن مصداق هذه الآية الأكمل هو على عليه السلام.

لاسيما أنه وردت روايات كثيرة في سبب نزول هذه الآية، تؤكد على أنها نزلت أول مرة في حق على عليه السلام. يقول ابن عباس: نزلت هذه الآية في على بن أبي طالب عليه السلام وكانت عنده أربعة دراهم فقط، أنفقهن في سبيل الله، درهماً في الليل، ودرهماً في النهار، ودرهماً في العن، ودرهماً في السر، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله «ما حملك على هذا؟ قال: حملني عليها رجاء أن استوجب على الله ما وعدني».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا ذلك لك»، فنزلت الآية السابقة في هذه الأثناء.

أورد هذا الحديث «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» مع سبعة أحاديث أخرى بنفس هذا المضمون بطرق مختلفة «١». وينقل «السيوطي» هذا المضمون نفسه في «الدر المنثور» بطرق متعددة منها: عن ابن عباس، أن هذه الآية نزلت في على بن أبي طالب عليه السلام وعنده أربعة دراهم، انفق منها درهماً

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٠٩-١١٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٤

في الليل، ودرهماً في النهار، ودرهماً في السر ودرهماً في العن، ونزلت هذه الآية «١».

معنى هذا الحديث أن علياً عليه السلام كان يسلك مختلف السبل من أجل الحصول على رضا الله تعالى فقد انفق كل ما تحت بساطه في سبيل الله، وكذلك فإنه اعطى ليلاً وانفق في حالتين مختلفتين سرّاً وعلناً، وفي النهار أيضاً انفق في كلا الحالتين سرّاً وعلانية، إن هذا الإيثار والإخلاص المقرون بالشوق العظيم لكسب رضا الله تعالى وبكل وسيلة ممكنة، نال قبول الله تعالى فنزلت تلك الآية الشريفة.

ومن الذين نقلوا هذه الرواية، «محب الدين الطبري» في «ذخائر العقبى» «٢»، و«سبط ابن الجوزي» في «التذكرة» «٣»، و«العلامة الكنجي» في «كفاية الطالب» «٤»، والمفسر المعروف «القرطبي» في تفسيره «٥»، وأورد هذا الحديث - بنفس تلك العبارة أو باختلاف بسيط - جمع آخر في كتبهم.

وكذلك ذكره «الشبلنجي» في «نور الأبصار» «٦»، و«الشيخ سليمان القندوزي» في «ينابيع المودة» «٧».

وينقل مؤلف «الفضائل الخمسة» هذا الحديث أيضاً في كتابه عن جمع آخر منهم «ابن الاثير» في «اسد الغابة» «٨»، و«ابن حجر» في «الصواعق المحرقة» «٩»، و«الواحدي» في «أسباب النزول» «١٠».

ونختم هذه الأحاديث بجملة عن ابن أبي الحديد المعتزلي: إنه وبعد الإشارة إلى

- (١) تفسير در المنثور، ج ١، ص ٣٦٣.
 - (٢) ذخائر العقبى ص ٨٨.
 - (٣) تذكرة الخواص، ص ١٧.
 - (٤) كفاية الطالب، ص ١٠٨.
 - (٥) تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١١١٥، (ذيل الآية مورد البحث).
 - (٦) نور الابصار، ص ١٠٥.
 - (٧) ينابيع المودة، ص ٩٢.
 - (٨) اسد الغابة، ج ٤، ص ٢٥.
 - (٩) الصواعق المحرقة، ص ٧٨.
 - (١٠) أسباب النزول، ص ٦٤ (استناداً لنقل الفضائل الخمسة)، ج ١، ص ٣٢١ و ٣٢٢.
- نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٥

الصفات السامية لعلى عليه السلام، وعندما يصل إلى مسألة الجود والسخاء يقول بعد الإشارة لآيات سورة هل أتى: وروى المفسرون أنه لم يملك إلا أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سرّاً، وبدرهم علانية، فأنزل فيه «الذين ينفقون أموالهم...» (١).

يبين هذا التعبير أن هذه المسألة متفق عليها بين المفسرين أو على الأقل مشهورة.

- (١) شرح ابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢١ (أورده ضمن مقدمته في وصف المولى على عليه السلام).
- نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٧

٢٤- آية المحبة

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». (المائدة/ ٥٤)

تصرح هذه الآية بوضوح: بأن ارتداد المسلمين الداخلين تَوّاً إلى الإسلام لا يشكل ضرراً عليه، فإن الله تعالى قد أوكل أمر الدفاع عن هذا الدين المقدس إلى طائفة من المؤمنين ذوى الخصال المتميزة، من الذين يحبون الله ويحبهم.

والذين يمتازون بالتواضع والتخضع أمام المؤمنين، وبالشدة والشجاعة أمام الكافرين، الذين يحاربون ويجاهدون دون كلل في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم أبداً.

أجل، إن اجتماع هذه الصفات في فرد أو مجموعة من الأفراد، يعد فضلاً إلهياً لا يليق بكائن من كان. ولا شك في أن مفهوم هذه الآية واسع وشامل كما هو الحال في كثير من الآيات السابقة، ولكن يستفاد من الروايات المنقولة عن طرق الشيعة والسنة وبشكل واضح أن علياً عليه السلام أفضل واكمل مصداق لهذه الآية.

وعندما يصل الفخر الرازى إلى تفسير هذه الآية، وينقل اقوالاً عن المفسرين حول تطبيق هذه الآية، يقول في نهاية البحث: قال جمع إن هذه الآية نزلت في علي عليه السلام، ثم يستدل بدليلين لدعم هذا القول، أولاً عندما اعطى الرسول صلى الله عليه وآله وآله الراية بيد علي عليه السلام يوم خيبر، قال «لأدفعن الراية غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». نفحات القرآن، ج ٩،

ثم يقول: وهي عين الصفة التي اشير إليها في الآية الآنفه، والدليل الآخر أن الآية التالية لها هي آية: «أَنَّمَا وَكَّيَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...» إذ نزلت بحق علي عليه السلام لذا من الأجدر القول أن الآية السابقة هي الاخرى نزلت بحقه أيضاً (نهاية كلام الفخر الرازي) «١».

إن استدلال الفخر الرازي بكلام الرسول صلى الله عليه وآله يوم فتح خيبر إشارة إلى حديث معروف نقل في الكثير من الكتب المشهورة على أنه قيل بحق علي عليه السلام، ويعد من أعظم فضائله عليه السلام، سيما وأنه طبقاً لهذا الحديث، وبعد أن فشل نفر من قادة جيش الإسلام في فتح خيبر، فإن الرسول صلى الله عليه وآله وقف في ليل ذلك اليوم وسط الجيش وخاطبهم قائلاً: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كراراً غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يده!».

ثم قال: اين علي؟ قالوا: إنه مريض، وعينه تؤلمه (ولا يقوى على الحرب) فقال: عليّ به، فجاء علي ونفخ الرسول صلى الله عليه وآله في عينه (أو مسح من ريق فمه على عينه) فبرأت عينه المباركة، فأعطاه الراية، وفي اليوم التالي فتح خيبر في هجوم خاطف (فتحقق هذا النبوء العجيب للرسول صلى الله عليه وآله بشأنه).

وقد أورد هذا الحديث - إضافةً للفخر الرازي - كثير من المحدثين والمؤرخين (باختلاف بسيط في التعابير) في كتبهم، ومنهم الحاكم النيسابوري في كتاب مستدرک الصحيحين: وقد أشار إليه في ثلاثة مواضع: أولاً نقل في حديث عن «ابن عباس» أن جماعة تحدثوا عنده بألفاظ غير مناسبة بشأن علي عليه السلام فانزعج بشدة وقال: «اف وتف، وقعوا في رجل له بضع عشرة فضائل ليس لأحد غيره وقعوا في رجل قال له النبي صلى الله عليه وآله لأبعثن رجلاً لا يخزيه الله أبداً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» «٢».

وينقل في حديث آخر عن «عامر بن سعد بن أبي وقاص» أن معاوية قال لأبي «سعد» ذات يوم: ما يمنعك أن تسب ابن أبي طالب؟ فقال: لا أسبه ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله صلى الله عليه وآله لأن تكون لي واحدة منهن احب الي من حمر النعم، قال معاوية: وما هن؟ قال: «حين أنزل

(١) التفسير الكبير، ج ١٢، ص ٢٠.

(٢) المستدرک، ج ٣، ص ١٣٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٩

عليه «أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» فأخذ علياً وفاطمة وابنيها فدخلهم تحت ثوبه وقال: «رب إن هؤلاء أهل بيتي»، ولا أسبه ما ذكرت حين خلفه في غزوة تبوك، فقال له: خلفتني مع الصبيان والنساء، قال: «إلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدى»، ولا أسبه ما ذكرت يوم خيبر، وقال: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويفتح الله على يديه» فتناولنا لرسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أين علي، قالوا: هو أرمد، قال: ادعوه، فدعوه فبصق في وجهه ثم أعطاه الراية ففتح الله عليه، قال: فلا والله ما ذكره معاوية بحرف حتى خرج من المدينة «١».

وينقل في الحديث الثالث عن «عبد الله بن بريده الأسلمي» أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال الجملة التالية في خيبر ... ثم ينقل القصة مع بعض الإضافات علاوة على ما ذكر آنفاً «٢».

ومن الذين صرحوا بأن الآية السابقة نزلت بحق علي عليه السلام، «الثعلبي» في تفسيره (استناداً إلى ما ورد في مناقب عبد الله الشافعي) إذ يقول في نهاية الآية السابقة: «إنها نزلت في علي عليه السلام» «٣».

ويصرح العلامة «الثعلبي» في نهاية هذه الآية أيضاً (بناءً على نقل ابن بطريق في كتاب العمدة): «إنها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام» «٤».

وينقل ذلك أيضاً مؤلف «كنز العمال» في كتابه عن «سعد بن أبي وقاص»، وفي حديث آخر عن «عامر بن سعد» أورد نفس هذا المعنى مع بعض الإضافات «٥».

إنّ هذه الأحاديث وما يشابهها التي وردت في الكتب المعروفة للسنة واتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام تحكى عن فضيلة لا مثيل لها على قول سعد بن أبي وقاص، التي إن وجدت في أحد الأفراد تكفيه فخراً وفضلاً.

(١) تلخيص المستدرک المطبوع في حاشية المستدرک، ج ٣، ص ١٠٨ و ١٠٩.

(٢) المستدرک، ج ٣، ص ٤٣٧.

(٣) المناقب، ص ١٦٠ مخطوطة (بناءً على نقل احقاق الحق، ج ١٤، ص ٢٤٨).

(٤) العمدة، ص ١٥١، (طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ٣ ص ١٩٨).

(٥) كنز العمال، ج ١٣، ص ١٦٢ و ١٦٣ (الحديث رقم ٣٦٤٩٥ و ٣٦٤٩٦) (طبع مؤسسة الرسالة- بيروت).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٠

وبوجود مثل هذه الشخصية وسط الامة، هل يجدر بنا أن نتصور أنه بالإمكان تسليم خلافة الرسول صلى الله عليه وآله لغير شخصه؟! ولهذه الملاحظة أيضاً أهميته بالغه في تأكيد مفهوم آية المودة، أنه يستفاد من الروايات الواردة في الكتب المعروفة والمشهورة أن علياً عليه السلام لم يحظ برعاية الرسول صلى الله عليه وآله ولطف الله تعالى به فحسب، بل إنه كان أحبّ المخلوقات عند الله ورسوله أيضاً.

والشاهد على هذا الكلام حديث «الطير» المعروف.

نقرأ في كتاب «المستدرک على الصحيحين» إن «أنساً» خادم الرسول صلى الله عليه وآله مرض بعد أن عمّر طويلاً بعد النبي صلى الله عليه وآله فأتاه محمد بن الحجاج يعوده في أصحاب له، فجرى الحديث حتى ذكروا علياً عليه السلام فتقصه محمد بن الحجاج، فقال أنس: من هذا أقعدوني فأقعدوه، فقال: يا ابن الحجاج، إللأراك تنقص علي بن أبي طالب، والذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالحق، لقد كنت خادم رسول الله صلى الله عليه وآله بين يديه وكان كل يوم يخدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله غلام من أبناء الأنصار، فكان ذلك اليوم يومى، فجاءت ام أيمن مولاة رسول الله صلى الله عليه وآله بطير فوضعت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا ام أيمن ما هذا الطائر؟ قالت: هذا طائر أصبته فصنعته لك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللهم جئني بأحبّ خلقك إليك وإلى يأكل معى من هذا الطائر»، وضرب الباب، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أنس انظر من على الباب، قلت: اللهم اجعله رجلاً من الأنصار، فذهبت فإذا على الباب، قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله على حاجة فجئت حتى قمت مقامى فلم ألبث أن ضرب الباب، فقال: يا أنس انظر من على الباب، قلت: اللهم اجعله رجلاً من الأنصار فذهبت فإذا على الباب، قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله على حاجة فجئت حتى قمت مقامى فلم ألبث أن ضرب الباب، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أنس اذهب فأدخله فلست بأول رجل أحبّ قومه ليس هو من الأنصار فذهبت فأدخلته، فقال: يا أنس قرب إليه الطير، قال: فوضعت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله و آله فأكلا جميعاً، قال محمد بن

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩١

الحجاج: يا أنس كان هذا بمحضر منك؟ قال: نعم، قال: اعطى بالله عهداً أن لا انتقص علياً بعد مقامى هذا ولا أعلم أحد ينتقصه إللأشنت له وجهه «١».

وأورد «الذهبي» هذا الحديث أيضاً في «تلخيص المستدرک» المطبوع في حاشية «المستدرک».

وإضافة لما قلناه، فإنّ الحديث المعروف ب «حديث الطير» في مختلف المصادر الإسلامية، ورد في كتب كثيرة، بحيث إنّ العلامة الأمينى رحمه الله يقول بشأنه: حديث الطير حديث متواتر وصحيح سلم أئمة الحديث بتواتره وصحته.

وأورد هذا الحديث «موفق بن أحمد» وهو فقيه، ومحدث كبير، وخطيب فذ، وأديب، وشاعر في كتاب المناقب «٢».

والأهم من ذلك أن المحدث المعروف «الترمذى» ينقل في كتابه المشهور باسم «صحيح الترمذى» عن «أنس بن مالك» أنه كان بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله طيراً، فقال: «اللهم أنتنى بأحب خلقك إليك يأكل معى هذا الطير فجاء على فأكل معى» (٣).
يقول العلامة الكنجى الشافعى فى «كفاية الطالب» بعد نقله هذا الحديث: «وفيه دلالة واضحة على أن علياً عليه السلام أحب الخلق إلى الله وأدل الدلالة على ذلك اجابة دعاء النبى صلى الله عليه وآله فيما دعا به، وقد وعد الله تعالى من دعاه بالاجابة حيث قال: «ادعونى استجب لكم» فأمر بالدعاء ووعد بالاجابة، وهو عز وجل لا يخلف الميعاد، وما كان الله عز وجل ليخلف وعده رسله ولا يرد دعاء رسوله لأحب الخلق إليه ومن أقرب الوسائل إلى الله تعالى محبته ومحبة من يحبه لحبه» (٤).
وينقل «العلامة النسائى» - وهو من علماء القرن الثالث الهجرى - هذا الحديث أيضاً مع

(١) المستدرک على الصحيحين، ج ٣، ص ١٣١.

(٢) المناقب، ص ٦٧.

(٣) صحيح الترمذى، ج ١٣، ص ١٧٠.

(٤) كفاية الطالب، ص ٥٩، (طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ٥، ص ٣١٩).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٢

بعض الإضافات فى كتابه المعروف «الخصائص» (١).

ومن العلماء الآخرين الذين نقلوا هذا الحديث فى كتبهم: «سبط ابن الجوزى» فى «التذكرة»، و «ابن الأثير» فى «اسد الغابة»، و «ابن مسعود الشافعى» فى «مصايح السنة»، و «محب الدين الطبرى» فى «ذخائر العقبى»، و «الشيخ سليمان البلخى القندوزى» فى «ينابيع المودة»، وطائفة اخرى غيرهم لو أردنا ذكر أسمائهم وشرح كلماتهم لطلال بنا المقام.
ومن الملاحظات التى قد تثير الدهشة لدى البعض أن ابن الأثير فى «اسد الغابة» عندما ينقل حديث الطير بعده طرق، يقول فى احدى طرق الحديث المنقول عن أنس بن مالك: إن النبى صلى الله عليه وآله كان عنده طائر فقال اللهم أنتنى بأحب خلقك إليك يأكل معى من هذا الطائر فجاء أبو بكر فرده، ثم جاء عثمان، فرده (وفى رواية اخرى نقلها النسائى فى الخصائص ورد اسم عمر بدل عثمان) فجاء على فأذن له.

يقول «ابن الأثير» فى نهاية هذا الحديث أن ذكر أسماء «أبو بكر وعثمان» فى هذا الحديث غريب جداً (٢).

والأعجب من ذلك أن بعض المحدثين من السنة إذ أرادوا المرور بهذه الفضيلة الفريدة مروا مستطرقين وأغمضوا أعينهم عن الحقائق، ولجأوا إلى التشكيك فى سند هذا الحديث، مثل ابن كثير الدمشقى كاتب «البداية والنهاية» إذ يقول بعد ذكر هذا الحديث: «وفى القلب من صحة هذا الحديث نظر وإن كثرت طرقة» (٣).

بينما نجد أن هذا الحديث المتواتر الذى ورد فى الكثير من المصادر المعروفة بشكل واسع، لا غبار عليه من حيث السند والدلالة سوى أنه لا ينسجم مع الأحكام المسبقة للبعض، وللمرحوم العلامة الأمينى جملة لطيفة بعد ذكر هذه العبارة إذ يقول: «باجتماع

(١) الخصائص، ص ٥.

(٢) اسد الغابة، ج ٤، ص ٣٠.

(٣) البداية والنهاية، ص ٣٥٣.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٣

جميع شروط الصحة فى هذا الحديث إن كان شك ما فى القلب تجاه هذا الحديث أيضاً، فالإشكال يكمن فى ذلك القلب وليس فى

الحديث».

٢٥- آية المسؤولين

نقرأ في قوله تعالى بشأن الظالمين: إِنَّ الْخَطَابَ يَأْتِي إِلَى مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ: «وَقَفُّهُمْ أَنَّهُمْ مَسْئُولُونَ». (الصفات / ٢٤) وهناك أخذ ورد بين المفسرين فيما سيسألون عنه، قال بعضهم: عن البدع التي ابتدعوها، وقال بعضهم الآخر: عن أعمالهم السيئة وعن خطاياهم، وأضاف بعضهم: عن التوحيد: «ولا إله إلا الله» (١).

ولا مانع من اجتماعهن جميعاً في مفهوم الآية.

إلا أنه ورد في العديد من الروايات أن المراد هو السؤال عن «ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام».

وقد وردت هذه الروايات في المصادر الإسلامية المعروفة.

ومنها في «شواهد التنزيل»، إذ ينقل بطريقين عن أبي سعيد الخدرى، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال في تفسير هذه الآية: «عن ولاية علي بن أبي طالب» (٢).

وينقل في حديث آخر عن «سعيد بن جبیر»، عن «ابن عباس» أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «إذا كان يوم القيامة أوقف أنا وعلى على الصراط فما يمر بنا أحد إلا سألناه عن ولاية علي، فمن كانت معه، وإلما ألقيناه في النار! وذلك قوله وقفوهم إنهم مسؤولون» (٣).

ونقل «الحاكم الحسكاني» هذا الحديث أيضاً في الكتاب المذكور، عن طرق أخرى

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٤٤١ (نهاية الآية التي نحن بصدددها).

(٢) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١٠٦-١٠٧، ح ٧٨٦ و ٧٨٧.

(٣) المصدر السابق، ح ٧٨٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٤

ونقل «ابن حجر» أيضاً في كتاب «الصواعق» هذا الحديث عن «أبي سعيد الخدرى» عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله (١).

وممن نقل هذا الحديث «أحمد بن حنبل» (أحد الأئمة الأربعة للسنة) في كتاب المسند عن أبي سعيد الخدرى: «إنه يسأل في يوم القيامة عن ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام».

ونقل هذا الحديث أيضاً كل من: «عز الدين الحنبلى» في «كشف الغم» (٢)، و«الأوسى» في تفسيره (٣)، و«سبط ابن الجوزى» في

«التذكرة» (٤)، و«أبو نعيم الاصفهاني» في «كفاية الخصام» (٥)، و«الشيخ سليمان القندوزى» في «ينابيع المودة» (٦)، وجمع آخر لو

أردنا ذكر اسمائهم وكتبهم لطال بنا المقام.

والطريف أنه- في بعض هذه الروايات- وردت «ولاية أهل البيت» إضافة لولاية علي عليه السلام (٧).

كما أن هذه الملاحظة جديرة بالاهتمام أيضاً وهي أن جميع الروايات الآنفه الذكر نقلت عن المصادر المعروفة والكتب المشهورة

للسنة، والرواة المقبولين، ولكن مع ذلك فإن «الأوسى» عندما ينقل هذه الرواية يقول: «روى بعض الإمامية عن ابن جبیر عن ابن

عباس يسألون عن ولاية علي»، و«كذلك نقل الإمامية هذه الرواية عن أبي سعيد الخدرى» (٨).

ويضيف من عنده ولاية سائر الخلفاء بكل تعجب!

إن هذا المفسر المتعصب يتصور أن كل حديث بشأن فضائل علي عليه السلام لابد وأن يكون

- (١) الصواعق، ص ٨٩.
 - (٢) كشف الغمة، ص ٩٢.
 - (٣) تفسير روح المعاني، نهاية الآية التي نحن بصدددها.
 - (٤) التذكرة، ص ٢١.
 - (٥) كفاية الخصام، ص ٣٦١.
 - (٦) ينابيع المودة، ص ٢٥٧.
 - (٧) على في الكتاب والسنة، ج ١ ص ٢٢٩.
 - (٨) تفسير روح المعاني، ج ٢٣، ص ٧٤.
- نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٥

رواته من الإمامية والشيعة حتماً، وكأن أحكامه الطائفية المسبقة لا تسمح له التصديق بأن هذه الأحاديث منقولة بهذا الشكل الواسع في المصادر المعروفة للسنة، وكأنه لا يصدق أيضاً بأن الاجيال اللاحقة سيقروا على كلماته، ويشكلون عليه، أن رواه هذا الحديث ليسوا من الإمامية فحسب، بل إنهم غالباً من علماء السنة.

وعلى أية حال فإن مفهوم هذه الأحاديث وكذلك الآية الآنف لا يعنى أنه في يوم القيامة يسأل عن ولاية «علي بن أبي طالب» فقط، ذلك أن يوم القيامة هو يوم السؤال عن جميع الأعمال، والنعم، وجميع أنواع المسؤوليات، بل المراد أن احدي أهم الامور التي يسأل عنها هي ولاية هذا الإمام المعصوم، وبلا أدنى شك فإن الولاية هنا ليست بمعنى نوع من المحبة العادية والدارجة التي لا بد وأن يتحلى بها كل مؤمن تجاه الآخرين، ذلك أن هذا الأمر يعد أحد الفروع العادية للدين، بل إن المراد شيء أبعد من هذه المسألة ويعد من أهم أركان الإسلام واسبس الدين.

فهل يمكن أن يكون هذا الموضوع شيئاً آخر غير مقام القيادة والخلافة الإلهية بعد رسول الإسلام صلى الله عليه وآله؟! نعم، على بن أبي طالب عليه السلام هو ذلك الشخص الذي تعد ولايته من أهم أركان الإسلام وشروط الإيمان، وعلى رأس تسلسل الامور التي يسأل عنها في يوم القيامة.

وكيف لا يكون كذلك، وقد ملأت فضائله ومفاخره جميع كتب الحديث، وتتألأت شخصيته الرفيعة في آيات القرآن المجيد، بالرغم من كل المواقف العدائية التي اتخذها أعداؤه معه، وكتبوا فضائله (ولايزالون يكتمونها لحد الآن أيضاً)، وبالرغم من أن أصحابه واتباعه اضطروا إلى اخفاء فضائله أيضاً خوفاً من بطش الأعداء!

ونختم هذا الكلام بنقل حديث معروف عن ابن عباس ورد في الكثير من المصادر الإسلامية إذ يقول: ما نزل في القرآن «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلا على سيدها وشريفها وأميرها، وما أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله إلا لقد عاتبه الله في القرآن، ما خلا على بن أبي طالب فإنه لم يعاتبه بشيء، وما نزل في أحد من كتاب الله ما نزل في علي ... نزلت في علي ثلاثمائة آية! «١».

(١) مختصر تاريخ دمشق، ج ١٨، ص ١١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٦

ونقل هذا الحديث - أو قسمه الأول - عن طائفة اخرى كثيرة أيضاً، مثل الحافظ «أبو نعيم الاصفهاني» في «حلية الأولياء»، و «محب الدين الطبري» في «ذخائر العقبى»، و «العلامة الكنجي الشافعي» في «كفاية الطالب»، و «سبط ابن الجوزي» في «التذكرة»، و «الشبلنجي» في «نور الأبصار»، و «الهيثمي» في «الصواعق»، و «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»، و «القندوزي» في «ينابيع المودة» «١».

كانت هذه طائفة من الآيات التي نزلت بشأن علي عليه السلام في القرآن، إذ عمدنا إلى اختيار هذا العدد منها.

(١) للمزيد من الاطلاع على هذه المصادر يرجى مراجعة احقاق الحق، ج ٣، ص ٤٧٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٧

الأئمة الاثنى عشر

إشارة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٩

الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام

تمهيد:

إشارة

بالرغم من أن المذهب الشيعي لا ينحصر ب «الإمامية الاثنى عشرية»، بل يضم الشعب والفرق الاخرى مثل «الزيدية» الذين يعتقدون بأربعة من الأئمة فقط، و «الاسماعيلية» الذين يعتقدون «بسبعة أئمة» وغيرهم من الفرق، إلّا أنه وبلا أدنى شك يعد الشيعة الاثنى عشرية أشهر تلك الفرق قاطبة، إذ يشكلون جزءاً مهماً من المسلمين في سائر انحاء العالم، ويشكلون في بعض الدول كإيران والعراق والبحرين الأكثرية القاطبة من السكان، وفي البعض الآخر يشكلون نسبة كبيرة من السكان كما هو الحال في أغلب البلدان الإسلامية. إن للشيعة الاثنى عشرية مراكز علمية هامة، تضم عشرات الآلاف من العلماء والطلاب المنهمكين في التحقيق والتدريس وتعلم العلوم الإسلامية.

وقد تمّ تأليف وطبع ونشر عشرات الآلاف من الكتب العلمية حول العقائد الإسلامية، والفقه، والاصول، والتفسير، والحديث، والفلسفة، والرجال، والدراية، والتاريخ الإسلامي من قبل علماء الشيعة.

وقد ذكر المرحوم المحقق الجليل «الشيخ آقا بزرك الطهراني» في كتابه «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» والذي تمّ طبعه مؤخراً في ٢٦ مجلداً، أسماء عشرات الآلاف من كتب علماء الشيعة مع ذكر مؤلفيها مع شرح وجيز عن كل منهم، مما يوضح بشكل جلي حجم الخدمات الجليلة التي قدمها العلماء الشيعة للعلوم الإسلامية، وكيف أنّهم خلفوا وراءهم تصانيف ثمينه جداً في جميع الفنون الإسلامية والعلوم الإنسانية مخلدة ذكراهم.

ويجدر بالذين لا يدركون هذه الحقائق أن يقوموا بزيارة المراكز العلمية للشيعة في

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٠

مختلف مناطق العالم، ليرى الطلاب والفضلاء وعلماء الشيعة الذين يمتازون بالمهارة الفائقة في العلوم الإسلامية المختلفة عن كتب، ويطلعوا على مكتباتهم المملوءة بالكتب العلمية لهؤلاء العلماء، وكذلك بالكتب العلمية للعلماء السنة.

ويلاحظوا عن قرب، الفقهاء، والمتكلمين، ومفسرى القرآن، والكتاب اللامعين، والخطباء، والكم الهائل من حفظة القرآن الكريم. ولكن مما يؤسف له أن الرقابة الشديدة المفروضة على الكثير من المحافل الخيرية الإسلامية والحاكمة كذلك على أغلب المكتبات المعروفة للدول الإسلامية، لم تسمح لحد الآن بأن يقوم المحققون المحايدون للسنة من التعرف بشكل واضح على اتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام والعلماء وآثارهم العلمية.

ونجد هنا أن المكتبات مليئة بكتب علماء السنة إلى جانب كتب علماء الشيعة دون ملاحظة أدنى فرق بينهم من حيث الحضور في

المكتبات، ولا يشعر أى منهم أيضاً بأدنى خطر من هذه الناحية على مذهبه، إلا أن مكتبات الاخوة السنة لها شكل آخر غالباً، ولا يلاحظ فيها أى أثر لعشرات الآلاف من المؤلفات العلمية المعروفة للشيعة، أو أنها تقتصر على مقدار قليل منها فقط!.

وعلى أية حال نأمل أن يأتى اليوم الذى يتمكن فيه المحققون وبيحايد تام، أن يدققوا ويبحثوا فيما قلناه آنفاً، ويعرفوا المجتمع الشيعى الإمامى كما هم عليه- وليس كما يقوله اعداؤهم، أو كما تحاول أن تصوره الأبواق الاستعمارية عنهم- وبقينا سيشهد ذلك اليوم وقائع جديدة فى العالم الإسلامى مع اتباع هذا المذهب، وسينعم العالم الإسلامى بتفاهم وانسجام أفضل.

ولكى لا- نتعد عن أصل الموضوع، تلاحظ فى الآيات القرآنية، إشارات لأئمة أهل البيت المعصومين عليهم السلام تزداد جلاءً ووضوحاً بمساعدة الروايات الواردة فى المصادر الإسلامية المعروفة بشأن تفسير هذه الآيات.

وهذه الآيات متعددة، ونشير فى النهاية إلى بعض منها فقط، وتمت الإشارة إلى مجموعته

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠١

منها فى بداية البحث فى موضوع ولاية وإمامة على عليه السلام، ومنها:

١- آية «أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ»، (الاحزاب / ٣٣)

بشهادة محتواها، وكذلك الروايات الواردة فى شرحها وتفسيرها عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فى المصادر الإسلامية المعروفة، أن مفهومها عام أى أنها تشمل بالإضافة لعلى عليه السلام سائر الأئمة المعصومين، وخاصة الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام اللذين صُرح باسميهما فى هذه الروايات.

٢- آية «قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ اجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى . (الشورى ٢٣)

تشير أيضاً وبنحو الإجمال لجميع الأئمة المعصومين عليهم السلام، وقد صرح فى روايات متعددة منقولاً عن سعيد بن جبيرة وابن عباس عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أن المراد من «القربى فى هذه الآية، على عليه السلام وفاطمة عليها السلام وذريتهما، وصرح فى البعض الآخر باسم الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام أيضاً.

ولغرض المزيد من التوضيح يرجى مراجعة «شواهد التنزيل» وسائر المصادر التى ذكرناها أثناء شرح هذه الآية «١».

٣- آية «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»، (النساء / ٥٩)

وهذه الآية هى الاخرى كسابقتها، لاسيما أن لهذه الآية مفهوماً عاماً يشمل كل زمان، وبناء على ذلك لا بد من وجود مصداق من «اولى الأمر» فى كل عصر وزمان، يكون فرداً معصوماً، وطاهراً من الذنوب (لأن الطاعة المطلقة الخالية من كل قيد وشرط غير مشروعته سوى للمعصومين خاصة).

إضافة إلى ذلك ففى بعض الروايات المعروفة الواردة فى مصادر أهل السنة صرح باسم الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام.

٤- آية «كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ»، (التوبة / ١١٩)

هى الاخرى بنفس المفهوم الذى شرحناه سابقاً، إذ لها مفهوم عام شامل لكل عصر

(١) أوردت روايات بطرق مختلفة فى هذا المجال فى شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١٣٠-١٣٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٢

وزمان، وهى دليل على أنه يوجد فى كل عصر وزمان صادق معصوم (ذلك أن المؤازرة والتبعية المطلقة دون قيد أو شرط ليس لها مفهوم سوى للمعصومين فقط)، وإضافة إلى ذلك فإن بعض الروايات الواردة فى شرح هذه الآية، تفسر الصادقين بأنهم محمد وأهل بيته عليهم السلام «١».

وبما أن هذه الآيات والروايات المتعلقة بها، ذكرناها فى هذه المباحث بشكل مفصل لذا نحجم عن تكرارها مرة أخرى وننتقل إلى

آيات الفضيلة.

ونؤكد مرة أخرى على أن آيات الفضيلة لا تطرح باعتبار أنها الآيات التي لها دلالة مباشرة على إمامة وولاية أئمة أهل البيت عليهم السلام، بل الهدف من ذلك هو أن يتضح بشكل جلي أن كل واحد منهم كان أفضل أفراد عصره، وبما أنه لا بد من وجود أولى الأمر والإمام المعصوم في كل عصر وزمان طبقاً لمفهوم الآيات السابقة، فإنهم مصداق هذا المعنى

١- آية الصلوات والتحية

نفحات القرآن ج ٩ ص ٣٤٦

نقرأ في قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا». (الأحزاب / ٥٦) لقد تم تجسيد مقام نبي الإسلام صلى الله عليه وآله في هذه الآية بأفضل وجه، ذلك أن الله تعالى وملائكته المقربين يصلون على النبي صلى الله عليه وآله، وكذلك صدور الأمر لجميع المؤمنين أن يصلوا ويسلموا عليه بدون استثناء.

أى مقام اسمى من هذا المقام؟ وأى عظمة فوق هذه العظمة؟

صحيح أنه لم يرد في هذه الآية، كلام عن آل الرسول صلى الله عليه وآله إلا أننا نقرأ في الكثير من الروايات أن أصحابه وانصاره عندما سألوه: كيف نصلى ونسلم عليك، فقد جعل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله «الآل» إلى جانب الصلاة عليه، وجميع الرحمة والسلام اللذين يطلبان من الله

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٦٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٣

تعالى فهما له، وآله أيضاً، وهذه قرينه على أن الصلوات والتحية من الله والملائكة تتسم بالتعميم أيضاً، فهي تشمل الرسول صلى الله عليه وآله وآله وهذه ليست مسألة بسيطة، بل إنها توضح أن لهم مقامات تالية لمقام الرسول صلى الله عليه وآله، وتكليف شبيه بتكليفه من بعض الجهات، وإلا فإن هذا المقام الشامخ لا يمكن أن يكون لهم بسبب القرابة فقط. ونتقل الآن إلى طائفة من هذه الروايات الواردة في أشهر مصادر السنة:

١- نقل في «صحيح البخارى» عن أبى سعيد الخدرى قلنا: يارسول الله صلى الله عليه وآله السلام عليك معلوم، كيف نصلى عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم» (١).

وينقل هذا الحديث في نفس الكتاب والصفحة بنحو اكمل عن «كعب بن عجرة» أحد الصحابة المعروفين أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: عرفنا كيفية السلام عليك، ولكن كيف يجب أن تكون الصلوات عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم انك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» (٢).

تجدد الإشارة إلى أن البخارى يذكر هذه الأحاديث في نهاية الآية الشريفة: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ...».

٢- نقل في «صحيح مسلم» وهو ثانى مصدر معروف للحديث عند الاخوة السنة عن «أبى مسعود الأنصارى» أن الرسول صلى الله عليه وآله دخل علينا ونحن فى مجلس سعد بن عبادة، فقال بشير بن سعد: يارسول الله! لقد امرنا الله بأن نصلى عليك فكيف نصلى عليك؟ فسكت الرسول أولاً، ثم قال: «قولوا اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على آل إبراهيم، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد» (٣).

(١) صحيح البخارى ج ٦، ص ١٥١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) صحيح مسلم، ج ١ ص ٣٠٥، ح ٦٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٤

٣- وفى تفسير «الدر المنثور» وهو اشهر تفسير روائى ينقل نفس رواية «أبو سعيد الخدرى» عن «البخارى» و «النسائى» و «ابن ماجه» و «ابن مردويه» عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله «١».

ونقل فى نفس الكتاب عبارة «أبو مسعود الأنصارى» عن «الترمذى» و «النسائى» و «ابن مردويه» «٢».

وينقل عين هذا المضمون أيضاً بفارق قليل عن «مالك» و «أحمد» و «البخارى» و «مسلم» و «أبو داود» و «النسائى» و «ابن ماجه» و «ابن مردويه» عن «أبي أحمد الساعدى» «٣».

وينقل الحاكم النيسابورى فى المستدرک على الصحيحين عن ابن أبى لیلی أن «كعب بن عجرة» صادفنى وقال: أترید أن اعطیک هدیة سمعتها من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله؟! قلت: بلى اهدنى! قال: سألتنا رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف نصلی علیکم أهل البيت؟ قال قولوا: «اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

ثم يقول الحاكم النيسابورى وقد عزم على ذكر أحاديث غير مذكورة فى صحيحى البخارى ومسلم: نقل البخارى هذا الحديث فى كتابه عن «موسى بن إسماعيل» بنفس هذا السند والألفاظ، والسبب فى ذكرى إياه ثانية هنا يعود للإشارة إلى أن «أهل البيت» و «الآل» أمر واحد، وتجدر الإشارة إلى أن الحاكم نقل هذا الحديث بعد حديث «الكساء» الذى اشير فيه وبشكل صريح أن أهل بيتى على وفاطمة والحسن والحسين «٤»، وهذا تعبير عميق المعنى

(١) تفسير در المنثور، ج ٥ ص ٢١٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المستدرک على الصحيحين، ج ٣، ص ١٤٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٥

وبعد ذلك ينقل «الحاكم» حديث الثقلين، وبعده حديث «أبو هريرة» أن الرسول صلى الله عليه وآله نظر إلى على والحسن والحسين وقال: «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم» «١».

ونقل محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره نهاية هذه الآية الرواية أعلاه مع اختلاف بسيط عن «موسى بن طلحة» عن أبيه، ويروى برواية اخرى نفس الحديث عن ابن عباس، وفى رواية ثالثة عن «زياد» عن «إبراهيم»، وفى رواية رابعة عن «عبد الرحمن بن بشر بن مسعود الأنصارى» «٢».

ونقل البيهقى أيضاً فى كتابه المعروف «السنن» روايات متعددة بهذا الصدد حيث إن بعضها يوضح تكليف المسلمين فى الصلاة وأثناء التشهد، ومنها فى حديث عن «أبي مسعود وعقبة بن عمرو»، ينقل أن رجلاً جاء وجلس بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله وكنا جلوساً عنده، فقال: يا رسول الله إنا نعرف كيفية السلام عليك، ولكن كيف نصلى عليك أثناء الصلاة؟

فسكت الرسول صلى الله عليه وآله حتى قلنا: ليت الرجل لم يسأل مثل هذا السؤال، ثم قال: «إذا أنتم صليتم على فقولوا اللهم صل

على محمد النبي الامى وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد النبي الامى وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

ثم ينقل عن «أبي عبد الله الشافعي» أنه حديث صحيح بشأن الصلوات على النبي صلى الله عليه وآله في الصلوة «٣». وأورد البيهقي أحاديث متعددة أخرى بصدد كيفية الصلاة على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بشكل مطلق أو في الصلاة خاصة في حديث عن «كعب بن عجرة» عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ينقل أنه كان يقول في الصلاة: «اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد» «٤».

(١) المستدرک على الصحيحین ج ٣، ص ١٤٩.

(٢) تفسير جامع البيان، ج ٢٢ ص ٣٢.

(٣) سنن البيهقي ج ٢ ص ١٤٦ و ١٤٧.

(٤) سنن البيهقي ج ٢ ص ١٤٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٦

يتضح من هذا الحديث أنه حتى الرسول صلى الله عليه وآله كان يذكر هذه الصلوات في صلواته.

يقول البيهقي في نهاية إحدى الروايات التي لم يرد الحديث فيها عن الصلاة: - هذه الروايات ناظرة إلى حال الصلاة لأن جملة «قد علمنا كيف نسلم» هي إشارة إلى السلام في التشهد (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) لذا فإن المراد من الصلوات هي الصلوات في حال التشهد «١».

وعلى هذا الأساس فإن المسلمين مأمورون بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وآله في التشهد أيضاً كما هم مأمورون حسب اعتقاد جميع الفرق الإسلامية بالسلام على الرسول صلى الله عليه وآله في التشهد بلفظ: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله».

وبالرغم من أنه يلاحظ هنا اختلاف بسيط بين المذاهب الأربعة للسنة، إذ إن الشافعيين والحنبلين يقولون: الصلاة على الرسول صلى الله عليه وآله في التشهد الثاني واجبة، في الوقت الذي يقول المالكيون والحنفيون: إنها سنة «٢»، إلا أنه وطبقاً للروايات الآتية فإنها واجبة على الجميع.

وعلى أية حال فإن الكتب التي نقلت فيها الروايات المرتبطة بالصلوات على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله (سواء بشكل مطلق أو في خصوص التشهد في الصلاة) أكثر مما أوضحناه في هذا الموجز، وما ذكر هنا كان بمثابة نموذج من هذه الروايات والكتب، وقد نقل هذه الروايات مجموعة من الصحابة أمثال ابن عباس، وطلحة، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وأبو مسعود الأنصاري، وبريدة، وابن مسعود، وكعب بن عجرة، وشخص على صلى الله عليه وآله.

الملاحظة المحيرة جداً أن علماء السنة بالرغم من كل هذه التأكيدات الواردة في روايات الرسول صلى الله عليه وآله بشأن إضافة آل محمد تراهم دائماً (باستثناء بعض الموارد النادرة) يحذفون «آل محمد» ويقولون صلى الله عليه وسلم!.

(١) سنن البيهقي ج ٢ ص ١٤٧.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة، ج ١، ص ٢٦٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٧

والأعجب من ذلك أنه في كتب الحديث، وحتى في الأبواب التي تنقل فيها الروايات الآتية بشأن إضافة «آل محمد صلى الله عليه وآله» والأعجب من ذلك أنه في كتب الحديث، وحتى في الأبواب التي تنقل فيها الروايات الآتية بشأن إضافة «آل محمد صلى الله عليه وآله»

آله» فإنهم عندما يذكرون اسم الرسول صلى الله عليه وآله في طيات هذه الأحاديث يقولون: «صلى الله عليه وسلم!» (بدون إضافة الآل) ولا ندري ما عذرهم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه المخالفة الصريحة لأوامره وتوجيهاته؟ فمثلاً يكتب البيهقي في عنوان هذا الباب «باب الصلوة على النبي صلى الله عليه وسلم في التشهد!» وكذا الحال في البعض الآخر من مصادر الحديث المعروفة.

إن اختيار هذا العنوان سواء كان من قبل مؤلفي هذه الكتب أو من قبل المحققين التاليين لهم، ومع الأخذ بنظر الاعتبار ماورد في نهايته عجيب ومتناقض جداً.

ونتهي هذا الموضوع بذكر حديثين آخرين:

١- ينقل ابن حجر في الصواعق هكذا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا تصلوا على الصلاة البتراء، قالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون اللهم صل على محمد وتمسكون، بل قولوا: اللهم صل على محمد وآل محمد» (١).

يوضح هذا الحديث أنه حتى كلمة «على يجب أن لا- تفصل بين محمد، وآل محمد ويجب القول: «اللهم صل على محمد وآل محمد».

٢- ينقل السهمودي في الاشراف على فضل الاشراف عن ابن مسعود الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من صلى صلاة لم يصل فيها على وعلى أهل بيتي لم تقبل» (٢).

وعلى ما يبدو أن الإمام الشافعي في شعره المعروف، أخذ بنظر الاعتبار هذه الرواية يقول:

يا أهل بيت رسول الله جبكم فرض من الله في القرآن انزلهُ

كفاكم من عظيم القدر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له (٣)

يا ترى أن الذين يمتلكون مثل هذا المقام الذي يجب ذكر أسمائهم إلى جانب اسم

(١) الصواعق، ١٤٤.

(٢) السهمودي في الاشراف، ص ٢٨ طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ١٨، ص ٣١٠.

(٣) في كتاب الغدير النفيس ورد أن انتساب هذه الايات هي للإمام الشافعي عن شرح المواهب للزرقاني ج ٧، ص ٧ وجمع آخر. نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٨

النبي صلى الله عليه وآله في الصلوة كواجب وفريضة إلهية، هل يمكن مساواتهم مع الآخرين.

وهل يبقى مكان لغيرهم للتصدي لمسألة الولاية والإمامة وخلافة النبي صلى الله عليه وآله بوجودهم؟ وأي منصفٍ بوسعه أن يربح الآخرين عليهم- مع حيازتهم على كل هذه الفضائل والمقام الشامخ-؟ ألا توضح كل هذه الأدلة مسألة الولاية والخلافة بشكل مباشر؟ لكم أن تحكموا بأنفسكم.

٢- آية النور والبيوت

نقرأ في الآيات التي تأتي بعد آية: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، ما يلي: «فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ أَنْ تَرْفَعُوا فِيهَا اسْمَهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصِيَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَأَقَامِ الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةَ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ». (النور/ ٣٥-٣٨)

بعد أن بين الله تعالى في الآية ٣٥ من هذه السورة، النور الإلهي بمثال دقيق وظيف ولطيف، ينتقل إلى مكان هذا النور في الآيات

التالية.

تأملوا جيداً فى التعابير الآنفه الذكر، ولاحظوا ما لهذه البيوت الإلهية وحراسها من مكانة وعظمة، حسب الوصف والتجسيد الوارد فى هذه الآيات، ثم تأملوا الروايات الواردة ادناه:

ينقل السيوطى فى تفسير الدر المنثور عن «أنس بن مالك»، و «بريدة» (وهما من صحابة الرسول صلى الله عليه و آله) أنه عندما تلا رسول الله صلى الله عليه و آله هذه الآية، قام رجلٌ، وقال: «أى بيوت هذه يارسول الله!». قال الرسول صلى الله عليه و آله: «يُوتُ الأنبياء!».

فقام «أبو بكر» وقال: «هذا البيت منها ليئتُ على و فاطمة؟!». نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٩
قال: «نعم من أفضلها» (١).

ونقل «الحاكم الحسكاني» شبيه هذا المعنى فى «شواهد التنزيل» عن «أبو برزة» (رجلٌ آخر من الصحابة) عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، دون أن يذكر شخصاً معيناً، بل هكذا: «قيل: يارسول الله أبيت على و فاطمة منها؟ قال: من أفضلها» (٢).

وبعد ذكر هذه الرواية، ينقل الرواية السابقة أيضاً بطريقتين عن «أنس بن مالك» و «بريدة» (٣).

ومن الملفت للنظر أن «الآلوسى» فى «روح المعانى» وبالرغم من ذكره لجميع فضائل أهل البيت عليه السلام دون رغبة منه إلما أنه يضيف هنا بعد أن ينقل الرواية الاولى عن «أنس بن مالك» و «بريدة»: «هذا إن صيخ لا ينبغي العُدول عنه» (٤). (وبعارة اخرى إنه أفضل كلام فى تفسير الآية إذ إن المراد بذلك بيوت الأنبياء وأفضلها بيت على و فاطمة). وأورد جمع آخر من كبار علماء السنه هذه الرواية فى كتبهم أيضاً.

ويقينا فإن هذه الروايات، تشمل علياً عليه السلام و فاطمة عليها السلام وولديهما الحسن والحسين عليهما السلام وكذا أولاد فاطمة عليها السلام من نسل الحسين عليه السلام أى الأئمة المعصومين فإنهم مشمولون بهذه الآية أيضاً، ذلك أنهم يواصلون نفس الطريق ونفس النهج.

نعم، إن بيوتهم كبيوت الأنبياء، بل من أفضلها، إنه بيت يتلأأ منه نور الله دائماً، ولا تصل إليه يدُ الشيطان، ويقينا فإن الساكنين فى هذا البيت هم من أفضل البشر، وهم كالأنبياء فى الفضل والفضيلة.

٣- الصراط المستقيم

فى الآية السادسة من سورة الحمد التى نقرأها ليل نهار فى الصلوة نسأل الله تعالى

(١) تفسير در المنثور، ج ٥، ص ٥٠.

(٢) شواهد التنزيل، ج ١ ص ٥٣٢، ح ٥٦٦.

(٣) المصدر السابق، ح ٥٦٧ و ٥٦٨.

(٤) تفسير روح المعانى، ج ١٨، ص ١٥٧ نهاية الآية التى نحن بصددھا.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٠

ونقول: «اهدنا الصراط المستقيم».

الصراط الذى يوصلنا إليك وإلى ما يرضيك، صراطاً غير صراط الذين غضبت عليهم ولا الضالين.

اللهم اهدنا أيضاً إلى هذا الصراط، وثبتنا عليه.

بلا شك أن مفهوم «الصراط المستقيم» مفهوم واسع جداً ولذا فسره البعض على أنه بمعنى «الإسلام»، والبعض الآخر فسّره على أنه «القرآن»، وبعض على أنه «الرسول صلى الله عليه وآله وائمة الحق» وبعض آخر بمعنى «دين الله»، وبعض آخر بمعنى طريق واسلوب أنبياء الله، إذ إن كلاً من هذه التفسيرات بوسعها أن يشكّل جزء من مفهوم الآية الواسع.

ولكن في العديد من الروايات التي نقلت عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بطرق مختلفة، وُضِعَ الاصبع على واحدة من أبرز مصاديق هذه الآية، ذلك أن الصراط المستقيم فُسِّرَ بمعنى صراط وطريق علي بن أبي طالب عليه السلام أو محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله.

ينقل «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» عن «جابر بن عبد الله الأنصاري» عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «إن الله جعل علياً وزوجته وابناءه حُجَجَ الله على خلقه وهم أبواب العلم في امتي، من اهتدى بهم هُدي إلى صراط مستقيم» (١). وينقل في حديث آخر عن «ابن عباس» عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «أنت الطريق الواضح وأنت الصراط المستقيم وأنت يعسوب المؤمنين!» (٢). وينقل أيضاً في حديث ثالث عن «ابن عباس» أنه كان يقول في تفسير «اهدنا الصراط المستقيم»: «قولوا - معاشر العباد - اهدنا إلى حُبِّ النبي واهل بيته!» (٣).

وينقل في الحديث الرابع عن «أبو بريدة» في نهاية هذه الآية أنه قال: المراد بالصراط محمد وآله» (٤).

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٧٦، ح ٨٩.

(٢) المصدر السابق، ح ٨٨.

(٣) المصدر السابق، ح ٨٧.

(٤) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٧٤، ح ٨٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١١

وقد أورد «العلامة الثعلبي» هذا الحديث في تفسيره أيضاً (١).

ونقله أيضاً «الشيخ عبيد الله الحنفي» في كتاب «ارجح المطالب» عن «أبو هريرة» (٢).

وينقل في الحديث الخامس الوارد في «شواهد التنزيل» عن «عبد الرحمن بن زيد» عن أبيه أنه قال في تفسير آية: «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»: هو النبي ومن معه وعلي بن أبي طالب وشيعته» (٣).

وقد وردت روايات متعددة بهذا الشأن أيضاً في مصادر الشيعة واتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، ومنها أنه ورد في رواية عن الإمام الصادق صلى الله عليه وآله في تفسير الآية: «صراط الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» أنه قال: «يعني محمداً وذريته عليهم السلام» (٤). وبناءً على ذلك فإن أبرز وأوضح مصاديق الصراط المستقيم هو صراط النبي وعلي عليه السلام وأولاده المعصومين من نسل فاطمة الزهراء عليها السلام، من اهتدى بهم وسار على نهجهم، هُدى إلى صراط مستقيم يقربه إلى الله تعالى ويبعده عن الضلالة والانحراف.

٤- وسيلة قبول توبة آدم عليه السلام

جاء في قوله تعالى أن آدم عليه السلام بعد «ترك الأولى تلقى» كلمات من ربه، وتاب بهن، وقبل الله توبته ذلك أن الله تواب رحيم وهو قوله تعالى «فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». (البقرة/ ٣٧)

فما هي هذه الكلمات التي أوحاها الله تعالى لآدم كي يتوب بهن؟ هناك جدال بين المفسرين، إذ يرى البعض منهم أن ذلك يعد إشارة لما جاء في الآية: «قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا

(١) تفسير الثعلبي بناءً على نقل كفاية الخصام، ص ٣٤٥.

(٢) أرجح المطالب، ص ٨٥.

(٣) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٨٥ ح ١٠٥.

(٤) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٣، ح ١١٠١ (للمزيد من الاطلاع على هذه الأحاديث يرجى مراجعه تفسير نور الثقلين والبرهان).

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٢

وَأَنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَزَحْمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ». (الأعراف/ ٢٣)

ويرى البعض الآخر أن ذلك إشارة للأدعية الأخرى ومنها دعاء يونس أثناء مكثه في بطن الحوت، أى جملة: «سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ».

ولكن جاء في الروايات المتعددة التي نقلت عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أو عن الصحابة، أن تلك الكلمات كانت القسم على الله بحق محمدٍ وعليٍّ وفاطمةٍ والحسن والحسين عليهم السلام.

ينقل السيوطي في «الدر المنثور» في نهاية هذه الآية عن «ابن عباس» إني سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، قال: «سأل بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلتأبت علي، فتاب عليه» (١).

وينقل أيضاً في ذلك الكتاب عن علي عليه السلام إني سألت الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عن تفسير هذه الآية، قال: ... أمر الله آدم أن قل: «اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد، سبحانك لا إله إلا أنت عملت سوءً وظلمت نفسي فأغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم، اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد سبحانك لا إله إلا أنت عملت سوءً وظلمت نفسي فتاب علي إنك أنت التواب الرحيم فهؤلاء الكلمات التي تلقى آدم» (٢).

يُعلم جيداً من هذه الروايات أنه لا منافاة بين هذه التفاسير الثلاثة، وكل هذه الكلمات كانت مجموعة في دعاء آدم عليه السلام. ونقل «ابن المغازلي» في مناقبه نفس هذا المعنى عن «سعيد بن جبير» عن «ابن عباس» أنه سأل الرسول صلى الله عليه وآله بشأن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، فقال الرسول صلى الله عليه وآله:

«سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا ما تُبَّت علي فتاب عليه» (٣).

ونقل «العلامة القندوزي» هذا الحديث أيضاً في «ينابيع المودة»، والبيهقي في «دلائل النبوة»، و«البدخشي» في «مفتاح التَّجَاح»، و«عبد الله الشافعي» في «المناقب» (٤).

(١) تفسير در المنثور، ج ١، ص ٦٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مناقب ابن المغازلي، طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ٩ ص ١٠٢.

(٤) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٣

وبالرغم من أن الكثير من الكتب، انتهت سند هذا الحديث ب «ابن عباس»، إلا أن الرواية لا ينحصر ب «ابن عباس»، ذلك أنه ينقل نفس هذا المعنى في «الدر المنثور» عن الديلمى في «مسند الفردوس» بسندٍ ينتهي ب علي عليه السلام، أن علياً عليه السلام يقول: سألت من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن هذه الآية إلى أن يقول: «فعليك بهؤلاء الكلمات فإن الله قابل توبتك وغافر ذنبك. قل: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد سبحانك لا إله إلا أنت عملت سوءً وظلمت نفسي فتاب علي إنك أنت التواب»

الرحيم» (١).

ونقل هذا المعنى فى مصادر أهل البيت عليهم السلام ومصادر السنّة عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً، ورواياته متعددة وطرقه متنوعه (٢).

لا ينبغي النظر إلى هذا الحديث على أنه فضيلة عابرة، والمرور به مروراً عابراً، إذ إن آدم عليه السلام عندما يريد أن يتوب من تركه الأولى (وهذا أول ترك للأولى يؤمر من قبل الله أن يسأله بحق محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله، أو بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، كى يقبل توبته.

لاسيما وأن هذا المعنى لم يرد بشأن أحد سواهم، وهو مقام رفيع مختص بهم، وهذا دليل العظمة الفائقة للخمسة الطيبة وللرسول وأهل بيته والأئمة المعصومين عليهم السلام.

وعلى هذا كيف يمكن القول بوجود من هو أفضل وأليق منهم لخلافه وولاية الرسول صلى الله عليه وآله، وكيف يمكن ترجيح سواهم عليهم؟

وبالرغم من وجود مثل هذه الأسانيد، أمّن العجب - ياترى أن تبقى الإمامة فى نسل الرسول صلى الله عليه وآله إلى يوم القيامة؟!

٥- أفضل الحسنات

إشارة

«مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ». (النمل / ٨٩)

(١) تفسير در المنثور، ج ١، ص ٦٠ (مع الاختصار).

(٢) تفسير البرهان، ج ١، ص ٨٦؛ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٧ فما فوق؛ بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٣١٩ فما فوق.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٤

للحسنة هنا، مفهوم واسع بأنها تشمل جميع الحسنات، وتبشر من يأتى بحسنة، فله خير منها، وأحد آثارها المهمة الأمان من خوف وفزع يوم المحشر وهو أعظم الفزع.

ولكن ورد فى بعض الروايات «إنّ محبّة أهل بيت النبى صلى الله عليه وآله تعتبر واحدة من أهم وأبرز مصاديق الحسنة فى هذه الآيه، وتبين أنّ هذه المحبّة تعد من أفضل وسائل الأمان فى يوم المعاد».

ونقلت عدّة روايات فى «شواهد التنزيل» فى نهاية هذه الآيه بهذا المعنى أنّ المراد من «الحسنة» فى الآيه أعلاه محبّة أهل البيت عليهم السلام.

ومنها أنّه يُنقل عن «أبى عبد الله الجدلى» عن عليّ عليه السلام أنّه قال له: «ألا أخبرك بقول الله تعالى «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا» - إلى قوله - تعملون؟ قال: بلى جعلت فداك.

قال: «الحسنة حبنا أهل البيت والسيئة بغضنا»، ثم قرأ الآيه» (١).

ونقل نفس هذا المعنى فى الحديثين ٥٨٢، و ٥٨٧ مع هذا الفارق أنّه جاء فى نهاية الحديث الثالث: «ألا أخبرك بالسيئة التى من جاء بها أكبّه الله على وجهه فى نار جهنم، بُغضنا أهل البيت! ثم تلا أمير المؤمنين عليه السلام الآيه الثانية وقال: «وَمَنْ جَاءَ بِالسِّيئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ» (٢). (النمل / ٩٠)

ويُنقل فى حديث آخر عن «أبو امامة الباهلى» (٣) أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الله خلق الأنبياء من شجر شتى وخلقنى

وعلياً من شجرة واحدة فانا أصلها وعليّ فرعها، والحسن والحسين ثمارها، واشياعنا اوراقها، فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا، ومن زاعغ هوى ولوا أن عابداً عبد الله الف عام، ثم الف عام، ثم ألف عام ثم لم يدرك محبتنا كَبَهُ اللهُ على منخرته في النار! «٤».

(١) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٥٤٨، ح ٥٨١.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٥٢، ح ٥٨٧.

(٣) أبو امامة الباهلي كان من أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وذكروا أن وفاته كانت سنة ٨١، وهو آخر من توفي في الشام (اسد الغابة، في مادة صَدِيْقَة)، ولكن في كتاب الكنى والالقب ذكروا أن وفاته كانت سنة ٨٦ واسمه صَدِيْق على وزن رَجِيْل، وكان من جملة الذين جعل عليهم معاوية العيون لثلاثا يذهب إلى علي عليه السلام.

(٤) شواهد التنزيل، ج ١ ص ٥٥٣، ح ٥٨٨.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٥

وينقل العلامة القندوزي أيضاً مضمون الحديث الأول عن علي عليه السلام ويختم الحديث، أنه قال: «الحسنة حَبْنَا والسَيِّئَةُ بغضنا» «١». وينقل عن «ابن كثير» عن الإمام الصادق عليه السلام في ذلك الكتاب نفسه أنه قال (آية): «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ امْتَالِهَاتٍ»، قال: هي للمسلمين عامة واما الحسنة التي من جاء بها فله خير منها وهم من فرع يومئذ آمنون فهي ولايتنا وحبنا». وبالرغم من أن طائفة من المفسرين وأرباب الحديث لم يوردوا مودة أهل البيت عليهم السلام على أنها حسنة كبيرة في نهاية الآية التي نحن بصددنا، إلا أنهم نقلوا هذا المضمون لهذه الاحاديث في نهاية الآية: «وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا». (الشورى ٢٣) ومن جملة هؤلاء «السيوطي» إذ نقل في «الدر المنثور» عن «ابن أبي حاتم» عن «ابن عباس» أنه قال في تفسير هذه الآية: «المودَّةُ لآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» «٢».

ويقول «الآلوسي» في «روح المعاني» في نهاية هذه الآية ٢٣ من سورة الشورى بعد أن يقول: إن بعض المفسرين قالوا: المراد من «الحسنة» المودَّةُ لذوي قريبي رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول: هذا المعنى نقل عن «ابن عباس» و «السدي»، ثم يضيف قائلاً: محبة آل الرسول من أعظم الحسنات، وجاء عنوان «الحسنة» في صدر هذه الآية «٣».

وهناك أحاديث اخرى شبيهة بالأحاديث السابقة وردت في كتب اخرى لو أردنا ذكرها لطلال بنا المقام.

ونختم هذا البحث بحديث ورد بشأن محبة أهل البيت عليهم السلام (وإن لم يرد في نهاية الآية):

نقل «الشبلنجي» حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وآله، في كتاب «نور الأبصار» وصرح بأنه حديث صحيح، وقد ورد ضمن الحديث أن الرسول صلى الله عليه وآله قال: «والله لا يدخل قلب رجل، الإيمان

(١) ينابيع المودَّة، ص ٩٨.

(٢) تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٧.

(٣) تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ٣١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٦

حتى يحبَّهم (اهل بيتي) لِقْرَابَتِهِمْ مِنِّي «١».

وهذه الملاحظة أيضاً لها أهميتها، إذ إن المحبة العادية والمألوفة لا يسعها اطلاقاً أن تصبح وسيلة للنجاة من فرع يوم القيامة، أو أن تكون شرطاً من شروط الإيمان، إن هذه التعابير توضح بشكل جلي أن محبة أهل البيت إنما هي إشارة لمسألة الولاية والإمامة الهامة لبناء الدين، إذ تعد سبب بقاء الدين واستمرارية خط النبوة وحفظ الإيمان.

ومن مجموع ما ورد بنحو الإشارة في الآيات السابقة، وما ورد بشكل صريح في الروايات الواردة في تفسير تلك الآيات، تتضح لنا هذه المسألة، وهي: إن آل محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله خاصة على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام يحظون بمقام رفيع جداً وذلك لأنهم: أولئك الذين تعد محبتهم اجراً على الرسالة. من لم يصلّ ويسلم عليهم لا صلاة له. تعد منزلتهم بمثابة الصراط المستقيم. إن آدم عليه السلام ومن أجل الفكاك من غضب الله تعالى عليه بسبب «تركه الأولى أقسم بأسمائهم على الله تعالى وتاب لكي تقبل توبته!

وأخيراً فإن مودتهم حسنة تنقذ كل مؤمن من خوف وفزع يوم القيامة. نعم، إن الذين يتصفون بهذه الصفات الحميدة، ويحظون بهذا المقام الشامخ كما ورد في الروايات المعروفة للسنة والمصادر المشهورة لأهل البيت، لا يمكن أن يجاريهم الآخرون اطلاقاً، وبالنتيجة لا يمكن الذهاب لغيرهم مع وجودهم، وبقيناً فإن هذه المحبة والمودة تعد مقدمة لمسألة الولاية والقيادة والتي بدورها تعد استمراراً لخط قيادة الرسول صلى الله عليه وآله.

(١) نور الأبصار، ص ١٢٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٧

وكذلك الذين ذكروا في الروايات المتواترة لحديث الثقلين وأصبحوا إلى جوار القرآن الكريم يمثلون أحد الثقلين، واصبح الاثنان يمثلان وسيلتي النجاة من الضلال، تلك الوسيلتان اللتان ستبقيان قائمتين في الامية الإسلامية حتى قيام الساعة، ولا بد للمسلمين أن يلجأوا إليهما.

والذين عرفوا بأنهم سفينة النجاة، ونجوم الهداية الساطعة هم خير البرية وأفضل الناس، هذه الأوصاف التي وردت في أغلب المصادر المعروفة والمشهورة لكلا الفريقين.

نعم، إننا نعتقد بأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وتأكيده على الإشارات الواردة في آيات القرآن الكريم بهذا الشأن أتم الحجة بحديثه على جميع المسلمين، وبقى على المسلمين أن يختاروا سبيل نجاتهم بعيداً عن مشاعر التعصب والأحكام المسبقة، أي أن يلجأوا إلى آل محمد صلى الله عليه وآله ليصلوا من خلال هدايتهم وقيادتهم إلى السعادة وبر الأمان، والذين لا يعتنون بكل هذه الإشارات والتصريحات المستندة إلى هذا الكم من الوثائق المعتمدة أو يبررون ويؤولون ويفسرون بالرأى، عليهم أن يجيبوا عن أعمالهم هذه.

التصريح بأسماء أئمة أهل البيت عليهم السلام:

هذه الملاحظة جديرة أيضاً بأن تذكر وهي: إن في البعض من الروايات الواردة في مصادر السنة ذكرت أسماء الأئمة الاثني عشر بشكل كامل أيضاً، أي أنه بعد ذكر علي عليه السلام ورد اسم الإمام الحسن عليه السلام ثم الإمام الحسين عليه السلام ثم الإمام علي بن الحسين عليه السلام ثم الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام وبعده جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، ثم موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، ثم علي بن موسى الرضا عليه السلام، ثم محمد بن علي الجواد التقى عليه السلام، وبعده علي بن محمد الهادي النقي عليه السلام، ثم الحسن بن علي العسكري عليه السلام، ثم محمد بن الحسن المهدي عليه السلام!

ومن هؤلاء الذين ذكروهم «سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي» إذ نقل في كتاب «ينابيع المودة» حديثين بهذا الشأن:

الحديث الأول: ينقله عن «فرائد السمطين» بسندٍ ينتهي بابن عباس أن يهودياً جاء إلى

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٨

الرسول صلى الله عليه وآله وسأل أسئلة متعددة حول الإسلام والتعاليم الإسلامية، ومن جملة أسئلته أنه قال: أخبرني عن وصيكَ مَنْ هو؟ فما من نبي إلّاوله وصى، وأنّ نبينا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون، فقال صلى الله عليه وآله: إنّ وصيى على بن أبى طالب، وبعده سبطاى الحسن والحسين، تتلوه تسعة أئمة من صلب الحسين (١).

الحديث الثانى: وينقل فى حديث آخر عن «المناقب» عن جابر بن عبد الله الأنصارى قصّة مشابهة لهذه القصّة أيضاً، وردت فيها أسماء الأئمة الاثنا عشر واحداً بعد الآخر بشكل صريح، وقد أشرنا إلى كلا الحديتين بنحو الاختصار لطولهما (٢).

ويجب أن لا ننسى بأننا نقلنا روايات كثيرة فى السابق لها دلالة على الأئمة الاثنا عشر بنحو الإجمال، ومتى ما عاودتم الرجوع إلى ذلك البحث، وأخذتم بنظر الاعتبار تلك الروايات المعتبرة والمشهورة المنقولة عن طرق السنّة والشيعة ستلاحظون بأنّه لم يطرح أى تفسير صحيح وجدير بالملاحظة بشأن الأئمة الاثني عشر (أو الخلفاء والأمراء الاثني عشر) سوى ما نقله الشيعة، وبقي الجميع متحيرين فى تفسير عدد الاثني عشر بشأن خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله.

إنّ هذه الروايات المنقولة فى أكثر مصادر الحديث اعتباراً، على درجة من القوة بحيث أنّها غير قابلة للانكار، والتفسير الصحيح والوحيد لهذه المسألة هو التفسير الذى ذكره «الإمامية».

نأمل أن يأتى اليوم الذى ندع فيه أحكامنا المسبقة جانباً، ونشرع بانجاز بحثٍ جديد ومستقل فى هذه الروايات والآيات القرآنية بشأن الإمامة وخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، لعل ذلك يؤدى إلى فتح آفاقٍ جديدة امام الجميع.

(١) ينابيع المودة، ص ٤٤٠، الباب ٧٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٤٢، الباب ٧٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣١٩

الإمام المهدي عليه السلام

إشارة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢١

الإمام المهدي عليه السلام

تمهيد:

إشارة

على العكس مما يتصوره بعض الجهلة فإنّ الاعتقاد بقيام المهدي عليه السلام وحكومته العالمية، لا يختص فقط بالشيعة واتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، بل إنّ جميع الفرق الإسلامية دون استثناء يعتقدون بظهور رجل من ذرية الرسول فى آخر الزمان يسمى المهدي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، ونقلوا رواية هذا الموضوع فى كتبهم عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

وقد كتبت مصنفات كثيرة وذكرت روايات عديدة فى هذا الصدد على أيدي علماء السنّة والشيعة سنشير إلى بعض منها فى الأبحاث القادمة.

هذه الروايات من الروايات المتواترة والقطعية وأيدها جميع المحققين من الإسلاميين - بصرف النظر عن مذاهبهم الخاصة، باستثناء عدد محدود مثل «ابن خلدون»، و «أحمد أمين المصري» اللذان شككا في صدور هذه الروايات عن الرسول صلى الله عليه وآله، وبين أيدينا مجموعة من القرائن الدالة على أن الباعث الذي حملهم على هذا السلوك لم يكن ضعف الروايات، بل لعلمهم كانوا يتصورون بأن الروايات المتعلقة بظهور المهدي تنطوي على الخارق من العادات بحيث لا يسعهم تصديقها بسهولة.

هذا في الوقت الذي وافقت على ذلك أكثر الفرق الإسلامية تعصباً لاسيما الوهابيون، واعترفوا بتواتر أحاديثه.

والشاهد على هذا الادعاء بيان صدر قبل عدة سنوات من قبل رابطة العالم الإسلامي

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٢

الواقعة بشدة تحت نفوذ الوهابيين وحكومة آل سعود، جواباً على سؤالٍ موجهٍ لهم بشأن ظهور الإمام المهدي عليه السلام.

وكان هذا البيان بمثابة جواب لأحد أهالي (كينيا) باسم «أبو محمد» وتوقيع الامين العام «رابطة العالم الإسلامي» «محمد صالح القزاز»، وقد ورد في هذا البيان مايلي:

أن «ابن تيمية» مؤسس مذهب الوهابيين يؤيد الأحاديث المتعلقة بالمهدي عليه السلام. وقد تطرق البيان بعد ذلك إلى الرسالة التي أعدها خمسة من علماء الحجاز المعروفين في هذا الشأن: ونقرأ في مقطع من هذه الرسالة:

(عندما يظهر الفساد في العالم وينتشر الكفر والظلم، سوف يملأ الله تعالى العالم عدلاً ب (المهدي) كما ملئ ظلماً وجوراً، وأنه آخر الخلفاء الراشدين الاثني عشر الذين أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وآله في كتب الصحاح المعتمدة ...).

وقد نقل الكثير من صحابة النبي صلى الله عليه وآله الأحاديث المتعلقة بالمهدي، ومن جملتهم:

عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، طلحة بن عبيد الله، عبد الرحمن بن عوف، عبد الله بن عباس، عمار بن ياسر، عبد الله بن مسعود، أبو سعيد الخدري، ثوبان، قره بن اياس المزني، عبد الله بن الحارث، أبو هريرة، حذيفة بن اليمان، جابر بن عبد الله الأنصاري، أبو امامة، جابر بن ماجد، عبد الله بن عمر، أنس بن مالك، عمران بن الحصين، وام سلمة.

وهؤلاء عشرون شخصاً ممن نقلوا روايات المهدي، ويوجد كثير غيرهم.

كما نقلت أحاديث كثيرة حول ظهور المهدي عبر أولئك الصحابة أنفسهم بما يمكن اعتبارها من ضمن الروايات النبوية، لأن هذه المسألة ليست بالتي يمكن الاجتهاد حولها (ولذلك فإن الصحابة سمعوا بها من النبي صلى الله عليه وآله).

ثم يضيف: إن هاتين المسألتين - أي روايات النبي صلى الله عليه وآله وروايات الصحابة التي لها هنا حكم الحديث - وردتا في الكثير من المتون الإسلامية المعروفة وكتب الحديث الرئيسية فضلاً عن (السنن) و (المعاجم) و (المسانيد).

ومن جملتها (سنن أبي داود، سنن الترمذي، ابن ماجه، ابن عمرو، مسند أحمد، وابن

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٣

ليلي والبرزاز، وصحيح الحاكم، ومعجم الطبراني، والدارقطني، وأبو نعيم، والخطيب البغدادي، وابن عساكر وغيرهم).

ثم يضيف: ولأهمية هذه القضية كتب وألف البعض من علماء المسلمين كتباً خاصة بموضوع أخبار المهدي، من ضمنهم (أبو نعيم الاصفهاني) في [أخبار المهدي و (ابن حجر الهيثمي) في [القول المختصر في علامات المهدي المنتظر] والشوكانى في [التوضيح في تواتر (ما) جاء في المنتظر والدجال والمسيح و (ادريس العراقي المغربي) في كتاب [المهدي وأبو العباس ابن (عبد المؤمن المغربي) في كتاب [الوهم المكنون في الرد على ابن خلدون .

يضيف بعد ذلك: وقد صرح قسم من علماء المسلمين الكبار - قديماً وحديثاً - في تأليفاتهم بأن الأحاديث المتعلقة بالمهدي وصلت إلى حد التواتر (ولهذا فهي غير قابلة للانكار).

ومن جملة هؤلاء (السخاوي) في كتاب [الفتح المغيث ومحمد بن أحمد السفاويني في [شرح العقيدة]، وأبو الحسن الابري في [مناقب

الشافعي ، وابن تيميه في كتاب فتاواه، والسيوطي في [الحاوي ، وادريس العراقي في كتابه، والشوكاني في [التوضيح ، ومحمد جعفر الكناني في [نظم التنافر].

ويقول في نهاية هذا المبحث: إن (ابن خلدون) فقط حاول النيل من أحاديث المهدي ولكن سادة الدين وعلماء المسلمين ردوا أقواله، وبعض آخر مثل (ابن عبد المؤمن) ألفوا كتباً خاصة في الرد عليه.

وخلاصة القول: إن حفظه الحديث وعظمة الشريعة قد صرحوا بأن أحاديث المهدي تشتمل على روايات صحيحة وحسنه تؤدي بمجموعها إلى التواتر.

ويستنتج في الختام: (وبناءً على ذلك فإن الاعتقاد بظهور المهدي يعتبر واجباً على كل مسلم، وهو جزء من عقائد أهل السنة والجماعة، ولا ينكر ذلك إلا كاهل أو مبتدع) «١».

(١) من الرسالة المؤرخة في ٢١ مايو ١٩٧٦ التي جاءت بتوقيع مدير المجمع الفقهي الإسلامي محمد منتظر الكناني، وهي الرسالة التي جاءت نتيجة مباحثة المذكور مع أربعة أشخاص آخرين من فقهاء الحجاز المعروفين وهم، الشيخ صالح بن عثيمين، والشيخ أحمد محمد جمال، والشيخ أحمد علي، والشيخ عبد الله الخياط.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٤

ومن الضروري أيضاً الإشارة إلى هذا المطالب، أنه حسب اعتقاد طائفة من المحققين، فإن الاعتقاد بوجود المهدي لا يقتصر على المسلمين فقط، بل إن سائر اتباع المذاهب الأخرى أيضاً في انتظار مصلح كبير لهذا العالم، وقد اشير إلى هذا المعنى في مصادرهم المختلفة، وللتعرف على الشرح الوافي لهذا الموضوع لا بد من مطالعة الكتب المصنفة بشأن ظهور المهدي «١».

والآن ومع الأخذ بنظر الاعتبار اسلوب مباحث الكتاب التي تدور حول محور التفسير الموضوعي، ننتقل إلى الآيات التي تشير إلى هذا الظهور الكبير:

١- حكومة الصالحين في الأرض

نقرأ في قوله تعالى «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ*» أَنَّ فِي هَذَا لَبَّائِحًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ». (الأنبياء/ ١٠٥-١٠٦)

تأتي هذه الآيات بعد الآيات التي تبين الأجر الأخرى للصالحين، وفي الواقع فإنها تكشف عن الأجر الدنيوي لهم، وهو أجر مهم جداً، ذلك أنه يهيء أرضية السعادة وتطبيق أحكام الله تعالى وصلاح ونجاة المجتمع الإنساني.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار أن «الأرض» بمعناها المطلق تشمل كل الكرة الأرضية، وجميع أنحاء العالم (إلا إذا كانت هناك قرينة خاصة)، فإن هذه الآية تعدّ بشاراً بخصوص الحكومة العالمية للصالحين، وإذ لم يتحقق هذا المعنى في الماضي، فلا بد من انتظار تحققه في المستقبل، وهذا هو نفس الشيء الذي نتوخاه تحت عنوان «الحكومة العالمية للمهدي».

(١) بإمكانكم مراجعة كتاب ثورة المهدي العالمية بهذا الشأن.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٥

وهذه الملاحظة جديرة بالاهتمام أيضاً إذ تقول الآية: ولقد كتبنا هذا الوعد في كتب الأنبياء السابقين أيضاً، وهذه إشارة إلى أن هذا الوعد ليس وعداً جديداً، بل إنه امرٌ متجذر ورد في المذاهب الأخرى أيضاً.

والمراد ب «الزبور» على الأقوى نفس «زبور داود»، وهو عبارة عن مجموعة من المناجاة، والأدعية، ونصائح داود النبي المذكورة في

كتب العهد القديم (الكتب الملحقة بالتوراة) باسم «مزامير داود».

واللطيف أنه- بالرغم من كل التحريفات التي طالت كتب العهد القديم بمرور الزمان- فإن هذه البشارة الكبيرة يمكن ملاحظتها بشكل واضح في نفس هذا الكتاب أي «مزامير داود».

ونقرأ في المزمور / ٣٧ الجملة / ٩: (... لأن الأشرار سينقطعون، وأمّا المتوكلون على الرب فسيكونون ورثة الأرض، وحالاً يخفى الأشرار، وكلما بحث عنهم فسوف لن تجد لهم أثراً).

وجاء في الجملة / ١١: (أما المتواضعون فقد ورثوا الأرض، وهم يتلذذون من وفور النعمة).

وورد المعنى نفسه أيضاً في الجملة / ٢٧ من نفس المزمور بالعبارة التالية: (لأنّ مباركى الرب سيرثون الأرض، اما ملعونوه فسوف يتقطعون).

وجاء في الجملة / ٢٩: (فالصديقون ورثوا الأرض، وسيسكنونها أبداً).

ومن الواضح أن التعابير السابقة من قبل «الصديقون»، «المتوكلون»، «المتبركون» و «المتواضعون» إشارة لعبارة «عبادى الصالحون» التي وردت في القرآن الكريم.

والمراد من «الذكر» في الآية الآنفه، الذكر حسب اعتقاد الكثير من مفسرى التوراة، وتشهد على ذلك الآية: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرَى لِّلْمُتَّقِينَ».

(الأنبياء / ٤٨)

واحتمل البعض الآخر أن المراد من «الذكر»، «القرآن»، وجميع كتب الأنبياء السابقين

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٤

من «الزبور»، (وبناء على ذلك فإن معنى الآية يصبح بهذا الشكل: لقد كتبنا هذه البشارة في جميع كتب الأنبياء السابقين بالاضافة للقرآن).

وعلى أيّة حال فإن هذه البشارة قد جاءت أيضاً في قسم من ملحقات التوراة مثل كتاب «النبى اشعيا» كما نقرأ ذلك في الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب:

«الاذلاء بعدالة الحكم، وستكون الأرض حقاً نكالاً «ورمزاً لليقظة» للمساكين ... حزام ظهرها العدل ... ونطاق وسطها سيكون الوفاء ... سيسكن «سيانس» الذئب مع الشاة ...

وسيكون الطفل الصغير راعيها ... لأن الأرض ستمتلىء من علم الله، كما تمتلىء البحار من المياه).

كما تلاحظ مثل هذه الإشارات في كتاب التوراة نفسه أيضاً من جملتها: الفصل / ١٣ رقم ١٥: (سنعطى الأرض إلى واحد من أولاد إبراهيم. ولو عد أحد ذرات غبار الأرض لعدّ ذريته).

وجاء في الفصل / ١٧ الجملة / ٢٠: (اعطيته «إسماعيل» بركتى وارييته (ابناؤه) إلى أقصى غاية وسيظهر منه اثنا عشر سيداً وامة عظيمة).

لاحظوا الجملة الثانية عشر فانه سيبعث السرور ممّا يدل على أنّ الأئمة الاثنى عشر كلهم من ذريته وأولاده.

وفى الفصل / ١٨ الجملة / ١٨: (سيبارك منه جميع أقوام الدنيا ...).

وهناك تعابير واشارات اخرى من هذا القبيل لو اردنا ذكرها لطلال بنا المقام.

لقد وردت هذه المسألة بشكل صريح فى الروايات الإسلامية أيضاً- بالإضافة إلى الإشارات الواضحة لمسألة قيام المهدي عليه السلام فى الآية السابقة، ومنها أنّ المرحوم «الطبرسى» فى «مجمع البيان» نقل فى نهاية هذه الآية عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «هم

أصحاب المهديّ فى آخر الزمان». نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٧

وجاء فى تفسير القمى أيضاً فى نهاية هذه الآية مايلى: «قال القائم واصحابه».

ليس من شك في أنه من الممكن أن يقيم عباد الله الصالحون حكومة على جزء من الأرض، كما حصل في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وبعض الأعصار الاخرى إلا أن استقرار الحكومة بأيدي الصالحين على وجه الأرض كلها ستحصل في عصر المهدي عليه السلام فقط، وهناك روايات كثيرة بلغت حد التواتر، وقد وردت عن طرق السنّة والشيعه بهذا الصدد.

كما أنّ «الشيخ منصور على ناصف» مؤلف كتاب «التاج الجامع للاصول» - وهو كتاب يضم الاصول الخمسة المعروفة لدى السنّة، وقد كتب علماء الازهر تقارير مهمة عليه - أورد في الكتاب المذكور ما يلي: «اشتهر بين العلماء سلفاً وخلفاً أنّه في آخر الزمان لابد من ظهور لرجل من أهل البيت مسمى المهدي يستولى على الممالك الإسلامية ويتبعه المسلمون ويعدل بينهم ويؤيد الدين». ثم يضيف قائلاً: «وقد روى أحاديث المهدي جماعة من خيار الصحابة، واخرجهما أكابر المحدثين: كابي داود، والترمذي، وابن ماجه، والطبراني، وأبي يعلى والبراز والإمام أحمد والحاكم» (١).

لم يستطع حتى ابن خلدون المعروف بمخالفته لأحاديث المهدي، انكار شهرة هذه الأحاديث بين جميع علماء الإسلام أيضاً (٢). ومن الذين أوردوا تواتر هذه الأخبار في كتبهم «محمد الشبلنجي» العالم المصري المعروف في كتاب «نور الأبصار» إذ يقول: «تواتر الأخبار عن النبي صلى الله عليه وآله على أنّ المهدي من أهل بيته وأنه يملأ الأرض عدلاً». لقد ورد هذا التعبير في الكثير من الكتب الاخرى أيضاً، حتى أنّ «الشوكاني» من علماء السنّة المعروفين يقول في كتاب ألفه حول تواتر الأحاديث المرتبطة بالمهدي عليه السلام، وخروج الدجال، وعودة المسيح عليه السلام، بعد بحث مفصل بشأن تواتر الأحاديث المتعلقة بالمهدي عليه السلام:

(١) التاج الجامع للأصول، ج ٥ ص ٣٤١ (ورد هذا المطلب كهامش في تلك الصفحة).

(٢) ابن خلدون، ص ٣١١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٨

«هذا يكفي لمن كان عنده ذرّة من الإيمان وقليل من انصاف» (١).

ومن المستحسن هنا أن نذكر على الأقل بعضاً من روايات النخبة الواردة في أشهر المصادر الإسلامية كنموذج من هذا البيدر:

١- ينقل «أحمد بن حنبل» من أئمة السنّة الاربعة في كتابه «مسند أحمد» عن «أبو سعيد الخدري» أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «لا تقوم الساعة حتى تمتلأ الأرض ظلماً وعدواناً، قال ثم يخرج رجل من عترتي أو من أهل بيتي يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً» (٢).

٢- ونقل الحافظ أبو داود السجستاني نفس هذا المعنى في كتابه «السنن» مع فارق ضئيل (٣).

٣- نقل الترمذي المحدث المعروف بسند صحيح (طبقاً لتصريح منصور على ناصف في التاج) عن عبد الله، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «لو لم يبق من الدنيا إلما يوم لطلوّ الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي» (٤)، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً» (٥).

وأورد الحاكم النيسابوري في «المستدرک» ما يشبه هذا الحديث مع فارق قليل، ويقول في نهايته: هذا حديث صحيح (٦).

٤- ونقل أيضاً في صحيح «أبي داود» عن أم سلمة أنّها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنه كان يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة» (٧).

(١) نقلاً عن كتاب التاج، ج ٥، ص ٣٦٠.

(٢) مستدرک أحمد، جملة ٣، ص ٣٦.

(٣) سنن أبي داود، ج ٤ ص ١٥٢.

(٤) صرح بعض العلماء الكبار أن الصحيح هنا، اسم ابيه اسم ابني، وبهذا الشكل يكون موافقاً تماماً للاسم المبارك للإمام المهدي حسب اعتقاد الشيعة أي (محمد بن الحسن العسكري).

(٥) التاج، ج ٥، ص ٣٤٣.

(٦) المستدرک، ج ٤، ص ٥٥٨.

(٧) صحيح أبي داود، ج ٢، ص ٢٠٧.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٩

٥- نقل الحاكم النيسابوري في المستدرک، حديثاً أكثر تفصيلاً بهذا الشأن عن أبي سعيد الخدري عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «يَنْزِلُ بِأَمْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ بَلَاءٌ شَدِيدٌ مِنْ سُلْطَانِهِمْ، لَمْ يُسْمَعْ بَلَاءٌ أَشَدَّ مِنْهُ، حَتَّى تَضِيقَ عَنْهُمْ الْأَرْضُ الرَّحْبَةَ، وَحَتَّى يَمْلَأُ الْأَرْضَ جَوْرًا وَظُلْمًا، لَا يَجِدُ الْمُؤْمِنُ مَلْجَأً يَلْتَجِئُ إِلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَجُلًا مِنْ عَتْرَتِي، فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئْتُ ظُلْمًا وَجَوْرًا، يَرْضَى عَنْهُ سَاكِنُ السَّمَاءِ وَسَاكِنُ الْأَرْضِ، لَا تَدْخِرُ الْأَرْضُ مِنْ بَدْرِهَا شَيْئًا إِلَّا أَخْرَجْتَهُ، وَلَا السَّمَاءُ مِنْ قَطْرِهَا شَيْئًا إِلَّا صَبَّهَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا» (١).

وبعد ذكر هذا الحديث يقول الحاكم: هذا حديث صحيح وبالرغم من أن «البخاري» و«مسلم» لم يورداه في كتبهما. ومثل هذه الأحاديث - الواردة عن مختلف الرواة من المصادر المشهورة - كثيرة جداً، وتشير إلى الحكومة العالمية التي ستقام في نهاية المطاف على اليد المقتردة الكفوءة للإمام المهدي عليه السلام، ويملاً العدل والقسط كل مكان، ويتحقق بالتالي مضمون الآية السابقة: «أَنَّ الْأَرْضَ يَرْتُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ».

٢- آية سورة النور

نقرأ في قوله تعالى «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» (النور/ ٥٥)

لقد بشر المؤمنون الصالحون في هذه الآية المباركة وبشكل صريح، أنهم سيمسكون زمام السلطة والحكومة على الأرض في نهاية المطاف، وسيُنشر الدين الإسلامي، وستتبدل حالات اللا أمن والخوف إلى الاستقرار والأمن، وتقلع جذور الشرك في جميع أنحاء العالم،

(١) المستدرک على الصحيحين، ج ٤، ص ٤٦٥.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٠

ويتمكن عباد الله من مواصلة عبادة الله الواحد الأحد بكل حرية، وتتم الحجّة على الجميع، بحيث لو أن أحداً أراد أن يواصل مسير الكفر سيكون فاسقاً ومقصراً، (أرجو أن تتأملوا في القسم الأخير من الآية بدقّة).

وبالرغم من أن هذه الامور الهامة كانت تعد وعداً إلهياً تحقق في عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأزمة اللاحقة من بعده بنحو أوسع للمسلمين في العالم، وعاد الإسلام الذي كان يوماً ما تحت قبضة الأعداء يعاني من وطأة الظلم بحيث لم يسمحوا له بأدنى فرصة للظهور والبروز على الساحة، ويعيش المسلمون في حالة دائمة من الخوف والفرع، عاد في نهاية المطاف وانتشر ليس في شبه جزيرة العرب فحسب، بل عمّ أجزاء عظيمة واسعة من العالم، وانكفأ الأعداء منهزمين في جميع الجبهات، ولكن بالرغم من هذا كله،

فإنَّ حكومة الإسلام العالمية التي يجبُ أن تعمَّ كافة أرجاء المعمورة و آفاق الأرض، وتقلع جذور الشرك وعبادة الأوثان بشكل نهائي، وتنشر الأمن والآمان والهدوء والحرية والتوحيد الخالص، لم تتحقق بعد، إذن يجب انتظار تحقق هذا الأمر.

سيتحقق هذا الأمر طبقاً لما ورد في الرواية المتواترة التي أشرنا إليها آنفاً في عصر قيام المهدي عليه السلام، وبناءً على ما تقدم فإنَّ احدي مصاديق هذه الآية تحققت في عصر النبي صلى الله عليه وآله والأعصار المقارنة له، وسيتحقق شكله الأوسع في عصر قيام المهدي عليه السلام، ولا منافاة بين هذين الأمرين، ولا بد من تحقق هذا الوعد الإلهي في كلا المرحلتين.

المراد من الاستخلاف هنا خلافة الأقبام الكافرة الماضية، إذ تزول فيها حكومتهم وتحل محلها حكومة الحق، نظير ما جاء في قوله تعالى «ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ». (يونس / ١٤) وقد ورد شبيه هذا المعنى في الآيتين ٦٩ و ٧٤ من سورة الأعراف.

وبناءً على ذلك، فالذين تصوروا أنَّ الآية تعد دليلاً واضحاً على خلافة الخلفاء الأربعة - أمثال الفخر الرازي - باعتبار أنَّ أولئك هم الذين استخلفوا الرسول، وأنَّ الوعد الإلهي قد تحقق في عصرهم، إنما وقعوا في الخطأ، لأنَّ هذه الآية لا يراد بها خلافة الرسول، بل خلافة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣١

الأقبام السابقة كما ورد ذلك في الآيات الثلاثة الآتية الذكر، وكما ورد في قوله تعالى «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا». (الأعراف / ١٣٧)

من البديهي أنَّ بنى اسرائيل ورثوا الفراعنة وسيطروا على جميع أنحاء ذلك البلد الواسع الملى بالبركات (مصر وأطرافها). على أيَّة حال فإنَّ الآية تُبشر بقيام حكومة المؤمنين الصالحين في جميع أنحاء العالم، تلك الحكومة التي تحقق مقدار واسع منها في عصر رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وبعده، وهي وإن لم تعمَّ جميع العالم، إلَّا أنها كانت نموذجاً على تحقق هذا الوعد الإلهي، ولكن لم تتحقق بعد على هيئة حكومة عالمية تعمَّ أرجاء المعمورة، والمصادق النهائي لها سوف يتحقق بقيام حكومة الإمام المهدي عليه السلام مع توفر الأرضية والظروف بمشيئة الله تعالى إذ ستملأ الدنيا عدلاً وقسطاً طبقاً لما ورد في الروايات الصادرة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسائر الأئمة المعصومين عليهم السلام، بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، ونحن بانتظار تحقق هذا الوعد القرآني. والروايات الواردة في المصادر المختلفة في تفسير هذه الآية تؤكد وتؤيد هذه المسألة أيضاً.

ومنها إنَّ المفسر المعروف «القرطبي» ينقل في تفسير «الجامع لاحكام القرآن» في نهاية هذه الآية عن «سليم بن عامر»، عن «المقداد بن اسود»، يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ما على ظهر الأرض بيت حجر ولا مدرٍ إلَّا أدخله الله كلمة الإسلام» (١). وفي تفسير «روح المعاني» نُقل عن «الإمام على بن الحسين عليه السلام» أنه قال في تفسير هذه الآية: «هم والله شيعتنا أهل البيت يفعل ذلك بهم على يد رجل منا وهو مهدي هذه الامة وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لو لم يبق من الدنيا إلَّا يوم واحد لطوّل الله تعالى ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي اسمه اسمي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً».

(١) تفسير القرطبي، ج ٧ ص ٤٦٩٢.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٢

ويمكن مشاهدة هذا المعنى باختلاف قليل في الكثير من مصادر أهل البيت عليهم السلام.

وبالرغم من أنَّ «الآلوسي» لم يقيم هذا الحديث برأى ايجابي في تفسير «روح المعاني»، إلَّا أنه يقول في نهايته:

وردت عدّة روايات عن طرقنا تؤيد هذا المعنى وإن لم نعوّل عليها - كرواية «عطية» عن النبي صلى الله عليه وآله بعد أن تلا هذه الآية،

قال صلى الله عليه وآله: «أهل البيت هاهنا وأشار إلى القبلة» (١).

وينقل القرطبي حديثاً آخر بهذا الشأن أيضاً أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «زُوِيَتْ لِي الْأَرْضُ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَسَيَّبُلُغُ مَلِكُ أُمَّتِي مَا زَوَى لِي مِنْهَا» (٢).

يَتَضَحُّ مِنْ كُلِّ مَا أَسْلَفْنَاهُ، الْجَوَابُ عَنِ الْكَثِيرِ مِنْ مَوْأَخَذَاتِ الْمُخَالَفِينَ لِمَنْطِقِ اتِّبَاعِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ. وَتَوْضِيحِ ذَلِكَ: إِنَّهُ كَمَا قَلْنَا سَابِقًا: إِنَّ تَحَقُّقَ هَذَا الْوَعْدِ الْإِلَهِيِّ لَهُ عَدَّةٌ مَرَّاحِلٌ، وَاحِدَى هَذِهِ الْمَرَّاحِلِ حَصَلَتْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ فِي عَصْرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، إِذْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ وَسَيْطَرَةِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، شَعَرَ الْمُسْلِمُونَ فِي ظِلِّ الْإِسْلَامِ وَالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِأَمْنٍ نَسَبِيٍّ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى جُزْءٍ عَظِيمٍ مِنَ الْمَنْطِقَةِ، وَتَحَقَّقَ بِذَلِكَ مَا وَرَدَ بِشَأْنِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ. (وَقَدْ وَرَدَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي الْعَدِيدِ مِنَ التَّفَاسِيرِ، وَمِنْهَا أَسْبَابُ النُّزُولِ، وَمَجْمَعُ الْبَيَانِ، وَفِي الظَّلَالِ، وَالْقُرْطُبِيِّ (بِاخْتِلَافٍ بَسِيطٍ)، أَنَّهُ عِنْدَمَا هَاجَرَ رَسُولُ الْإِسْلَامِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَاسْتَقْبَلَهُمُ الْأَنْصَارُ بِأَحْضَانِهِمْ، نَهَضَ الْعَرَبُ بِأَجْمَعِهِمْ ضَدَّهُمْ، بِحَيْثُ إِنَّهُمْ اضْطَرُّوا إِلَى عَدَمِ مَفَارِقَةِ اسْلِحَتِهِمْ، فَيَنَامُونَ اللَّيْلَ بِالسَّلَاحِ، وَيَسْتَيْقِظُونَ الصَّبْحَ مَعَ السَّلَاحِ، وَكَانَ الْإِسْتِمْرَارُ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ يَثْقُلُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَخَذَ بَعْضُهُمْ يَتَسَاءَلُ إِلَى مَتَى سَتَسْتَمِرُّ هَذِهِ الْحَالَةُ؟ هَلْ سَيَأْتِي زَمَانٌ نَامَ فِيهِ اللَّيْلُ بِرَاحَةٍ بَالٍ وَاطْمَئِنَانٍ، وَلَا نَخْشَى أَحَدًا سِوَى اللَّهِ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَبَشَّرَتْ بِقَرْبِ حُلُولِ هَذَا الْوَقْتِ).

(١) تفسير روح البيان، ذيل آية مورد البحث.

(٢) تفسير القرطبي، ذيل آية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٣

وَالْمَرَّحَلَةُ الْآخَرَى لِهَذَا الْوَعْدِ، حَصَلَتْ فِي زَمَنِ الْخُلَفَاءِ إِذْ سَيْطَرَ الْإِسْلَامُ عَلَى أَجْزَاءٍ وَاسِعَةٍ مِنَ الْعَالَمِ وَأَخْضَعَهَا لِسُلْطَتِهِ، فَعَادَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِمَزِيدٍ مِنَ الْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ.

إِلَّا أَنَّ الْمَرَّحَلَةَ الثَّلَاثَةَ وَالنِّهَايَةَ أَى عَالَمِيَّةَ الْإِسْلَامِ وَحَاكِمِيَّةَ الْمَطْلُوقَةَ عَلَى الْعَالَمِ الْمُتَمَرِّضَةَ مَعَ الْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَانْتِصَارِ جَيْشِ التَّوْحِيدِ عَلَى مَعْسُكِ الشَّرْكَ وَلَمْ يَتَحَقَّقْ بَعْدَ، وَسَيَقْتَصِرُ تَحَقُّقُهُ عَلَى عَصْرِ قِيَامِ الْمَهْدِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَطْ، وَهَذِهِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةُ الَّتِي تَمَثِّلُ سَلْسَلَةَ مَرَّاحِلِ لِحَدِيثٍ وَاقِعِيٍّ لَا تَوْجِدَ بَيْنَهَا أَيَّةَ مَنَافَاةٍ.

كَمَا يَسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا، أَنَّ هَذَا الْوَعْدَ الْإِلَهِيَّ يَخْتَصُّ بِالْأَفْرَادِ الَّذِينَ يَمْتَلِكُونَ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَيَقِينًا كَلِمًا تَحَقَّقَ هَذَانِ الشَّرْطَانِ فِي أَى عَصْرٍ وَمَصْرٍ سَوْفَ تَتَهَيَّأُ لِلْمُسْلِمِينَ أَحَدَى مَرَّاحِلِ هَذِهِ الْحَاكِمِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَبِالْمَقَابِلِ كَلِمًا حَدَّثَتْ هَزِيمَةً مَا، وَعَادَ الْمُسْلِمُونَ أَذْلَاءَ ضَعْفَاءَ فِي قَبْضَةِ الْأَعْدَاءِ، يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ بِأَنَّ ذَيْنِكَ الْأَسَاسِينَ الَّذِينَ يَمَثِّلَانِ شَرْطِيَّ تَحَقُّقِ الْوَعْدِ الْإِلَهِيِّ قَدْ طَوَّيْتَهُمَا صَحْفَ النِّسْيَانِ، فَالِإِيمَانُ عَادَ ضَعِيفًا، وَالْأَعْمَالُ آتَتْ مَلُوثَةً!

٣- آية ظهور الحق

نَقَرَأُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ». (التوبة/ ٣٣) تجدر الإشارة إلى أن هذه الآية تأتي بعد آية: «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ».

وَأَعْطَى اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ - كَمَا فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ - الْوَعْدَ فِي غَلْبَةِ وَانْتِصَارِ الْإِسْلَامِ عَلَى كَافَّةِ الْأَدْيَانِ فِي الْعَالَمِ.

وَحَوْلَ السُّؤَالِ الْقَائِلِ: مَا هُوَ الْمَقْصُودُ بِانْتِصَارِ الْإِسْلَامِ عَلَى كَافَّةِ الْأَدْيَانِ؟ أَعْطَى الْمَفْسُورُونَ عَدَّةً مِنْ أَحْتِمَالَاتِ.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٤

فَالْفَخْرُ الرَّازِيُّ يَعْطِي خَمْسَةَ تَفَاسِيرٍ هُنَا تَعَدُّ جَوَابًا عَلَى الْاسْئَلَةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِكَيْفِيَّةِ هَذِهِ الْغَلْبَةِ:

١- المقصود بالغلبة هو الغلبة النسبية والموضعية، ذلك إن الإسلام انتصر بمنطقه على جميع الأديان والمذاهب.

٢- المراد هو الانتصار على الأديان في الجزيرة العربية.

٣- المراد إخبار النبي صلى الله عليه وآله بجميع الأديان الإلهية (فسرت جملة «ليظهره» هنا بمعنى الإخبار).

٤- المراد النصر والغلبة المنطقية، أي أن الله ينصر منطق الإسلام على سائر الأديان.

٥- المراد النصر النهائي على جميع الأديان والمذاهب عند نزول عيسى عليه السلام وقيام المهدي عليه السلام إذ سيصبح الإسلام عالمياً.

ولا شك بأن تفسير الآية بالنصر المنطقي وبصورة وعدٍ مستقبلي لا ينطوي على مفهوم صحيح، لأن النصر المنطقي للإسلام كان واضحاً منذ البداية، إضافة إلى ذلك فإن مادة «الظهور» و «الإظهار» (ليظهره على الدين كله) وكما يستفاد من موارد استعماله في القرآن المجيد، بمعنى الغلبة الخارجية والعينية كما نقرأ ذلك في قصة أصحاب الكهف: «أَنَّهُمْ أَنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ» (الكهف / ٢٠)

ونقرأ في قوله تعالى «كَيْفَ وَأَنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَأَيَّرْقُبُوا فِيكُمْ أَلَّا وَلَا ذِمَّةً».

(التوبة / ٨)

ومن البديهي أن عبدة الأصنام من قوم أصحاب الكهف، ومشركي مكة لم ينتصروا منطقياً على المؤمنين بالله إطلاقاً، واقتصرت غلبتهم على الغلبة الخارجية فقط، وبناءً على هذا فإن المراد بغلبة الإسلام على جميع الأديان هي الغلبة الخارجية والعينية، وليس الغلبة المنطقية والفكرية.

إن هذه الغلبة - وكما ورد نظير ذلك في البحث الماضي - لها مراحل مختلفة:

حصلت إحدى مراحلها في عصر الرسول صلى الله عليه وآله، ومرحلتها الأوسع حصلت في القرون

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٥

التالية، ومرحلتها النهائية ستحصل عند قيام المهدي عليه السلام، لأن الآية الشريفة تتحدث عن غلبة الإسلام على جميع الأديان دون أي قيد وشرط، والغلبة المطلقة دون أي قيد أو شرط إنما تتحقق بشكل كامل عندما تلقى ظلالها على جميع أرجاء المعمورة، كما ورد في رواية رسول الإسلام صلى الله عليه وآله إذ قال: «لا يبقى على ظهر الأرض بيتٌ مَدْرٍ ولا وَبَرٍ أَلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ» «١». ونقل شبيه هذا المعنى في تفسير «الدرر المنتور» عن «سعيد بن منصور، و «ابن المنذر» و «البيهقي» في سننه عن «جابر بن عبد الله» أنه قال في تفسير هذه الآية:

«لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني صاحب مله أَلَّا الْإِسْلَامِ» «٢».

أجل سيتحقق هذا الوعد الكبير في ذلك اليوم الكبير.

ونقل هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية السابقة، إذ قال: «والله ما نزل تأويلها بعد ولا ينزل تأويلها، حتى يخرج القائم، فاذا خرج القائم لم يبق كافرٌ بالله العظيم» «٣».

وهذه الملاحظة على جانب من الأهمية إذ إن الآية: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» قد ورد في

ثلاث سورٍ من القرآن: الأولى في التوبة الآية ٣٣ (كما مرَّ سابقاً)، والثانية في سورة الفتح الآية ٢٨، والثالثة في سورة الصف الآية ٩.

هذا التكرار يبين أن القرآن المجيد قد تابع هذه المسألة بتأكيد متزايد.

ونقرأ في حديث آخر نُقِلَ في مصادر السنَّة عن أبي هريرة: المقصود من الآية: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ»، خروج عيسى بن مريم عليه السلام (ونحن نعلم أن خروج عيسى ابن مريم عليه السلام وطبقاً لما ورد في الروايات الإسلامية سيكون أثناء قيام المهدي عليه السلام)

«٤».

(١) تفسير مجمع البيان، الآية التي نحن بصدددها.

(٢) تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢٣١.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٢.

(٤) تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢٣١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٦

ونختم هذا البحث بحديث منقول عن «قتادة» المفسر المعروف، إذ يقول في تفسير هذه الآية: «الأديان ستّة: الذين آمنوا، والذين هادوا، والصابئون، والنصارى والمجوس، والذين اشركوا، فالأديان كلّها تدخل في دين الإسلام» (١).

ومن الواضح أنّ هذا المعنى لم يتحقق بعدُ بشكل نهائي، ولن يتحقق إلّا في عصر قيام المهدي عليه السلام.

وهذه الملاحظة جديرة بالاهتمام أيضاً، وهي: أنّ المقصود بزوال الديانة اليهودية والمسيحية ليس بشكل كامل، بل المقصود حاكمية الإسلام على العالم اجمع (تأملوا جيداً).

آثار انتظار المهدي عليه السلام:

تصوّر بعض الجهلة أنّ انتظار ظهور المهدي عليه السلام بناءً على الآيات والروايات الآنفه، يمكن أن يتسبب في الركود والتخلف، أو الهروب من تحمّل أعباء المسؤوليات، والاستسلام أمام الظلم والاضطهاد، ذلك أنّ الاعتقاد بهذا الظهور الكبير يعنى في مفهومه اليأس وقطع الأمل في إصلاح العالم قبله، بل وحتى الاعانة على انتشار الظلم والفساد لكي تنهيا الأرضية المناسبة لظهوره!

لقد مرّت سنوات عديدة وألسن المخالفين والمنكرين لقيام المهدي عليه السلام تتناول هذا الحديث، وأشار إلى ذلك ابن خلدون، في الوقت الذي تعد هذه المسألة على العكس من ذلك تماماً، وأنّ انتظار هذا الظهور الكبير له آثار بناءة جداً، سنشير إليها لاحقاً بشكل سريع ومختصر، كي يتّضح أنّ مثل هذا الحكم يعدّ حكماً متسرعاً وغير دقيق أمام مسألة اشير إليها في القرآن المجيد، وكذلك في الأحاديث المتواترة الواردة في الكتب المعروفة للسنة،

(١) تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢٣١.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٧

والمصادر المشهورة للشيعه، ومبيّنه بشكل صريح.

حقيقة الانتظار وآثاره البناءة:

لقد كان الحديث يدور حول حقيقة الإيمان بظهور المهدي عليه السلام ببرنامجه العالمى الذى يملأ بموجه العالم عدلاً وقسطاً ويقطع جذور الظلم والاضطهاد، فهل لتلك الحقيقة آثار تربوية بناءة أم آثار سلبية؟

وهل أنّ الإيمان بمثل هذا الظهور يحمل الإنسان على الاستعراض في افكار تخيلية بحيث يغفل عن واقعه المعاش ويجعله مستسلماً أمام كل الظروف؟

أم أنّ ذلك في حالة صحة هذه العقيدة يعد نوعاً من الدعوة للثورة وبناء الفرد والمجتمع؟

هل يبعث على التحرك أم الركود؟

هل يخلق روح تحمّل المسؤولية أم يكون داعياً إلى الهروب من اعباء المسؤوليات؟!

وأخيراً: هل هو عامل مخدّر أم متبّه؟

ولكن قبل توضيح ومتابعة هذه الاسئلة، يعدّ الالتفات إلى هذه النقطة أمراً ضرورياً جداً، وهى: أن أفضل القوانين وارقى المفاهيم إذا وقعت فى ايدى الأفراد غير الكفوئين أو غير اللائقين أو الانتهازيين يمكن أن تتعرض إلى المسخ الشديد، بحيث تعطى نتائج مغايرة للهدف الأصلي تماماً، وتتحرك بالاتجاه المضاد منها، ولهذه القضية نماذج كثيرة، ومسألة «الانتظار» وبالنحو الذى سنراه فى عداد هذه المسائل.

وعلى أيّة حال فإنّ التخلّص من كافة أنواع الخطأ فى الحساب فى مثل هذه الأبحاث، لا بدّ - كما يقال - من أخذ الماء من مصدره، لكى لا يؤثّر فيه التلوّث المحتمل للأنتهار والقنوت التى يمرّ فيها الماء خلال مسيره.

أى إنّنا سنتوجه فى بحث مسألة «الانتظار» مباشرةً نحو المصادر الإسلامية الأصلية، ونخضع مضامين الأحاديث المختلفة التى تؤكد على مسألة «الانتظار» للبحث والتحقيق، كى نصل إلى الهدف الأساسى.

والآن تأملوا فى هذه الطائفة من الروايات بدقّة:

١- سأل سائل من الإمام الصادق عليه السلام: ماذا تقول فىمن مات وهو على ولاية الأئمّة

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٨

باننتظار ظهور حكومته الحقّ؟

فقال الإمام عليه السلام فى جوابه: «هو بمنزلة من كان مع القائم عليه السلام فى فسطاطه - ثم سكت هنيئاً - ثم قال: هو كمن كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله» (١).

ونقل هذا المضمون نفسه فى روايات كثيرة وبتعابير مختلفة.

٢- وجاء فى بعض منها: «بمنزلة الضارب بسيفه فى سبيل الله».

٣- وفى البعض الآخر: «كمن قارع مع رسول الله صلى الله عليه وآله بسيفه».

٤- وفى البعض الآخر: «بمنزلة من كان قاعداً تحت لواء القائم».

٥- وفى البعض الآخر: «بمنزلة المجاهد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله».

٦- وفى البعض الآخر: «بمنزلة من استشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله».

إنّ هذه التشبيهات السبعة الواردة فى هذه الروايات الستة بشأن انتظار ظهور المهدي عليه السلام، تكشف عن هذه الحقيقة، بوجود نوع من الرابطة والتشابه بين مسألة «الانتظار» من جهة، و«الجهاد»، ومقاتلة الأعداء بأعلى صورة من جهة اخرى (تأملوا).

٧- ورد انتظار مثل هذه الحكومه أيضاً فى روايات متعددة، واشير إليه على أنه أفضل العبادات.

ونقل هذا المضمون فى بعض الأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله، وفى البعض الآخر عن أمير المؤمنين عليه السلام، ونقرأ فى حديث أن الرسول صلى الله عليه وآله قال: «أفضل أعمال امتى انتظار الفرج من الله عزّ وجلّ» (٢).

ونقرأ فى حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه وآله: «أفضل عبادة انتظار الفرج» (٣).

وهذا الحديث سواء نظرنا فيه إلى مسألة انتظار الفرج بالمعنى الواسع للكلمة أو بالمفهوم الخاص لها أى بمعنى انتظار ظهور المصلح العالمى الكبير، يوضح أهميته الانتظار فى بحثنا هذا.

(١) محاسن البرقى طبقاً لنقل بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٣٦.

(٢) اصول الكافى بناءً على نقل بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٣٧.

(٣) اصول الكافي بناءً على نقل بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٣٦.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٩

كل هذه التعبيرات تقول بأجمعها إن الانتظار يعد ثورة مقرونة بشكل مستمر بالجهاد الواسع الشامل، اجعلوا هذه المسألة نصب أعينكم كي تنتقل إلى مفهوم الانتظار، ثم نستخلص النتيجة من مجموع هذه المفاهيم.

مفهوم الانتظار:

«الانتظار»: يُطلق عادةً على حالة من يشعر بعدم الارتياح من الوضع الموجود، ويسعى من أجل إيجاد وضع أفضل. ومثله كمثل المريض الذي ينتظر تحسن حالته، أو الأب الذي يعيش حالة انتظار عودة ولده من السفر، أو من يشعر بعدم الارتياح من مرض أو فراق الولد ويسعى من أجل وضع أفضل. وكذا الحال بالنسبة للتاجر الذي يشعر بعدم الارتياح من وضع السوق المضطرب ويعيش الانتظار كي تنتهي الأزمة الاقتصادية، فانه يعيش كلا الحالتين «عدم الانسجام مع الوضع الموجود»، و«السعي من أجل وضع أفضل». وبناءً على ذلك فإن مسألة انتظار حكومة الحق والعدالة للامام «المهدي» وقيام المصلح العالمي مركبة في الواقع من عنصرين، عنصر «النفي» وعنصر «الإثبات». ويمثل عنصر النفي عدم الانسجام مع الوضع الموجود، ويمثل عنصر الإثبات السعي من أجل الحصول على الوضع الأفضل.

وإن حلت هاتان الخصلتان بصورة متجدرة في روح الإنسان فتكونان مصدرًا لنوعين من الأعمال الواسعة الشاملة. وهذان النوعان من الاعمال يتمثلان بترك أي نوع من أنواع التعاون والانسجام مع عوامل الظلم والفساد، وحتى النضال والاشتباك معها من جهة، وبناء الذات واعدادها والمحافظة عليها من الزلزل، واكتساب الاستعدادات الجسمية والروحية والمادية والمعنوية من أجل تبلور تلك الحكومة العالمية والشعبية الموحدة من جهة اخرى

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٠

ولو تأملنا جيداً نرى أن كلاً منها يعد بناءً وعامل تحرّكٍ ووعيٍ ويقظة.

ومع أخذ المفهوم الأساس «للانتظار» بنظر الاعتبار يمكن أن ندرك جيداً معنى الروايات المتعددة التي نقلناها آنفاً بشأن البشارة، ونتيجة عمل المنتظرين. والآن نفهم لماذا عدّ المنتظرون الحقيقيون أحياناً كالذين مع المهدي عليه السلام في فسطاطه، أو تحت لوائه، أو كالضارب بسيفه في سبيل الله، أو المتشطح بدمه، أو المستشهد؟

أليست هذه الحالات إشارة إلى المراحل المختلفة، ودرجات الجهاد في سبيل الحق والعدالة، والتي تتناسب مع مقدار الاستعداد ودرجة انتظار الأفراد؟

أى، كما أن ميزان تضحية المجاهدين في سبيل الله ودورهم متفاوت فيما بينهم، فإن الانتظار وبناء الذات والاستعداد له درجات متفاوتة أيضاً، بحيث إن كلاً منها يتشابه مع ما يقابلها من حيث «المقدمات» و«النتيجة»، فكلاهما يمثلان الجهاد، وكلاهما يريدان الاستعداد وبناء الذات، فمن كان في فسطاط قائد مثل تلك الحكومة أى في مركز القيادة العامة لحكومة عالمية لا يسعه أن يكون فرداً غافلاً وغير مبال، لأن ذلك المكان ليس لكائن من كان، إنّه مكان أولئك الذين يليقون حقاً بتلك المنزلة والأهميّة.

وكذلك فإن الذي يحمل السلاح بيده ويقاوم بين يدي قائد هذه الثورة ضد المخالفين لحكومته، حكومة الصلح والسلام والعدالة، لا بد وأن يمتلك استعداداً روحياً وفكرياً وقاتلياً عالياً.

ولغرض المزيد من الاطلاع على الآثار الواقعية لانتظار ظهور المهدي عليه السلام نرجو الالتفات إلى التوضيح التالي:

الانتظار يعنى الاستعداد التام:

إشارة

لو كنت ظالماً ومضطهداً كيف يمكن أن أنتظر فرداً تكون دماء الظلمة طعمه لسيفه؟
لو كنت ملوثاً نجساً كيف بوسعى أن أكون فى انتظار ثورةٍ ستأتى شرارتها على حضائر النجسين والملوثين؟
نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤١
فالجيش الذى ينتظر أن يخوض حرباً شعواء يجب أن يعمل على رفع الاستعداد القتالى لأفراده، ويؤجج فيهم روح الثورة، ويعمل على إصلاح أى نقطة ضعف فيه.
لأنّ كيفة «الانتظار» تناسب دائماً مع الهدف الذى نحن بانتظاره.
انتظار مسافر عائد من سفره.
انتظار عودة أحد الأحبة الأعداء.
انتظار حلول موسم جنى الثمار من الأشجار وحصاد المحصول.
وكل نوع من حالات الانتظار هذه ممزوج بنوعٍ من الاستعداد، ففى احداها لا بدّ من اعداد البيت وتوفير وسائل الاستقبال، وفى الاخرى تهيئة الأدوات اللازمة، كالمنجل.
من هنا لكم أن تنظروا إلى أن الذين ينتظرون قيام مصلحٍ عالميٍ كبير فإنهم ينتظرون فى الواقع ثورةً وانقلاباً وتحولاً يعدّ من أوسع واشمل الثورات الإنسانية على مرّ تاريخ البشرية.
إنهم ينتظرون انقلاباً مغايراً للثورات السابقة التى كانت تفتقر إلى الصيغة المنطقية فى محتواها، بل ثورة عامة شاملة لجميع الشؤون والجوانب الحياتية للبشرية، ثورة سياسية وثقافية واقتصادية وأخلاقية.

الفلسفة الاولى بناء الذات فردياً

إنّ مثل هذا التحول يحتاج قبل كل شىء إلى العناصر الإنسانية المستعدة والأمنية لكى يكون بوسع القائمين به تحمّل أعباء تلك الإصلاحات الواسعة فى العالم، ويحتاج ذلك بالدرجة الاولى إلى رفع مستوى التفكير والوعى والاستعداد الروحى والفكرى للمساهمة فى تطبيق ذلك البرنامج العظيم، إنّ النظرات الضيقة والمحدودة، والأفكار المنحرفة، والحسد، والنزاعات الصبانية وغير العقلانية، وبشكل عام كل نوع من النفاق والتشتت لا ينسجم مع مكانة «المنتظرين الواقعيين».

والملاحظة المهمة هى أن المنتظر الحقيقى ليس بوسعه أن يتخذ دور المتفرج أمام هذا

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٢

البرنامج المهم اطلاقاً، ولا بدّ أن ينخرط من الآن فى صفوف الثوريين.

إنّ الإيمان بنتائج وعاقبة هذا التحول لا يسمحان له بأن يكون فى خندق المعارضين اطلاقاً، كما أنّ الانضمام لخندق المؤيدين أيضاً لا يحتاج فقط إلى امتلاك «اعمال نظيفة»، وروح أنظف، والتحلّى «بالشهامه» و «الوعى»، إذ إنّ ذلك وحده لا يكفى.

فلو كنت شخصاً فاسداً وغير مستقيم كيف بوسعى أن أعدّ الأيام فى انتظار نظامٍ ليس فيه للفاستدين وغير الصالحين أى دور أو أثر، بل سيكونون مطرودين وغير مرغوب فيهم.

ألا يكفى هذا الانتظار لتصفية الروح والفكر، وغسل الجسم والروح من الدرن والنجاسات؟

إنّ الجيش الذى يعيش الانتظار لخوض جهاد التحرير لا بدّ وأن يكون فى حالة الانذار القصوى والاستعداد الكامل، ويعمل جاهداً

للحصول على السلاح اللائق بساحة القتال هذه، وبينى المواضيع اللازمة، ويرفع المستوى القتالي لمنتسبيه، ويقوى معنوية أفراده، ويعمل على ابقاء شعله الحب والشوق لمثل هذه المنازلة حية في قلوب جنوده، والجيش الذى لا يتحلى بمثل هذا الاستعداد لا يمكن أن يعيش حالة الانتظار مطلقاً، وإن ادعى ذلك فإنما يكذب.

إن انتظار مصلح عالمى بمعنى الاستعداد الفكرى والأخلاقى، المادى والمعنوى الكامل، إنما هو من أجل إصلاح العالم اجمع، تأملوا كم أن هذا التهيؤ والاستعداد يُعدّ بناءً.

إن إصلاح جميع أرجاء الأرض وإنهاء كل أنواع المظالم والاضطرابات ليس مزاحاً، ولا يمكن أن يكون عملاً بسيطاً، فالاستعداد والتهيؤ لمثل هذا الهدف العظيم يجب أن يكون متناسباً مع حجمه، أى: يجب أن يكون بسعته وعمقه!

ومن أجل تحقيق هذه الثورة، لابدّ من رجال عظماء جداً يمتازون بالتصميم العالى والاقترار الرفيع ولا يقبلون الهزيمة، طاهرين وبعيدى النظر وبشكل استثنائى، وعلى استعداد كامل، ويمتلكون نظرة ثاقبة للأمور.

ويستلزم البناء الذاتى لمثل هذا الهدف استخدام اعمق البرامج الأخلاقية والفكرية

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٣

والاجتماعية، هذا هو معنى الانتظار الواقعى، فهل يتسنى لاحد الادعاء بأن مثل هذا الانتظار ليس بناءً؟

الفلسفة الثانية: أعمال الرعاية الاجتماعية

المنتظرون الصادقون مكلفون فى نفس الوقت بأن لا يركزوا اهتمامهم بأنفسهم فحسب، بل بمراقبة أحوال بعضهم البعض، وأن يبادروا فى إصلاح الآخرين وإصلاح أنفسهم، لأنّ البرنامج العظيم والثقل الذى ينتظرونه ليس برنامجاً فردياً، بل إنه برنامج ينبغى أن تساهم فيه جميع عناصر الثورة، ولا بدّ أن يكون طابع العمل طابعاً جماعياً وجماهيرياً، ولا بدّ أن تتناغم الجهود والمساعدى، وينبغى أن يكون عمق الانسجام وسعته بعظمته ذلك البرنامج الثورى العالمى الذى يعيشون انتظاره.

وفى هكذا ميدان واسع للمنازلة الجماعية، ليس بوسع أى فرد أن يبقى غافلاً عن أحوال الآخرين، بل إنه مكلف بإصلاح أى نقطة ضعف فى أى مكان يراها، وأن يرمم أى موضع متضرر، وأن يقوى كل جزء ضعيف، لأنه بدون الاشتراك الفعال والمنسجم لكل المناضلين فإنّ تطبيق مثل هذا البرنامج يعدّ امراً مستحيلًا.

وبناءً على هذا فإنّ المنتظرين الواقعيين واصله لسعيهم فى إصلاح أنفسهم، مكلفون أيضاً بإصلاح الآخرين.

هذا هو الأثر البناء الآخر لانتظار قيام مصلح عالمى، وهذه هى فلسفة كل تلك الفضائل المعدة للمنتظرين الحقيقيين.

الفلسفة الثالثة: المنتظرون الحقيقيون لا يدوبون فى فساد المحيط

الأثر المهم الآخر الذى يمتاز به انتظار المهدي هو عدم الدوبان فى مفاصد المحيط، وعدم الاستسلام أمام الانحرافات والفساد.

وتوضيح ذلك: إنه عندما يشيع الفساد ويجر الأكرثية نحو التلوث، فإنّ الأفراد الطاهرين

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٤

يواجهون أحياناً مأزقاً نفسياً حاداً لا مخرج منه، مأزقاً مغلقاً نابعاً من اليأس من الإصلاحات.

إنهم يعتقدون أحياناً بأنّ الأمر قد خرج من أيديهم ولا أمل بالإصلاح قط، والسعى من أجل المحافظة والابقاء على الطهارة يعدّ عبثاً، ومن الممكن أن يجرحهم هذا اليأس والاحباط نحو الفساد والتأقلم مع المحيط تدريجياً، بحيث لا يتمكنون معه من المحافظة على أنفسهم بصورة أقلية صالحة أمام الأكرثية الطالحة، وينظرون إلى مسألة عدم التأقلم مع الجماعة كباعث على الفضيحة!

والشئ الوحيد الذى يمكن أن يبعث فيهم «الأمل» ويدعوهم إلى المقاومة والمحافظة على النفس، ولا يدعهم يدوبون فى المحيط

الفاقد هو الأمل بالإصلاح النهائي، في هذه الصورة فقط سوف لن يرفعوا أيديهم عن بذل المساعي والجهود للمحافظة على طهارتهم وإصلاح الآخرين.

وإن كنا نلاحظ في القوانين الإسلامية أن اليأس من غفران الذنوب يعدّ من الذنوب الكبيرة، ومن الممكن أن يتعجب الجاهلون أنه لماذا يعد اليأس من رحمة الله على هذا القدر من الأهمية، بل حتى أنه أهم من كثير من الذنوب، إن فلسفة هذه المسألة تكمن في حقيقة مفادها هو أن المذنب الآيس من الرحمة لا يرى أي مبرر للتفكير بالتكفير عن ذنبه، أو على الأقل الاعراض عن الاستمرار بارتكاب الذنب، ومنطقه يرتكز على أن الماء قد تجاوز هامتي سواء بتمر أو مائة متراً! أنا المفصوح في الدنيا فلن ابالي بهموم الدنيا! ولا لون بعد السواد أشد منه، سأدخل جهنم لا محالة، أنا الذي اشتريت ذلك لنفسى، فمّم الخوف إذن؟! وأمثال هذا المنطق ...

أما عندما تفتح أمامه نافذة أمل، الأمل بعفو الله، الأمل بتغيير الوضع الموجود، ستولد نقطة عطف في حياته تدعوه إلى التوقف عن مسيرة الذنوب والعودة نحو الطهارة والإصلاح.

ولهذا السبب يمكن اعتبار الأمل على أنه عامل تربوي مؤثر في أوضاع الفاسدين دائماً، وكذلك الصالحون المبتلون بالأوساط الفاسدة، لا يسعهم المحافظة على أنفسهم بدون الأمل.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٥

والنتيجة إن انتظار ظهور مصلح يزداد الأمل بظهوره كلما ازدادت الدنيا فساداً، له أثر نفسى متزايد لدى المعتقدين، ويصونهم أمام أمواج الفساد المتلاطمة؛ إنهم لا يعرفون اليأس بمجرد انتشار رقعة فساد المحيط، بل بمقتضى «اقتراب موعد الوصل* يزداد لهيب الشوق والوله» فإنهم يرون موعد الوصل والوصول إلى الهدف الذى هو نصب أعينهم، وتزداد حدة المنازلة مع الفساد أو المحافظة على النفس بكل شوق واستماتة.

من مجموع الأبحاث الماضية نستخلص النتيجة التالية: إن الأثر التخديري للانتظار يقع في حالة واحدة بأن يصبح مفهومه المسخ أو التحريف - كما حرّفه إلى هذا المفهوم جمع من المعارضين، ومسخه جمع من المؤيدين - أمّا لو تُرجم إلى مفهومه الواقعى في المجتمع والفرد فيتحوّل إلى عامل مهم للتربية وبناء الذات والتحرك والأمل.

ومن جملة الأسانيد الواضحة التي تؤيد هذا الموضوع ما جاء في آخر هذه الآية «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ». (النور / ٥٥)

ونقل عن أئمة الإسلام الكرام المقصود بهذه الآية «هو القائم وأصحابه» (١).
ونقرأ في حديث آخر: (نزلت في المهدي).

وفي هذه الآية اشير إلى المهدي عليه السلام وأصحابه بأنهم «الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»، وبناءً على ذلك فإن تحقق هذه الثورة العالمية بدون الإيمان الراسخ الذى لا يداخله أى نوع من الضعف والتخاذل، وبدون الأعمال الصالحة التى تفتح الطريق أمام إصلاح العالم يعدّ أمراً غير ممكن البتة، وعلى الذين ينتظرون مثل هذا البرنامج أن يرفعوا مستوى وعيهم وإيمانهم، وأن يجتهدوا في إصلاح اعمالهم.

ويمكن لهؤلاء الأفراد أن يمنحوا أنفسهم أمل الاشتراك في حكومته فقط، وليس الذين يتعاونون مع الظلم والاضطهاد، وليس البعيدون عن الإيمان والعمل الصالح، ولا الأفراد

(١) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٤.

نفحات القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٦

الجبنة والأذلاء الذين يخشون كل شيء وحتى يخافون من ظلمهم بسبب ضعف إيمانهم.

ولا الأفراد المتقاعسون والكسالى والعاطلون الذين يقفون مكتوفى الأيدي أمام مفسد محيطهم ومجتمعهم مفضلين السكوت دون أن يكون لهم أدنى سعي أو جهد على طريق مواجهة معالم الفساد.

هذا هو الأثر البناء لقيام المهدي عليه السلام فى المجتمع الإسلامى.

اللهم! نور أبصارنا بجمال طلعتة البهية، واجعلنا من أنصاره المخلصين وجنوده المضحين!

نهاية الجزء التاسع من نفحات القرآن

ربيع الثانى سنة ١٤١٥ هـ ق

المطابق لشهر مهر

سنة ١٣٧٣ هـ ش

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام على بن موسى الرضا - عليه السلام: رجم الله عبداً أحمياً أمرنا... يتعلم علومنا ويعلمها الناس؛ فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لأتبعونا... (بناذر البحار - فى تليخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصبهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادى" - رحمه الله - كان أحداً من جهابذة هذه المدينة، الذى قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبى (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام على بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، فى سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه وطريقة لم ينطفي مصباحها، بل تتبع بأقوى وأحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصبهان، إيران - قد ابتدأ أنشطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامى - دام عزه - ومع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلمية و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافة الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأذق للمسائل الدينية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتى المتبدلة أو الرديئة - فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامع ثقافية على أساس معارف القرآن و اهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة فى جامعه، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التى يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - فى آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - فى أنحاء العالم - من جهة أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهرية، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقية و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينية، السياحية و...

(د) إبداع الموقع الانترنتى "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدة مواقع أخرى

ه) إنتاج المنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

و) الإطلاق والدعم العلمي لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخري مع عشرات مراكز طبيعية و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الدينية كمسجد جَمكران و...

ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع " ما قبل المدرسة " الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسة

ي) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربي (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج رمضان" و "مفتق" و فاني/ "بنايه" القائمية

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الإلكتروني: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزات الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينية و العلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
الغمامة اصححان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

